

فلسفة الملابس

تأليف : تومى كاريل
ترجمة : طه السباعى

الأعمال الفكرية



الهيئة المصرية
العامة للكتاب

6

اهداءات ٢٠٠٣
أسرة المرحوم الأستاذ/محمد سعيد البسيوني
الإسكندرية

لوحة الغلاف

اسم العمل الفني : **أزياء وزخارف**

التقنية: **كولاج لصور الأزياء**

المقاس: **٢٥ × ٣٥ سم**

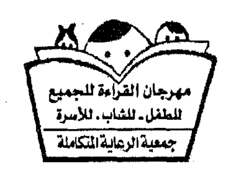
حينما يتعرض فيلسوف مثل كارليل لموضوع مثل الأزياء؛ فإن الأمر جد عظيم، وهو يحدثنا عن فلسفة الملابس، ويقدم الترجمة لنص الكتاب طه السباعي. ولعل هذا الموضوع لم يشغل أي منا على الإطلاق، ولم نعره أدنى انتباه أو التفات، لأنه يعد من الأمور البديهية التي لا تحتاج إلى التفكير؛ هكذا يخيل إلينا.. لكن الأمر على العكس من ذلك تماما، فإن للملابس والأزياء فلسفة، وإلاّ ما اهتم بها الأعداء، فسرقوا الطرز الفنية للتفصيلات والزخارف والنقوش؛ ونسبوها إلى أنفسهم، سرقت إسرائيل الأزياء الفلسطينية والعربية، وباعوها في أغلب الأسواق العالمية، ليدللو على مدى تقدمهم في هذا الفن الرائع، وهم لا فضل لهم.

محمود الهندى

فلسفة الملابس

تأليف : توماس كارليل

ترجمة : طه السباعى



مهرجان القراءة للجميع ٢٠٠١

مكتبة الأسرة

برعاية السيدة سوزان مبارك

(الأعمال الفكرية)

فلسفة الملابس

تأليف : توماس كارليل

ترجمة : طه السباعى

الغلاف

والإشراف الفنى:

الفنان : محمود الهندى

المشرف العام :

د . سمير سرحان

الجهات المشاركة :

جمعية الرعاية المتكاملة المركزية

وزارة الثقافة

وزارة الإعلام

وزارة التربية والتعليم

وزارة الإدارة المحلية

وزارة الشباب

التنفيذ : هيئة الكتاب

على سبيل التقديم :

كان الكتاب وسيظل حلم كل راغب فى المعرفة واقتناؤه غاية كل متشوق للثقافة مدرك لأهميتها فى تشكيل الوجدان والروح والفكر، هكذا كان حلم صاحبة فكرة القراءة للجميع ووليدها «مكتبة الأسرة» السيدة سوزان مبارك التى لم تبخل بوقت أو جهد فى سبيل إثراء الحياة الثقافية والاجتماعية لمواطنيها.. جاهدت وقادت حملة تنوير جديدة واستطاعت أن توفر لشباب مصر كتاباً جاداً وبسعر فى متناول الجميع ليشبع نهمه للمعرفة دون عناء مادى وعلى مدى السنوات السبع الماضية نجحت مكتبة الأسرة أن تتربع فى صدارة البيت المصرى بثراء إصداراتها المعرفية المتنوعة فى مختلف فروع المعرفة الإنسانية.. وهناك الآن أكثر من ٢٠٠٠ عنواناً وما يربو على الأربعين مليون نسخة كتاب بين أيادى أفراد الأسرة المصرية أطفالاً وشباباً وشيوخاً تتوجها موسوعة «مصر القديمة» للعالم الأثرى الكبير سليم حسن (١٨ جزء). وتنضم إليها هذا العام موسوعة «قصة الحضارة» فى (٢٠ جزء).. مع السلاسل المعتادة لمكتبة الأسرة لترفع وتوسع من موقع الكتاب فى البيت المصرى تنهل منه الأسرة المصرية زاداً ثقافياً باقياً على مر الزمن وسلاحاً فى عصر المعلومات.

د. سمير سرحان

فلسفة الملابس

لواضعه

توماس كارليل

ومعربه

طه السباعي

مطبعة البشلاوى بالقاهرة



إهـــــداء2005

أ/إبراهيم منصور غنيم

القاهرة

كارليل

فلسفة الملابس

لواضعه

توماس كارليل

ومعربه

طه السباعي

مطبعة البعلاوى

بسم الله الرحمن الرحيم

كلمة المعرب

« توماس كارليل » اسم غير جديد على مسامع القراء من أبناء العربية. فلقد سبقني أخي محمد السباعي الى تعريب كتابه « الابطال وعبادة البطولة» ولست أشك في أن كثيراً ممن أطلعوا على هذا الكتاب المتع قد فتنوا بطريقته العجيبة فى التفكير، وأسلوبه الاعجب فى التعبير. ولكن «كارليل» قد اقتصر فى كتاب الابطال على شرح مذهبه فى فلسفة التاريخ ورأيه فى تقدير عظماء الرجال، فبقي علينا أن نعرف رأيه فيما هو أجل وأعظم: فى الحياة ذاتها وموقف الانسان ازاء أسرارها الهائلة ومشاكلها العويصة. وذلك ما أحاول اليوم ان أفعله بتعريب كتابه « فلسفة الملابس » (١)

بيد انى لا أدرى أيها القارىء، وقد جلوت عليك هذا الكتاب فى ثوبه العربى، أوفقت الى غرضى أم لم أوفق، وأخفقت في محاولتي أم لم أخفق. لقد أردت ان أحدث فى نفسك ثورة وانقلابا — أن أحل العصابة عن عينك، وانزع السدادة من أذنك، حتى ترى بعض ما يحيط بك من جمال، وحتى تسمع بعض ما يصدح حولك من أنغام. أردت أن أغير ولو لحظة مألوف

---

(١) الاسم المعروف به هذا الكتاب فى اللغة الانجليزية هو « سارتر ريزارتس » وهي عبارة لاتينية معناها: الخياط يرقع.

نسبتك الى الحياة ، وأبدل معهود وضعك فى الكون ، لتنظر الاشياء فى نور جديد ، وتتأمل الدنيا من غير وجهها المعهود ، فتلمح بعض ماخفى عليك من صلات القرب بين المتباعدات ، وأواصر النسب بين المتناقضات ، وتدرك أن الكون كله وحدة مترابطة الاجزاء ، يمت وضيعها الى رفيعها بأمتن الاسباب ، وينتمى دقيقها الى جليلها بأقرب الانساب .

اتذكر اذ أنت غلام كيف كان يلذك أن تنظر الى المرئيات من خلال بلورة تحلل الضوء الابيض الى عناصره الاولية ، فاذا الاشياء التى عهدك بها لا رواء لها ولا بهجة قد اكتست حلة طلية من أصباغ زاهية وألوان بهية ؟ كذلك أردت أن أضع فى يدك من هذا الكتاب منشوراً بلوريا يحلل مظاهر الحياة المألوفة الى عناصرها الاولية من حقائق تبهر العيون رونقاً ، وتستبي العقول جمالا .

تلك في الواقع هي الغاية التى قصدالبها « كارليل » من وضع كتابه « فلسفة الملابس » . والحق ان هذا هو الغرض الذى يرمى اليه الادب فى جملته ، وعلى اختلاف فنونه . فانما وظيفته ان ينفض الغبار عن وجه الحياة — أو بعبارة أصح أن يهتك الغشاوة عن أعيننا — حتى نشاهد من روائعها وروائعها ، وعجائبها وغرائبها ، ماهو خليق بأن يستثير كوامن نفوسنا ، ويفسح مدى أبصارنا ، وينبه خامل مشاعرنا ، فاذاحياتنا قدازدادت من ضمة ، واتسعت من ضيق ، وأثرت من فاقة ، واذاحظنا من الاستمتاع بها قد بورك وتضاعف .

وأشهد لقدوفق « كارليل » الى ما ابتغاه من اقامة دولة العجب أيما توفيق ، فانى لا أعرف كتابا كان له من بليغ الوقع فى نفسى وعميق الاثر فى حياتي ما كان لكتاب فلسفة الملابس هذا . ولقد أذكرانى فى أول عهدى بقراءته ،

وقد أثار من كوامن نفسي ما أثار، وغيّر من طرائق تفكيري ما غيّر وحرك من ساكنات خواطري ما حرك ـ كنت سائراً في بعض الشوارع أتجول، فوقعت عيني على قشرة برتقالة ملقاة على الارض. لقد مضى الآن على هذه الحادثة نيف وخمسة عشر عاما، ولكن هذه القشرة الذابلة الصفراء لا تزال تتوهج في مخيلتي. أتدري لماذا أيها القارىء؟ لان الوقر الذي في اذني والغشاء الذي على بصري، كانا قد رفعا عني في تلك اللحظة المقدسة، فرأيت في تلك القشرة المهينة المطَّرحة مظهراً آلهيا ـ رأيت يد الله، جلت قدرته، تعمل فيها دائبة مبدعة، متنقلة بها في اثناء الابدية وانحاء اللانهاية في سلسلة لا تنقطع من عجيب التطورات. فطوراً تكون فتاتة من صخرة، وطوراً ثمرة على شجرة، وتارة نسيجة في عضلة حيوان، وتارة ذرة في مخ إنسان فهي في رحلة لا نهاية لها تستغرق الزمان من مبداه الى منتهاه، وتنتظم المكان من أقصاه الى أقصاه، متخللة في سيرها مظاهر الكون اجمع، من جوامده ورواسيه، الى سوائله ونواميه، الى كواكبه ودراريه. ثم لا تسلني عن مبلغ ما شاع في صدري من طرب، وما استفاض بين جوانحي من أريحية، وأنا أسمع من فم قشرة البرتقالة هذا الحديث العجب.

على أن كتاب فلسفة الملابس لا يقتصر على تناول الحياة من هذه الناحية دون سواها، بل هو يتناولها من جميع جوانبها، ويعبر ـ كما أسلفنا ـ عن رأي صاحبه في كل ما تضمنته من عويص المشاكل وملغز المعضلات، وأحرى به أن يسمى « فلسفة الحياة » لا « فلسفة الملابس ». ولئن كان الشأن بالنسبة لاكثر الفلاسفة واصحاب المذاهب انك لا تستطيع الوقوف على رأيهم في فلسفة الحياة الا بالرجوع الى كل ما ألفوا، واستيعاب كل ماصنفوا، فالامر

لحسن الحظ ليس كذلك بالنسبة الى « كارليل » . ذلك بانه كان قد استوفى نضوجه الفكري قبل أن يخرج للناس كتاب فلسفة الملابس،فلما وضعه، وكان قد ناهز الاربعين ، ضمنه خلاصة آرائه وأصول معتقداته ، ثم مضى بعد ذلك فى كل ما أخرج من مؤلفات ، وفى كل ما انتجت يراعته من ثمرات ، يفصل ما أجمل ، أو يسهب فيما أوجز ، أو يعيد ويبدى فيما قرر ، دون أن يأتى مع ذلك بشيء فى فلسفة الحياة جديد .

ولئن اردت أن تجمل فلسفة« كارليل »هذه كما أوجزها وفصلها لاستطعت أن تفعل فى كلمتين من كلماته التى يصح أن ترسل أمثالا وهما : (ملكوتى وسلطانى فيما أنتج وأصنع ، لافيما أملك وأجمع) و(انما الدنيا كهف عجائب وأحلام) . فى هاتين الكلمتين تتلخص الرسالة الكبرى التى جاء « كارليل » يشرح للناس تفاصيلها ، ويغرس فى القلوب أصولها . فهو من الناحية السلبية يريد أن يقف الانسان من الكون موقف الاعجاب والخشوع والاجلال ، وهو من الناحية الايجابية يريد أن يقبل الانسان على العمل فى الحياة بروح التفاؤل والنشاط والاقدام ، محاولا بذلك أن يوفق بين استغراق المتصوف فى نشوته ، ومضاء رجل العمل فى همته ، أو بعبارة أخرى أن يمزج مادية الحضارة الغربية ، بروحانية الحضارة الشرقية .

ولقد نحا « كارليل » فى وضع كتابه «فلسفة الملابس» نحوا غريبا، فزعم انه انما ينقله نقلا عن كتاب ظهر حديثا لفيلسوف المانى ، ومضي يطنب فى بيان خصائصه ، ويردف ذلك بما زعم انه ترجمة حياته . ولسوف يفطن القارىء لامحالة الى أن هذه القصة الغريبة التى يقصها علينا المؤلف عن كتاب فلسفة الملابس وفيلسوفها ان هى الاتلفيق محكم من قلم ماهر ،واختراع بديع

لذهن خصيب ، وان تيوفلسدروخ — تلك الشخصية العجيبة الملغزة - ليس الا صورة رمزية ، ان لم تكن صورة شمسية ، « لكارليل » نفسه .

وما نظن بعد اذ يفطن القارىء الى هذه الحقيقة أننا فى كبير حاجة الى التعليق على الكتاب فى ايجاز أو اطناب. والحق أن الناشر الاصلى - واعني به « كارليل» كما يلقب نفسه - قد اغنى كل ناشر سواه عن معالجة هذه المهمة بما نثره نثرا فى تضاعيف كتابه من تعليقات وملاحظات ، أفرغت احيانا فى قالب أنيق من التهكم ، ولكنها على كل حال لا تعدو أن تصيب الحقيقة فى صميمها .

بقي أن نشير قبل ختام هذه الكلمة الى أننا لما خطر لنا ترجمة هذا الكتاب فكرنا كثيراً ، وترددنا طويلا ، ولولا تحمس كان يحفزنا حفزاً لمباشرة هذا العمل ما كنا لنقدم عليه . ولعل من اطلع على الكتاب فى لغته الاصلية يجد لنا فى هذا الاحجام بعض العذر ، فان «لكارليل» وبخاصة في هذا الكتاب ، أسلوبا غريبا يصح أن يوصف بأنه وحشي . وماظنك بأسلوب يحاكي الطبيعة ذاتها فى أروع مجاليها وأهيب مظاهرها ، اسلوب يعج عجيجا بما اكتظ به وبما احتشد فيه من تشبيهات واستعارات تشير الى كل شيء فى الارض والى كل شيء فى السماء ، ويتدفق لا كالنهر فى انحداره ، بل كالسيل فى استبحاره ، مرغيا مزبداً ، متهزماً متلاطما ، قد انعقدت فوقه هالات من أقواس قزح ، وان كان يحمل على صدره أحيانا مالا بد منه من غثاء وحثالة . ولاشك فى أن جانبا عظيما من التأثير الذى يحدثه « كارليل» في نفس قارئه يرجع الى سحر أسلوبه وغرابته . فاذا كنا قد أعربنا فى صدر هذه الكلمة عن ارتيابنا فى ادراك الغرض الذى قصدنا اليه من تعريب هذا الكتاب، فلاننا نخشى ان تكون لطيفة ذلك السحر قد أفلتت منا فى طريق النقل .

فان كنت أيها القارئ، تخرج من هذا التعريب وأنت لا تشعر بأنك بدلت بنفسك نفساً سواها، فاعلم أن الذنب ليس بذنب «كارليل» ولكنه ذنب غيره.

٧ ابريل سنة ١٩٢٧ — طه السباعي

الكتاب الاول

الفصل الاول

مقدمة

اذا اعتبر المتأمل أى شأو طموح فى الثقافة بلغناه و نظر الى سراج العلم — ذلك الذي ما برح منذ نيف وخمسة آلاف من السنين يحمل عالياً ، طوراً وهاجاً وطوراً خابياً — كيف راح في وقتنا هذا يتوقد بشدة لم تعهد من قبل ، بل كيف أن شعلاً لا تحصى قد فصلت منه ، وتطايرت عنه ، منبثة فى كل ناحية ، مندسة في كل زاوية ، حتى لم يبق في عالم الطبيعة أصغر ثقب ، أو فى عالم الفنون أخفى نقب ، الا أضاءت ثناياه ، وانكشفت خباياه — اذا تأمل المتأمل هذه الحقائق أدهشه أن لا يجد مؤلفاً وضع حتى اليوم في موضوع الملابس لا من قبيل الفلسفة ولا من طريق التاريخ .

ان نظرية الجاذبية تكاد تبلغ حد الكمال فهذا « لاجرانج »[1] قد أثبت أن نظام الكواكب السيارة جدير بأن يثبت على تلك النظرية مدى الآباد بل هذا « لابلاس »[2] يرى أنه ما كان ثمة من سبيل لوضع ذلك النظام على أية نظرية أخرى ، ومن ثم أصبحت دلائلنا البحرية أكثر دقة وهداية كما صارت وسائل النقل المائية على اختلافها أجمع لاسباب الراحة . كذلك نحن قد أخذنا بالحظ الأوفر من علم طبقات الأرض وعلم مواد الأرض حتى لقد أصبح كثير من الجميات الملكية يرى أن خلق أى عالم من العوالم لم يعد

(١) ، (٢) عالمان من كبار علماء الفلك

سراً خفياً أكثر من صنع أية فطيرة من الفطائر — هذا عدا ما لدينا من المباحث الطوال عن عقد الاجتماع ومقياس الذوق وهجرة الأسماك وعدا ما اهتدينا اليه من نظريات القيم والأجور وفلسفات اللغة والتاريخ والخزف والأشباح والخمور — والواقع أن حياة الانسان بحذافيرها وظروفه بأجمعها قد هتكت عن بواطنها الحجب وأميطت عن غوامضها الاستار حتى لا تكاد ترى قطعة أو نسيجة من روحه أو جسمه أو مقتنياته وملكه الا قد سبرت واختبرت وشرحت وقطرت وجففت وحللت .

فلقائل بعد ذلك أن يقول كيف كان إذن أن العلم قد أعرض كل الاعراض عن أعظم النسائج شأناً وأكبرها خطراً ، عن النسيج الحقيقي الوحيد أعني النسيج الثوبي الذي يحاك من الصوف أو ما عداه والذي تتخذه النفس الآدمية دثاراً شاملاً تلتف في أثنائه وتحتمي بحماه فيكون لها غلافاً ظاهراً يحجب ويحوي ما للانسان من سائر النسج . نعم لقد نرى في بعض الاحايين مفكراً مهيض الجناح يلقي نظرة كنظرة البومة العشواء شطر ذلك الاقليم الغامض الارجاء ولكن معظم الفلاسفة والمفكرين يحلقون فوقه ضاربين عنه صفحاً معرضين عنه كشحاً معتبرين الملابس للانسان خاصة فطرية لا ظاهرة عرضية كأنها تخلق لناعفواً ورهواً بحكم الطبيعة كما تنفطر الاوراق على لحاء الأغصان وكما ينبت الريش في أجنحة الطيور . فهم يصورون الانسان ضمناً في جميع مؤلفاتهم حيواناً مكسواً مستوراً والحقيقة أنه بحكم الطبيعة حيوان عار مكشوف ، لا يستطيع تغطية بدنه بالملابس الا في أحوال معلومة بعد أن يتعمد ذلك تعمداً فيتخذ له أهبته ويدبر له حيلته . يقول شكسبير نحن خلائق نرى بأبصارنا خلفاً وأماماً . فيا للعجب نفعل ذلك ثم لا نهتم

بالنظر حولنا قليلاً حتى نرى ما يقع تحت اعيننا وما يجرى بين أقدامنا .

ولكن فى هذا المقام — كما فى سواه من المقامات — نجد الالمان أهل الرأى والعرفان والمثابرة التى لا تعرف الونى والكلال — يتقدمون الى معونتنا وإسعافنا . وانها لنعمة من الله أن يظل بين البلاد فى هذا العصر المضطرب والزمن العصيب بلد يجد فيه البحث النظرى مأوى وملجأ وأنه بينما ضوضاء الفتن السياسية والقلاقل الدينية قد أصمت آذان الفرنسيين والانجليز ، لا يزال الألمانى قادراً على الوقوف في مرقبه العلمى ثابت الجنان يعلن للجماهير المتخبطة حوله فى كل مكان كم تكون الساعة آنا بعد آن . وكثيرا ما يلام الالمان على اجتهادهم فى المباحث النظرية العقيمة كأنهم عدلوا عن سواء السبيل الى مفاوز قاحلة لا يجني سالكها غير وعثاء السفر وكأنهم صدوا عن المناجم الذهبية التى فى المباحث المالية والاقتصادية وانطلقوا من النظريات فى فياف جرداء جل حظهم منها أن يرتطموا في بعض مناقعها النائية . والحق اننا لا نستطيع الدفاع عن ذلك العلم الأحمق الذى يحصر همه كما يقول الشاعر الفكاهى « فى تقدير احجام الدنان بالمقياس الهندسي » كلا ولا نستطيع الدفاع عن ذلك النشاط الضائع الذى نراه مشيحاً مجداً يدرس تبناً محضاً . فان كانت هذه التهم فى حق الالمان صحيحة فلنتركهم وشأنهم يتحملون مغباتها . وانما نريد أن نقول كلمة من باب الملاحظة وذلك أنه ما من مسرح قفر الاوفيه بقع مخصبة وأكلاء مريعة ، وهذه فيافي سيبيريا التى يضرب المثل بامحالها لا تعدم ما يزينها من كل زهرة زهراء وبقعة نضراء ، وكم من بلد تقتحمه العين على البعد ولا تحسب فيه غير صحار قفراء تحدها صخور صماء حتى اذا أقبلت اليه تكشف عن كل منظر رائع فتان وكل واد ناضر العشب

مترع الغدران ، فيا للعجب أترى فن النقد لا يكتفى بأن ينصب فى طريق العقل أعلاماً تهديه بل هو يريد أن يقيم حوله أسواراً ويضرب دونه أسدادا ؟ لقد جاء فى الكتاب المقدس « ان كثيرين سيقبلون ويدبرون ويضربون فى أكناف الارض ويطوفون وبذلك تزداد المعارف وتنكشف العلوم » والقاعدة الجلية هى بلا ريب أن ندع كل انسان يمضى فى سبيله وننظر الى أية غاية تفضى به ، فلكم رأينا من مخاطر جوال سلقه الناس بألسنة التعذال قد عثر فى تطوافه على إقليم شاحط مهمل ولكنه من الخطورة بالمكان الأرفع ، فكان ذلك المخاطر أول من استثار مكنون دفائنه وما زال يعلن للملأ نبأ استكشافه حتى توجهت الانظار والمجهودات الى حيث يشير وبذلك تم الفتح . فكانت هذه الجولات التى لم يكن لها فى الظاهر غرض معلوم سبباً فى رفع أعلام جديدة وإنشاء مستعمرات حديثة فى ذلك الاقليم الشاسع الارجاء المحيط بنا من جميع الانحاء — اقليم المجهول . فلله درك أيها الحكيم حيث تقول « من حقوق العقل أن يكون مفسوح المجال محلول العقال يذهب غير خائف ولا وجل حيثما شاء من مناحى الرأى ومذاهب التفكير »

وربما كان فى اعترافنا معشر الانجليز لأول مرة بأن شيئاً من فلسفة الملابس لم يخطر على بال أحد منا قبل اليوم دليل على ما وصلت اليه العلوم النظرية فيما بيننا من الوهن والاضمحلال وبرهان على أن عظمتنا التجارية ودستورنا النفيس قد ضيقا على الفكر خناقه وشدا وثاقه . فأى ذهن انجليزى كان يستطيع التعرض لهذا الموضوع الفلسفى صدفة واتفاقاً ، بله تعمدا واختيارا ؟ والواقع أن هذا المبحث النظرى الدقيق كان على خطورته لا محالة يلبث أبد الدهر مهملا لولا تلك العيشة الحرة الطليقة وان شئت فقل المحجبة المعزولة التى

يعيشها الالمان فتسمح لهم بل تحضهم على التصيد بجميع أصناف الشباك فى جميع أنواع المياه.

وان ناشر هذه الصحف بالرغم مما يدعيه لنفسه من اعتياد التفكير الفلسفى والنفوذ في البحث المنطقى ليعترف بأن هذه الخواطر الجلية عن افتقارنا التام الى فلسفة الملابس لم تخطر بباله الا منذ عهد قريب ولم ترد الى ذهنه الامن مصدر أجنبى أعني من كتاب جديد ألفه الاستاذ «تيوفلسدروخ» فى هذا الموضوع موردا كلامه في أسلوب لا أدرى ان كان مفهوماً أو غير مفهوم ولكنى أعلم أنه من الغرابة بحيث يستوقف أنظار العمى فضلا عن المبصرين ، ولقد تصفحت هذا الكتاب العجيب المرة بعد المرة وتأملت فيما حوى من الآراء والنظرات فكان لها في نفسى أشد وقع وأبلغ أثر .

والكتاب مطبوع فى مدينة « وسنتشتو » حيث يقيم الاستاذ واليك بعض ما قال فيه مقرظه « نقدم الى القراء كتاباً من ذلك النوع الكبير الحجم الدقيق الحروف ، الدقيق الآراء ، الذي نقول ولا فخر ولا عجب ليس له مثيل فى غير المانيا بل في غير « وسنتشتو » وقد قامت بطبعه شركة « ستلشويجن » فاعتنت باتقان ظاهره كل الاعتناء أما باطنه فقد حوى من الفضل ما يرفعه عن منزلة الاهمال ويجعله قبلة الخواطر والاذهان » ثم يختم المقرظ مقالته بقوله « كتاب يلذ الباحث فى العاديات كما يلذ الباحث فى الفلسفيات ويفيد طالب الأدب كما يفيد طالب التاريخ وآية من آيات الاقتدار والجرأة ، وثقوب النظر والحدة ، وأثر من آثار الألمانية المستقلة المحضة ، لن يقابل ولا شك فى المقامات العالية مقابلة خالية من الاعتراض ولكنه سوف يرفع اسم صاحبه الى أرفع طبقات الفلسفة فى هيكل الشرف الالمانى »

وقد رعى لنا مؤلفه — الاستاذ الفاضل — حق المودة القديمة فأهدى الينا نسخة منه وشفعها بكلمة من الثناء يمنعنا من نشرها الحياء ولكنه لم يردفها بطلب أو رجاء

الفصل الثانى

مصاعب فى سبيل النشر

اذا كان طالب العلم لا يرى أن فتحاً من الفتوح هو أمجد وأعلى وأشرف وأسنى من الاطلاع على طريف الآراء وجديد الأفكار فجدير بناشر هذه الصحف أن يعد يوم تسلمه كتاب الأستاذ يوماً أغر محجلا ، والحق انه كتاب كبير الحجم جم المحويات غزير المادة متنوع الأبواب : بحر زاخر بالخواطر والفكر غير هادىء ولا رائق ولكنه لا يمنع أجسر الغواصين من الغوص فى أعمق أغواره فيعود منها لا بمجرد الحثالة والنفاية بل أيضاً بصادق الدر ونفيس الجوهر.

والواقع انى ما كدت أطلع على الكتاب لأول مرة بل ما كدت أتصفحه لأول وهلة حتى تبينت بين يدى فرعاً جديداً من الفلسفة يفضى إلى نتائج بعيدة لم تظهر بعد للعيان ولم تدر قط فى خلد ولا حسبان وحتى علمت أني قد عثرت على شيء لا يقل عن ذلك شأناً وخطورة وهو شخصية جديدة عديمة المثيل وأخلاق غريبة منقطعة النظير، أعني بها شخصية الاستاذ تيوفلسدروخ . فعقدت العزم على بذل ما أوتيت من حول ومن طاقة فى تعرف هاتين الطريفتين ولكن لما كان الانسان بحكم الطبع مولعاً باصطناع

الاتباع واتخاذ الاشياع فاني ما كدت أشرع في امضاء تلك العزيمة حتى واجهتني مسئلة جديدة وهي : كيف السبيل الى إشراك الغير فيما حصلت عليه من الخير، وكيف يمكن تقريب فلسفة الملابس وواضعها من افهام أبناء وطني وبني جلدتي ؟ فائن صح ما يقال عن الذهب الحديث المكتسب أنه يكاد يحرق جيب صاحبه ان لم يقذف به في مجال التعامل فأولى وأحرى بالحقائق الجديدة أن لا تدع مستفيدها يذوق طعم الراحة حتى يلقي بها في تيار الآراء .

بيد أني ما لبثت حتى قامت العقبات في وجهي اذ رأيت اني لو خاطرت بنشر فلسفة الملابس دون ترجمة الفيلسوف ولو أقدمت على شرح مذهب الأستاذ وآرائه دون إيضاح نفسيته وأخلاقه لعرّضت كلا الأمرين لسوء الفهم . وكنت كلما فكرت في انشاء ترجمة للمؤلف لم أجد بين يدي من المعلومات والمستندات مادة أعول عليها وذخيرة أرجع اليها ، وما كان لي في الحصول على شيء من ذلك أدنى أمل ، وكذلك مكثت برهة لا أجد سبيلاً الى نشر هذه الحقائق الغريبة والمبادىء المدهشة فجعلت أجيلها في أعماق ضميري وأقلبها في ظلام جوانحي وأنا أعاني من القلق ما أعاني .

ومرّت الأيام وانسلت الشهور وقد طالعت الكتاب المرة بعد المرة فشرعت معانيه الغامضة تتوضح وتتبلج في غير موضع وجعلت شخصية المؤلف تزداد في نظري غرابة وشذوذاً والتباساً وتعقيداً حتى اذا كاد القلق الذي يخامرني يستحيل سخطاً مستقراً ويأساً مستمراً لم يرعني الاورود خطاب من الهر هفرات هشرك أعز أصدقاء الأستاذ أفاض فيه عما أحدثته فلسفة الملابس من الضجة في عالم الأدب الألماني وأسهب في وصفه

ما لكتاب صديقه من الفضل الجزيل والخطر الجليل وما يرى اليه من بعيد الاغراض وخفى المآرب ثم أشار تلميحاً الى إمكان التنويه بالكتاب والاشادة بالمؤلف بين معشر الانجليز وقال ان صدور كتاب عن الاستاذ تيوفلسدروخ أمر جدير أن يقابل بالهتاف والترحيب وحقيق أن يحدث ثورة فكرية يرتج لها عالم الاذهان ثم ختم خطابه مصرحاً بأنه اذا شاء ناشر هذه الصحف انشاء ترجمة للأستاذ فهو مستعد لتقديم المستندات اللازمة .

وكما أن بعض المخاليط الكيميائية التى تكون قد مضت عليها برهة من الزمن وهى تتباخر وتأبى التبلور — لا تلبث متى انغمس فيها السلك أو ما عداه من المواد المثبتة أن تأخذ فى التبلور وتسرع فيه حتى يتم على الوجه الأكمل فكذلك كان مثلى ومثل المساعدة التى عرضها على الهر هفرات . فما نشبت خواطرى ان تبدلت من التفرق والانتشار ، التجمع والاستقرار ، فاتحد المثيل بمثيله والتأم النظير بنظيره وتهيأ من المجموع صورة جلية وفكرة منظمة وتمثل أمامى المشروع بحذافيره ان لم يكن فى حيز الوجود المحقق فعلى الأقل فى حيز الأمل الممكن .

وليس هنا محل البحث فى كفايتنا لتولى هذا العمل ومقدرتنا على الاضطلاع به بل حسب القارىء أن يمعن النظر فيما نحن مقدمون اليه وأن يستمتع بما نحن عارضون عليه مستعيناً على ذلك بكل ما أوتى من نفوذ البصيرة وقوة التأمل وحسن النية وصدق الادراك ولينظر فى هذا الكتاب بذهن مبرأ من سوابق الاوهام و بعقل طليق من قيود التقمر حاصراً فكره فى ذات الكتاب دون ناشره .

وليأمن القارىء أن يرى من جانبنا ميلاً الى المحاباة فليس ما بيننا وبين

الأستاذ من صلات المودة بقادر على التأثير فى حكمنا بحيث يدفعنا الى تلطيف سيئاته أو تجسيم حسناته . نعم انا لنحفظ له أطيب الذكريات وخير العهود فما رأينا ولن نرى أمثال تلك الليالى الحسان والمجالس الكريمة اذ كانت تفيض علينا الحكمة من ينابيعها الصافية وتشجينا الفصاحة بأنغامها الرخيمة! ولكن ما وراء ذلك ؟ اذا كان الأستاذ صديقنا فالحق آلهنا وانا لنرجو أن نكون فى مهمتنا الحاضرة غرباء عن الناس أجمعين ليس لأحد عندنا حظوة ولا فى صدرنا عليه ضغينة وقد رأينا من المناسب أن نقدم هذه الملاحظة بين يدى القارىء فقد بلغ الغش والكذب والخداع فى وقتنا هذا مبلغاً لم تبلغه فى زمن من الأزمان حتي أصبح من المحتم على ناشر الكتب أن يفعل كما يفعل أصحاب الحوانيت فى بلاد الصين فيكتب على صدور مطبوعاته « ليس هنا للغش مجال »

الفصل الثالث

ذكريات

لم يكن ظهور هذا الكتاب ليحدث فى نفسنا من الدهش أقل مما أحدثه فى سائر أنحاء المعمور . والواقع اننا ما كنا لشيء من الاشياء أشد استبعاداً منا لظهور هذا الكتاب . فلقد عرفنا الاستاذ فكان في عهد اتصالنا به رجلا هادئاً وديعاً يؤثر الصمت والسكينة ، ويجنح الى العزلة والطمأنينة . ولئن كان بمباحث الفلسفة العالية كلفاً مولعاً فلقد كان اعتقادنا فيه أنه لا يميل الى النزول الى حومة التأليف فاذا نزل يوماً فانما يكون ذلك

لتنفيذ آراء بعض الفلاسفة لا للاتيان بمذهب جديد لا يمكن أن يكون من شأنه الا تأجيج نار الجدال وتوسيع هوة الخلاف .

وما ننس لا ننس آخر كلمة سمعناها منه فى تلك الليلة التى لا يزال عهدها منطبعاً فى ذاكرتنا . كنا مع الاستاذ في ناد يختلف اليه كل عشية أفاضل القوم وصفوة أهل العلم فنهض وقد رفع الى فيه كاس الجعة وقال بصوت خفيض يهز الافئدة وبألحاظ تحسبها ألحاظ بعض الملائكة — وان كنت لا تدري بعد هل هو ملاك علوى أم ملاك سفلي — (أقترح عليكم أيها الاخوان أن تشربوا هذه الكاس في محبة الفقراء) فارتفعت ضجة عالية مزقت رداء السكون وتلاها صوت قرع الكؤوس ثم أصوات الهتاف والتهليل وكان ذلك فى آخر السهرة فنهض الحاضرون وهم فى ريعان الطرب وعنفوان النشوة ، وانفض المجلس بين منعقد سحائب الدخان وقفل كل منهم راجعاً الى وسادته الهاجسة ، عندئذ سمعت أحدهم يقول (انى لأخشى على الاستاذ هذه النزعة الديموقراطية وأخاف أن تسوقه الى المشنقة يوماً من الايام) فتلفت بعضهم يفتقده فاذا هو قد تسلل فى بعض الازقة . وكان هذا خاتمة عهدنا به وآخر مجلس ضمنا واياه .

فى مثل هذه المواقف كانت حياتنا مع الاستاذ وبمثل ذلك المعيار كنا نقدر مواهبه وأغراضه . ومن كان يدرى اذ ذاك ما انطوت عليه جوانحك أيها الفيلسوف ؟ لقد كان تحت تلك الغدائر الوحفة الضافية المشرفة على أوقر وجه رأيناه في الوجوه ذهني مستديم النشاط . وفى تلك العيون الساجية الغائرة أو لم نلمح وميض أنوار علوية أو نيران سفلية وهل لم يُخيَّل الينا أن ذلك الهدوء البادى ليس الا سكينة الحركة الخالدة ونوم الخذروف الدوّار ؟ بلى

أن جسمك الضئيل أيها الاستاذ — وأنت جالس هناك بين ركام الدفاتر والكتب فى ثيابك المغبرة البالية تفني بياض أيامك فى التفكير والتدخين كان يضم قلباً كبيراً . لقد كنت ترسل نظرك الثاقب فى ألغاز الكون وأحاجيه فتبلغ من أعماقها ما لا يبلغه سواك ، وكانت تتبلج لك أسرار الحياة عن معانيها المكنونة ، وينكشف لك حجاب الغيوب عن مخبآته المصونة .
نعم كانت فلسفة الملابس هذه مودعة فى صدرك وكانت هذه الخواطر الغريبة تجول في ذهنك ، فمن ذا الذى كان يتصور يومذاك أن سداة هذا الكتاب العجيب كانت منصوبة على النول وأن الوشائع كانت تضع اللحمة فى صمت وخفوت ؟ ولكن الناس قلما يفهمون أعاظم الرجال بل كثيراً ما يفهمونهم على غير حقيقتهم وهو شر وأدهى .

ولا ندرى بعد كيف سيهتدى الهر هفرات الى جمع معلومات نبنى عليها ترجمة حياة الاستاذ والحق أن هذه مسئلة معضلة ولكن من حسن الحظ أن الجواب عليها ليس من شأننا . ولقد حاولنا مراراً ونحن بمدينة وسينتشتو أن نقف على سيرة هذا الفيلسوف فما كان البحث فى المحفوظات ولا سؤال الواقفين على حقائق الأخبار ليجديا فتيلا ، وكل ما اتضح لنا أنه غريب طرحته الى تلك المدنية مطارح النوى ، وشد ما تطلع الناس الى الوقوف على أصله ومنشئه وآماله ومآربه ولكنهم ما كانوا ليعثروا الا على بيانات غامضة وأجوبة مبهمة . وما برح الاستاذ يلتزم السكوت وينفر من التبسط والمخالطة فكان القوم يتهيبون سؤاله فاذا اجترأ امرؤ على ذلك أجابه فى الحال جواباً لطيف التخلص جارح الحد يرد السائل عن تطفله ويمنعه من إعادة الكرة . وكذلك صار معظم الناس ينظرون اليه لا كأنه من أبناء آدم وحواء .

بل كأنه شيء من الأشياء اعتادوا رؤيته دون أن يفكروا بعد فى شأن من شؤونه .

وقلما كان أهل المدينة يبصرون الاستاذ أو يشعرون به الاعند ظهوره مساء فى النادي فهنالك يجلس مكباً على صفحات الجرائد أو متأملا فى سحائب الدخان المنبعث من لفافته وليس له في الظاهر شاغل سوى ذلك . وكان فى كل أحواله موضع الاعجاب لوداعة أخلاقه وحلاوة شمائله لا سيما اذا فغر فه للكلام ، فهنالك تخفت الأصوات وتشخص الأبصار وتشرئب الأعناق ترقباً لما يفوه به من جوامع الكلم . وعندئذ ربما أطرد فى حديثه فيفيض على السامعين من روائع القول تياراً متى ذابت ثلوج منابعه قطع الساعات الطوال وهو يتدفق تدفقاً وينهمر انهماراً . وكان مما يزيد حديثه وقعاً وروعة صدوره من رأس لا تخالها أشد به شعوراً أو أعظم به اهتماماً من رأس بعض الفوارات العمومية التى ترسل الماء من فوهتها النحاسية لكل من الرفيع والوضيع والشريف والخسيس لا تبالي بأى غرض يؤخذ له ولا فى أى وجه ينتفع به ، سواء عليها أجهز به الطعام أم أطفيء به الحريق ، بل هى لا تنفك تنظر اليك نظرة واحدة وتبدي لك هيئة متماثلة ، سواء تفجَّر منها الماء أم لم يتفجر

وكان الأستاذ يمنحنا من التبسط والايناس ما يضن به على أكثر الناس، فليتنا أدركنا يومذاك بعض ما له من فضل وليتنا تأملناه بالعين التى كان بها جديراً ! وقد تفضل علينا فأباح لنا من حمى بيته ما لم يبحه الا لأعز أصدقائه وأخلص أصفيائه ، وكان الذين يتمتعون بهذا الامتياز لا يتجاوزون ثلاثة أشخاص . شاهدنا مسكنه فاذا هو أعلى طبقة فى أعلى بيت بالمدينة يُشرف على ما حوله من البيوت أشراف القمة الشامخة على ما يكتنفها من الهضاب

والنجود ، وفى هذه الطبقة نوافذ تطل على الجهات الأربع فيظل سا كنها كأنه في مرقب علوي يرصد منه وهو وادع فى كرسيه تيار الحياة متدفقاً فى انحاء المدينة ويشاهد معظم الشوارع والأزقة بما حوت من نشاط وحركة .

ولقد نذكر فيما سمعناه منه قوله : « إنى لأطل من هذا المرقب على تلك الخلية الجائشة بالنحل أو ذلك الوكر المتلىء بالزنابير فأشاهدها وهى تفرز الشمع وتمج الشهد وتخمر السم وتختنق بالكبريت . فمن القصر الرفيع حيث تصدح الانغام الرخيمة والأمير الجليل يتناول الغداء ، الى الزقاق الوضيع حيث تجلس العجوز الشمطاء على عتبة الدار تصطلي شمس الأصيل وتعتصر من عمل أناملها مسكة الحوباء — كل ذلك أراه بعيني اذ ليس فى هذه المدينة شيء هو أرفع منى مكاناً غير مروحة الرياح التى تبصرها هنالك . فمن هاهنا يصل عمال البريد حاملين الأفراح والأتراح محزومة فى الحقائب والعياب ، ومن هناك تأتي عربة « البارون » تعدو بها أربعة مطهمات ، وهنالك ترى الجندي الأعرج يظلع بساقه الخشبية مستندياً للأكف — هذا الى مالا يحصي من العربات والكارات ترد من الأرياف موسوقة بالأطعمة والخامات ثم تصدر مشحونة بالسلع والمصنوعات — فهل لك أن تخبرنى من أين يأتى والى أين يمضى هذا التيار المتلاطم الذى ما زال يتدفق فى تلك الشوارع على مدى الأزمان وتعاقب الأحوال ؟ من الأبدية الى الأبدية . هذه الأشباح التى تراها ان هى الا خيالات وأطياف . أليست كلها أرواحاً أبرزت للعيان بفضل هذه الأبدان التى لا تكاد تتخذ هذا الشكل المنظور حتى يسرع اليها البلى وتتلاشى كالهباء المنثور ؟ بلى ان هذه الأشباح لتسير فى الحياة والعدم فاغر فمه من تحت أقدامها ، والوقت الفضاء محيط بها من خلفها

وأمامها ، حاسبة أنها تطأ مهاداً وطيداً وما تطأ فى الواقع الا صورة من صنع الحواس وخيالاً من تهاويل المشاعر . أم هل تظن ذلك الضابط الذى يسير هنالك وهو يقرع الأرض بنعليه ويتيه على الناس بعطفيه ان هو الا ابن اليوم لا أمس له ولا غد وليس بينه وبين أبويك الأولين سلسلة متصلة الحلقات من الآباء والأجداد ؟ إيه يا صاح ان هذا الذى تراه هو حلقة حية فى نسيج التاريخ الذى يضم فى لحمته وسداه كل مظهر من مظاهر الحياة . »

وسمعناه مرة أخرى يقول فى منتصف الليل وقد عدنا من النادى الى البيت « حقاً ان فى السكنى بهذا المكان لرفعة وجلالا ، انى لأنظر الى تلك الأشعة تنبعث من المصابيح وتتعثر خلال سحائب الدخان وضباب الأنفاس حتى تقطع بعض الفراسخ فى ملكوت الليل القديم فأسائل نفسى ليت شعرى ماذا ترى النجوم الثواقب فى هذا الشعاع الضئيل ، وماذا يدور فى خواطر الكواكب عن هذا الضياء الكليل ؟ وانى لأنصت الى ذلك الدوى الخافت الذى يصعد من جوف الليل وقد هدأت حركة الأخذ والعطاء فى سبات عميق وانطلقت عربات الغرور تحمل أصحابه الى المقاصير ذات الأضواء الرفيقة اللامعة والمضاجع الوثيرة الأكنان ولم يبق فى خارج المنازل غير البؤس والرذيلة فأقول فى نفسى ان هذا الدوى الخافت — الذي كأنه غطيط الحياة السقيمة في نومها المتقطع المذعور — ليتجاوز منطقة الجوزاء ، ويصل الى مسامع السماء . يالله ! أى خابية تختمر وتفور تحت هذا الغطاء البشيع المنعقد من أنواع الأبخرة والأقذار ، والغازات والأوضار ! هنالك الفرح الجذلان والحزن الأسوان ، هنالك يجود المحتضر بخاتمة زفراته ، وعلى بضعة أشبار منه يستهل المولود بفاتحة عبراته ، هنالك الورع المتهجد يحيي

الليل بالتسبيح والدعوات ، والى جانبه الشقى الملحد يقطع الهزيع بالسباب واللعنات : كل ذلك هنالك لا يفصل الضد عن ضده الاحجاب رقيق من الخشب والمدر ، والطوب والحجر ، والليل الفضاء يحيط بالجميع فى ظلامه الرهيب ، ويضم الكل في صدره الرحيب . بلى يا صاحبي ما أعجب ما يجرى تحت جنح الدجى من المتناقضات ، فأهل الترف والخيلاء يلهون فى الحجرات ذات الأرج الوهاج ، أو يضطجعون على وثير الفرش بين ستور الدمقس والديباج ، وأهل البؤس والشقاء يتوارون في الأكواخ الحقيرة الجافية ، وينطرحون على الفرش المقضّة النابية ، مرتعدى الفرائص من لذعة القر ملتهبي الأحشاء من حرقة الجوع ، والعاشق يهمس فى أذن معشوقته ان العربة متأهبة للرحيل فتنسل معه بين الخوف والرجاء ، الى بلاد الله الواسعة الفضاء ، والسارق يتحفز فى خفة وخفوت لاقتلاع القفل من موضعه ، أو يتربص غفلة الحارس في مرقبه — وفى القصور البهيجة ذات الملاعب الفيحاء ، والمراقص الروحاء ، ترى أهل النعيم بين الألحان الشجية ، والأنوار البهية ، يتدفق من جوانبهم ماء الطرب والفرح ، ويطمح فى عروقهم دم الشباب والمرح ، وفى غيابات السجون ، يقيم الأشقياء والمجرمون ، تتناوبهم من الجزع دواعيه ، وتساورهم من الفزع أفاعيه ، وقد باتوا بقلوب وانية النبضان ، حسيرة الخفقان ، يقلبون خلال الغياهب المحدقة بهم من الظاهر ، والظلمات المنتشرة في ضمائرهم من الباطن ، عيوناً قريحة الآماق ، دامية الاحداق ، تترقب مطلع الفجر المكفهر . ان نيفاً ونصف مليون من الحيوانات المُرْط ذوات القائمتين يرقدون حولنا فى أوضاع أفقية : رؤوسهم ملفوفة فى قبعات المنام ، وأدمغتهم محشوة بأسخف الأحلام .

هنالك في مواخير الفجور وبؤر الفساد تصيح العربدة بأعلى صوتها وهي تترنح يمنة وشمالاً ، وتمايل وقاحة واختيالاً ، وفي غرفة المرض فوق سرير الموت تحنو الأم المولهة على طفلها المصفر المحتضر مسترسلة الغدائر تبلل بدموعها المستعرة وجنتيه الذابلتين وشفتيه اليابستين . كل هذه المخلوقات مكدسة أكداساً مكومة أكواماً لا يفصل بينها الا القليل من الأبنية والأخشاب ، فما هي في ازدحامها الا كالسمك المملح في البراميل ، وما هي في تموجها الا كالأفاعي المحبوسة في القناني ، كل منها يحاول أن يرفع رأسه عن أقرانه ، ويسمو بهامته عن أخدانه ! فيالله كل ذلك يجري تحت هذا السرادق المنعقد من الدخان والبخار ولكني أقيم هنا في عزلتي وصفائي ورفعتي وسنائي وحيداً فريداً أراعي نجوم الليل وأناجي كواكب السماء ! »

فتأملنا في محيا الاستاذ كي نرى ما يرتسم عليه من أمرات الانفعال وهو ينطق بهذه الخواطر الغريبة والهواجس الرائعة ولكننا لم نبصر غير السكون المألوف والوقار المعهود .

في هذه الاوقات وأمثالها كان يطيب الحديث الفيلسوف أما في غير ذلك فقلما ينبس الا بالألفاظ فرادى وربما التزم الصمت التزاماً وأخذ في التدخين تاركاً لزائره الحرية المطلقة فإما أن يقول ما يريد دون أن يتلقى من الاستاذ جواباً غير همهمة تصدر منه الحين بعد الحين وإما أن يتلفت حواليه برهة ثم ينسل في صمت وسكون . وكان الاستاذ يقيم في غرفة غريبة الشأن عجيبة المنظر : مكتظة الفناء بالكتب والدفاتر ، ممتلئة الفضاء بالأقلام والأوراق والمحابر ، في كل ناحية قصاصات من كل مادة يتصورها العقل ، وفي كل جهة دوات من كل نوع يتناوله الوهم ، يضم الجميع عنصر شامل من الغبار ، ويمتد

على الكل ظل عميم من الاهمال ، كتب فوق المكاتب وكتب تحت المكاتب ، هاهنا قرطاس يخفق ، وهنالك منديل ممزق ، فى هذا المكان حذاء مطروح ، وفى ذياك الموضع ابريق مبطوح . وكان للاستاذ خادم عجوز تسمى «ليسخن» تقوم له بجميع المرافق فكان له منها طاهية وكناسة ، وغسالة وعصارة ، ومدبرة وقهرمانة ، وكانت مجبولة على حب النظام والنظافة ولكن الاستاذ كان لا يبيح لها الدخول في غرفته الخصيصة وهي حرمه المحرم وقدسه المقدس ، بيد أن ليسخن كانت تقتحم عليه هذا الحصن الحصين مرة فى كل شهر ، فتزيل بالمكنسة والمنفضة جانباً من كثبان النفايات ، وفى أثناء ذلك يكون هو قد أسرع الى انقاذ قراطيسه ومؤلفاته ، وهرع الى التقاط أوراقه ومصنفاته . وكان الاستاذ يسمى هذه الهجمات « نوبات الزلازل » وكان يخشاها أكثر من السيل الجارف والوباء الذريع ، غير أنه كان يستسلم لها استسلامه للقدر المحتوم . وبوده لو أتيح له أن يقيم على الدهر سابحاً فى خواطره وأحلامه غرقاً فى تأملاته وابحاثه ، لا تعكر حوض صفائه مكنسة ولا تقطع تيار آرائه منفضة الى أن يخرجه من الغرفة ركام الكناسة ولكن ليسخن كانت يده اليمنى ومعينته الكبرى وقوام حياته وعماد بيته . فما كان يستطيع أن يرفض مطالبها رفضاً باتاً ونحن لا نزال نذكر تلك العجوز الشمطاء ، نحسبها لفرط الصمت خرساء ، وربما حسبتها كذلك صماء ، فانها ما كانت لتخدم أحداً من الخلق ولا لتحفل بأحد من الناس غير سيدها ، وكانت تتفاهم وإياه فى أكثر الأحيان بالوحي والايماء ، ان لم تكن تهتدى الى مطالبه بنوع من الالهام الخفى . لك الله أيتها العجوز ما كان أشدك مضاء

في العمل ودؤوباً ! لقد كانت تقضي اليوم في الكنس والتنظيف والترتيب والتنسيق من غير أن تكدر السكون بأخفت جرس ، وكنت ترى كل شيء مع ذلك على أتم نظام ، وفي أحسن ترتيب واحكام : تأتيك القهوة في ميعادها ساخنة سوداء ، وتقف أمامك المرأة في صمتها وسكونها تنظر اليك من تحت قبعتها بوجه تبرق أساريره وضاءة ونظافة ، وبعين تنم عن فطنة وذكاء بل عن كرم ومروءة .

وكان بيت الفيلسوف كما أسلفنا حمى مصوناً لا يغشاه الا القليل من الغرباء ، وما كنا نجد عنده أيام ترددنا عليه غير « الهر هفرات » وقد سبق تعريف القراء به . وكنا نرى فيه يومئذ أحد أولئك الأفراد الوديعي الأخلاق الطوبلي الأعناق المزروري الأفواه النظيفي الثياب الذين يمتازون بين أفراد المجتمع بأنهم لا يتركون استعمال المظلة لا في الصيف ولا في الشتاء. ولولا علمنا بأي مقدار طفيف من الحكمة تسيَّر في هذه الدنيا الأمور، وبأي جزء زهيد من الفطنة تحكم الجماهير ، وبأن الأمر في ألمانيا لا يختلف عنه في سائر انحاء الدنيا وذلك أن تسعة وتسعين في كل مائة من أولي الحل والعقد ليسوا الا اتباعا للفرد الباقي وغاشية ، وأذناباً له وحاشية — نقول لولا علمنا بذلك لهالنا أن يكون هذا « الهفرات » مستشاراً في مجلس المدينة . عجباً والله أية نصيحة يستطيع أن يسديها ذلك الانسان الذي اذا تأملت قامته المسترخية العوجاء وسحنته العجفاء وتذبذب وجهه واضطراب رأسه لم تتبين غير الارتباك والاختلاط ، والجبن والاحجام والاختباط ؟ غير أن الرجل كان لا يخلو من بذور الفضل وقد أحسن الاستاذ ما شاء في وصفه حيث قال « إن له قلباً ومقدرة أو كان له شيء من ذلك في وقت من

الأوقات على الأقل ، ولكنه لم يوفق الى اظهار ملكاته أو لم يساعده الحظ على استثمارها ، فنصفه قد أصبح الآن متصدعاً ونصفه لا نزال متجمداً » وليتصور القارىء ما سوف يجول فى خاطر « المفرات » عند اطلاعه على هذه الأقوال ولكن ذلك لا يعنينا ما دمنا معتصمين بعروة الصدق فى اثبات التاريخ ، متحصنين بمعقل الأمانة فى تدوين الاخبار .

بيد أن الذى يهمنا فى هذا المقام هو تعلق المفرات بالاستاذ فقد كان شغفه به واحترامه إياه لا يقلان عن شعور « بوزويل [١] » نحو الدكتور « جونسون [٢] » وربما كان الجزاء فى الحالتين على حد سواء . فان الاستاذ كان لا يظهر لصاحبه الا قليلاً من الاعتبار وكان حبه إياه من قبيل الشكر والاعتياد . أما « المفرات » وكان أكبر من صاحبه سناً وأعز جاهاً وأكثر نشباً فقد كان يحنو على معبوده الفيلسوف بعاطفة كلها اعظام واجلال ورعاية أبوية وحنان ، فكان الفيلسوف لا يكاد يفغر فه حتى ترى المفرات قد شحا فاه فكأنه قد فتح باباً على مصراعيه ثم يلبث مرهفاً أذنيه ، محملقاً بعينيه ، كأن له فى كل عضو وجارحة أذناً واعية وعيناً ثاقبة ، حرصاً على كل كلمة تقال وحفظاً لكل حرف يلفظ .

فى هذه البيئة كان يعيش الاستاذ فى عهد اتصالنا به ، ولعله لا نزال كذلك حتى الساعة . فى ذلك البرج المشرف والمرصد المنيف وتحت أعين النجوم الساهرة وفى سكون العزلة السائدة قد غامس هذا البحاثة القهار كل

---

(١) ، (٢) الدكتور جونسون من كبار أدباء الانجليز فى القرن الثامن عشر شغف به المستر بوزيل هذا فانقطع لصحبته وقيد عنه كل آبدة و شاردة من أحاديثه وكلماته ثم ضمنها كتاباً وضعه فى ترجمة حياة ذلك الأديب الكبير يعد فى بابه من خير ما أخرج للناس

ماغامس من المعارك مع شيطان الغباوة والجهالة ، وأكبر الظن أنه فى ذلك الموضع بعينه قد وضع كتابه المدهش عن فلسفة الملابس .

ولو شئنا لأرسلنا القلم فى وصف الكثير من عاداته وأحواله وأشبعنا القول فى ذكر العصر الذى كان يعيش فيه والثوب الذى كان يرتديه ، الى غير ذلك من التفاصيل ، ولكنا نمسك عن كل هذا . لا لأنها أمور غير جديرة بالذكر ولا حقيقة بالنشر ، فقد أصبح من المقرر فى الاذهان أن أصحاب العظمة الصادقة هم أولو الرأي والعرفان لا أولو الصولة والسلطان وبذلك أخذ اهتمام الناس ينصرف بالتدريج عن الامراء الى الحكماء . ولكن هبنا تقدمنا في بيان تلك التفاصيل أيظن القارىء أن ذلك يدنيه الى معرفة الاستاذ ويكشف له عن أسراره قبل أن تصل الينا المستندات الموعودة ؟ ان حياة الفيلسوف لا تزال سراً محجوباً ، كل ما نعرف عنها لا يتجاوز الظن البعيد والتخمين الغامض . ولكن أليست روحه مودعة فى هذا الكتاب القيم ؟ إذن فلنصرف همنا مؤقتا الى اجتلاء روحه ونفسيته ، وتعرف آرائه وعقليته .

الفصل الرابع

مميزات وخصائص

من الغرور والملق أن ندعى لكتاب فلسفة الملابس الخلو من الشوائب والتنزه عن العيوب ، وأنه ليس كسائر ثمرات العبقرية خليطاً من الوحى والكشف والالهام مع ما يناقضها من الغباوة والغشاوة والعمى . وكيف

يسوغ هذا الادعاء ونحن نرى الشمس وهي أجل ثمرات العبقرية وأرفع مظاهر الخليقة لا تخلو من كلف تشوب رونق لألائها ، وسفع تشين بهجة بهائها ؟

وحسبنا أطناباً فى مدح الكتاب القول بأنه قد حركنا الى العمل وأمدنا بروح من النشاط ، وهذا خير ثمرة لأفضل مؤلف ، بل انه لم يكتف بذلك حتى أحدث تغييراً فى أسلوب تفكيرنا وحتى فتح لنا من العلم باباً جديداً وافتض من البحث منجماً بكراً جديراً بأن ينقب فيه الباحثون الى أعماق لا ينال قرارها ، وبأن يستثيروا من دفائنه طبقات لا تسبر أغوارها .

والواقع أن الكتاب فى ذاته بما حوى من عجيب المتناقضات أشبه شىء بمنجم جديد تجد فيه بجانب الكريم من الركائز والفلزات ، كثيراً من الأخباث والنفايات ، فبينماه يروع القارىء بما أودع من آثار بارع المقدرة ونادر المواهب وطول الصبر على الفحص والاستقراء ونفوذ البصيرة وبعد النظر وحسن السبك واشراق الديباجة ، اذاه يضجره بما تضمن من مواضع الركاكة والاسهاب ومظاهر التعقيد والجفاء .

والظاهر أن الفيلسوف قليل الاختلاط بالطبقات الراقية أو هو قد نسى جل ما رآه وتعلمه بينها ، فانه ينظر الى العالم بنوع من السذاجة المدهشة ويسمى كثيراً من الأشياء بأسمائها الحقيقية الواردة عنها فى القواميس اللغوية ، فالمنجِّد مثلا ليس فى اعتباره رئيساً ربانياً بل صانعاً عادياً ، وأبهاء الاستقبال ليست فى عرفه مهما راع أثاثها وفخم رياشها معابد مقدسة ، بل هى فى نظره وان حوت كل مونق بديع من البسط والنمارق والمرائى والأرائك لا تعدو كونها «قطعاً من الفضاء العديم النهاية يجتمع فيها طائفة من الأشباح المخلوقة من

روح الله فتقضي بين جوانبها ساعة من الزمن » وما النجمة التي تتلألأ على صدر الأمير بأجل في نظره ولا أحقر من الزرار الحديدي الذي يراه في شملة الفلاح « وأي فرق بينهما وكلاهما في بابه أداة وكلاهما يؤديان عملاً واحداً هو شبك متفرق الأجزاء ذلك فضلا عن أن كليهما قد أخرج من باطن الارض وأحماه الحداد في كوره وطرقه على سندانه » وكذلك ترى الاستاذ ينظر في وجوه الناس قاطبة بنظرة واحدة غريبة وبحرية علمية مدهشة ، كأنه لا يعرف من عادات الخلق وأوضاعهم شيئاً وكأنه قد سقط بين الناس من بعض الاجرام العلوية . واذا تأملت حق التأمل ألفيت هذه الخصيصة الملازمة لتيار أفكاره المتغلغلة في مطاوي سريرته وطباعه منشأ كل ما يؤخذ عليه من وجوه الافراط والتفريط وضروب المغالاة والتقصير ومظاهر الاغراب والشذوذ اللهم ان لم يكن لهذه الصفات مصدر آخر — وهو أيضاً قريب الاحتمال — نعني نزعاته الفلسفية العالية وولوعه باعتبار المادة وكل الأشياء المادية : معاني روحانية .

فالى عشاق العلم وأهل التفكير من هذه الأمة نقدم هذا الكتاب ونحن على ثقة بما سوف يحدثه من جميل الوقع وصالح التأثير . ومن ذا الذي يدري فقد يكون له أيضاً بعض النفوذ بين أهل المجون وعشاق الملاهي ، فما يؤثر عن الاستاذ قوله ان في كل « ياقة » مهما صلبت وغلظت من معالجتها بالنشاء قصبة هوائية وان تحت كل صدار مهما أثقل بصنوف الوشي قلباً خفاقاً . فليس من المستبعد أن تخلص الى بعض هذه الأفئدة المحجبة بلاغة هاتيك المعاني السامية ، والحق أن هذا الفيلسوف قد أودع قوة خشناء لم تذللها رياضة وقدرة مستكنة لا تشعر بما فيها من بطش وقوة . وهي

صفات قل أن تجد لها — الا فى أرفع مراتب الأدب — مثيلا . فكم له فى أسرار الطبيعة وسريرة الانسان من لمحات تغوص على الحقائق غوصاً ، ونظرات تقنص الشوارد قنصاً ، وكم له من ألفاظ ماضيات ، تحز مفاصل المعضلات ، ثم تراه اذا رمى غرضاً لم يكفه أن يمسسه مساً ، بل ينحى عليه بقوة ساحقة حتى يغيب السهم فى اللباب ، ويهتك عن الصميم كل غشاء وحجاب.

بيد أنا لا ننكر مع ذلك أن صاحبنا الفيلسوف أبعد الكتاب عن اعتدال الوتيرة واستواء النفس ، فكثيراً ما نراه بعد الفراغ من احدى هذه الفعلات المجيدة يذهب متعسفاً متخبطاً فى صحائف عدة طوال ، يهذر بكل تافه من السفاسف وسخيف من الأقوال .

كذلك أسلوب الكتاب قد جمع الى صادق البراعة وروائع المقدرة ما يشوه محاسنه من خشونة وجفاء وتنافر وشذوذ . فبينا يكون طرفك رائداً فى أثرى بستان من ألفاظ متخيرة ، وتراكيب محبرة ، وعبارات مشرقة الديباجة نقية السبك ، واشارات كوحى الملاحظ وخطف البرق ، وتشبيهات يقطر منها ماء الفصاحة ، ويتوقد فيها لهيب الشعر ، وتخلصات تسترق الخاطر وتسحر اللب — نقول بينما تكون رائداً فى أحسن ماشئت من روانق وروائع ينجيها خيال وثاب وحشى ، مقترن بذهن وقاد جلى ، اذ يهجم بك على كثير من الفقرات المجدبة المملة ، والاستطرادات المطولة المخلة . والواقع أن الاستاذ ليس من ذوى الأقلام المنقحة واليراعات المهذبة . على أن أسلوبه لا يخلو حتى فى أسوأ حالاته من سحر عجيب ، وانك لتسمع منه نغمة غريبة تتخلل جميع مناطقه ، كأنها مفتاح نغمه ومنظم صوته . فتارة ترتفع نبراتها الى ما يشبه تهليل الملائكة أو عويل

الأبالسة ، وآناً تنخفض رناتها الى المقام المعتاد ، وهنالك لا يوافى أذنيك الا طنين ممل لا نزال منه حتى اليوم فى حيرة لا ندرى هل هو رنة المزاح الصحيح الذي يعد بحق من أرفع مزايا العبقرية ، أم هو صدى الجنون المحض.

كذلك نجد أنفسنا فى مثل هذه الحيرة ونكابد مثل هذا العناء أزاء عواطف الاستاذ وميوله . فآناً نراه يفيض برفيق أنوار الحنان والمحبة ، ويتدفق برقيق أنات العطف والرحمة ، حتى يخيل اليك أنه لو استطاع لضم العالم بحذافيره الى صدره الحنون واحتضنه بين جوانحه المشفقة وأن تحت هذا الظاهر الجافى الغليظ ملاكاً طاهراً كريماً . وآناً نراه قد أبدى صفحة المكر والدهاء ، ولبس قناع العبوس والجفاء ، وراح ينظر بعين الاستخفاف بل الاحتقار الى كل ما يسعى الناس اليه ويتقاتلون عليه ، وقد تراءت على محياه تجعيدة خفية هى من دلائل المزاح المر والتهكم القارص — ان لم تكن من دلائل البلادة والغباء — حتى يكاد الناظر اليه يرعش ويرتجف كأنما هو ماثل بين يدي شيطان مجسد لايرى في العالم الأرضى والعالم السماوى الامرقصاً هائلاً رحيباً تختلط فيه الملوك بالصعاليك ، والملائكة بالشياطين ، وكواكب السماء بكناسى الأزقة ، فيدورون جميعاً فى رقصة حمقاء هوجاء لا تلذ غير الأطفال وصغار الأحلام . ولقد ذكرنا آنفاً أن للاستاذ نظرة ربما كانت أوقر ما عهد الناس من النظرات ، بيد أن وقارها ليس من ذلك النوع الحديدي اليابس الذى يشاهد فى ألحاظ أرباب السياسة وعشاق المناصب ، بل هو أشبه بوقار بعض البحيرات الجبلية التى تراها مكنونة بين أسوارها الشامخة ومعاقلها الباذخة ، والتى لعلها كانت فوهة بركان خامد الأحشاء ، فأنت توجس خيفة من النظر فى أعماقها السوداء . ومن يدرينا فقد تكون

الأضواء المتلألئة فى تينك العينين شواظ النيران الجهنمية ، كما قد تكون معكوس أشعة الكواكب السماوية !

حقاً ان طبيعة الاستاذ لسر ملغز وطلسم معجز تحسر دون تعرفه الافهام، وتكل دونه استجلائه الأوهام. بيد أنا نذكر بمزيد الارتياح أننا رأيناه يضحك مرة : مرة فذة لعلها الاولى والأخيرة فى عمره ، غير أنها كانت ضحكة ولا كسائر الضحكات : ضحكة صاخبة مصلصلة مقعقعة جديرة بإيقاظ أهل الكهف من عميق سباتهم ! وكان أول ما شاهدت من أمرها وميض خفى لاح فى محيا الاستاذ وعينيه فما زال ينتشر ويستفيض حتى صار نوراً ساطعاً وهاجاً ، وبريقاً ساحراً مبهاجاً فكأن آلهاً فى ريق الشباب ورونق الصبا راح يطل عليك من تلك الملامح المعتمة ، والتقاطيع المتجهمة . ثم تفجر بقهقهة عالية متدافعة متواصلة ، كأنما انطلقت بالصهيل حلبة حافلة ، وانحدرت الدموع على خديه صبباً وتعلقت قدماه فى الهواء صعداً : ضحكة لا من التى تقتصر على أعضاء الوجه وعضلة الحجاب بل من التى تتناول الانسان بجملته ، وتنتظم كيانه برمته ، فتسرى فى جميع جوارحه من ذؤابة رأسه الى أخمص قدمه . فلما رأيت ذلك — وكنت قد شاركته فى الضحك ولكن بقدر واعتدال — شرعت أوجس خيفة على الاستاذ بيد أنه ما لبث أن استجمع نفسه وثاب الى سكونه المعهود فكنت لا تتبين شيئاً فى صفحة محياه المبهم الا مسحة خفيفة من الخجل . فمن كان من القراء له أدنى دراية بعلم النفس كان خليقاً باستنباط ما تنطوى عليه تلك الضحكة من العبر والحقائق وجديراً بأن يعلم أن المرء الذى يكون قد ضحك ولو مرة واحدة من صميم قلبه وبجميع جوارحه قمين بأن لا يبت الرجاء من اصلاحه ويقطع الأمل

من تقويمه . لله در الضحك ما أوضح مغازيه وما أبين معانيه ! ان هو الا الدليل الذي يكشف عن الانسان أسراره، ويهتك أستاره ! ان بعض الناس ليقنّعون وجوههم بابتسامة جديية غبية سخيفة ، وانك لتجد في ابتسامة غيرهم لمعاناً بارداً كلمعان الثلج ، وقليل هم الذين يضحكون الضحك الصحيح الصادق — الضحك الذي ينبعث من قرارة النفس ويرن في طيات الجوانح . أما أكثر الخلق فانما يبعثون من الحلاقيم الى جوبات الأشداق ضروباً من المهانفة أو الكركرة أو على الأكثر نوعاً من القهقهة المبحوحة كأنهم يضحكون خلال طبقات من الصوف المنفوش ، وكل هؤلاء لا خير فيهم ولا فائدة منهم ، فان المرء الذي لا يستطيع الضحك ليس صالحاً للدسائس والخيانات والمفاسد فحسب ، بل حياته بأجمعها هي في ذاتها وأصلها خيانة ودسيسة .

وللاستاذ من حيث كونه مؤلفاً عيب لا يكاد يغتفر ونعني عدم اعتداده بالنظام والترتيب ، فالكتاب يقع بطبيعة الحال في قسمين : قسم وصفي تاريخي وقسم نظري فلسفي . بيد أنك لا تكاد تجد بينهما حداً فاصلاً بل لا يزال كلاهما يتعدى على صاحبه ويتحيفه ، ويتطرق اليه ويتخلله ، حتى يظل القارىء بين هذا الخليط في حيرة عمياء ، كأنه في وليمة هوجاء ، اختلطت بها الأطعمة من كل صنف ونوع ، وكل شكل ولون ، فالجوامد والسوائل ، والبوارد والسواخن ، واللحوم والأسماك ، والتوابل والمربيات ، والحلوى والمخللات ، والأنبذة والأشربة ، كل هذا قد ألقي جملة واحدة في دسيعة ضخمة ثم دعي اليها الجمهور الجائع — فتحويل هذه الفوضى الى شيء من النظام ذلك بعض ما نحاوله .

الفصل الخامس

الدنيا فى الملابس

يقول الاستاذ فى فاتحة كتابه «كما وضع مونتسكييه كتاباً عن روح الشرائع أضع أنا كتاباً عن روح الملابس. فان الانسان لا يجري مع الصدفة العمياء لا فى سن الشرائع ولا فى خياطة الملابس ، بل لا تزال اليد العاملة مهتدية بنور العقل تنقاد بزمامه وتذعن لأحكامه . وانك لتجد فكرة فنية كامنة فى كل ما يبتكر من الملابس على اختلافها وفي كل ما يبذل من المساعى فى سبيلها . وما جسم المرء وملابسه الا البقعة التى عليها ، والمواد التى بها ، يشاد ذلك الهيكل الرائع الفخم : شخص الانسان ! فسواء أرأيته يرفل فى البرود المسبلة الأذيال ويختال فى رقاق النعال أم رأيته يسمو بالقلنسوة العالية من خلال الأوشحة والمناطق والأحزمة والقراطق أم أبصرته منتفخاً فى الأطواق المنشاة والحشايا المشمعة أم ألفيته قد شد نفسه وقسمها أجزاء متميزة وخرج الى الملأ مجموعة من أربعة أعضاء : كل ذلك يتوقف على نوع هذه الفكرة الفنية وهل هى اغريقية أو غوطية قديمة أو غوطية متأخرة أو حديثة مولدة. ثم تأمل أى معان جليلة تنطوى عليها ألوان الملابس ، فمن الاسود القاتم الى الاحمر الوهاج أى خصائص روحانية وصفات نفسانية يكشفها لك اختيار الألوان ! فاذا كان التفصيل ينبيك عن طبيعة الذهن والقريحة فان اللون ليخبرك عن طبيعة القلب والمزاج . ولا بدع فهذا كله يجرى بين الشعوب كما بين الأفراد بفعل الاسباب والمسبّبات : ذلك الفعل الذي لا ينقطع عمله ولا ينكر أثره وان كان فى غاية التعقيد والالتباس ، فلا

من حركة من حركات المقص الا وهى منظمة مدبرة بمؤثرات دائبة عاملة ليست بالخفية ولا بالمبهمة لذوي البصائر الجلية والافهام النافذة»

ثم يأخذ الاستاذ فى ذكر منشأ الملابس وتاريخها وما ورد عنها فى أساطير الأولين وخرافات الغابرين مما لا داعي الى نشره ، بيد أنه قد تخلل هذه الابحاث نظرات فلسفية ثاقبة ، وصور للحياة مؤثرة ، نثبت منها ما يأتى :

يزعم الفيلسوف أن أول ما بعث الانسان على ارتداء الملابس لم يكن طلب الدفء أو داعي الحياء وإنما حب الزينة ، وذلك حيث يقول « حقاً ما كان أتعس عيش المتوحش الفطرى وأبأسه ! تدير محاجره شهابى لظى يتأججان تحت غدائره الوحفة المتشعثة ، ويتخذ من شعوره المسدلة على متنه ولحيته المسبلة الى بطنه ما يشبه العباءة الملبدة ، أما سائر بدنه فستور بغطاء كثيف من زغبه الطبيعى . ثم تراه إما متسكعاً فى شعاب الغابات ، يصطلى جمرة النهار ويقتات من ثمار الأشجار ، وإما مقعياً فى بعض المستنقعات ، يتربص فريسته البهيمية أو الآدمية ، أعزل من كل سلاح مجرداً من كل عتاد اللهم الا كرة ثقيلة من الصوان قد ربطها بحبل من الجلد المضفور ، مخافة أن يفقدها وهى سلاحه الوحيد فى الدفاع والهجوم ، فهو بذلك الحبل يستردها كما يقذفها بمهارة صائبة وإصابة قاتلة . بيد أنه متى فرغ من اطفاء حرقة الجوع وارواء غلة الانتقام كان همه الأكبر وشاغله لا التماس الراحة بل طلب الزينة ، ولا غرو فانه متى احتاج الى الدفء وجد منه ما شاء إما فى جهاد الطرد والعناء ، أو بين الأوراق الجافة فى شجرته الجوفاء ، أو فى حظيرته المتخذة من اللحاء ، أو فى مغارته الطبيعية الملساء ، ولكن لأجل الزينة والزخرف لا سبيل الا الملبس . بل لقد وجدنا بين الشعوب العريقة فى الهمجية ان الوشم والطلاء

أسبق عهداً حتى من الملابس. فأول حاجة روحانية يشعر بها الانسان المتوحش هي الزينة كما هو الواقع الى اليوم بين الطبقات المتوحشة في البلاد المتمدينة .

« بلى أيها القارىء ان الشاعر المغرِّد الملهم ، والملك الأصيد المعظم ، بل معشوقتك الحسناء المكنونة في صدف الخدور ، المصورة من بهاء ونور ، التي تكاد من فرط الخفة والرشاقة والصفاء ، تنساب كالملاك على أجنحة الهواء ، والتي تعشقها وتعبدها كأنها حضرة آلهية ، كما هي في الواقع اذا اعتبرت الأمر من الوجهة الرمزية — أقول كل هؤلاء قد انحدروا — كما انحدرت أنت أيها القارىء — من صلب ذياك المتوحش الأغبر المتزمل بشعوره الشعثاء ، المتسلح بالصفات الصماء . وكذلك تخرج الحلاوة والرقة من البطش والقوة ، أي ضروب عجيبة من التغيير وأي مظاهر مدهشة من الانقلاب والتبديل تحدث — لا بفعل الزمان — ولكن على مره ! فما النوع البشري وحده بل أيضاً كل ما يفعله وكل ما يشاهده هو في نمو مستمر وحياة متجددة لا تزال ترمي الى الكمال الأسمى ، وتسعى نحو المثل الأعلى . التي بعملك أو بقولك في هذا العالم الدائم الحياة والحركة فما هو الا بذرة حية لا تموت ولا تفنى ، ان لبثت اليوم خاملة مدفونة فلسوف تشاهد بعد آلاف السنين خميلة غناء من روائع السنديان ، أو مع الأسف غابة غبياء من خبيث الشيكران . . . .

« هل كان يدري أول من اختزل عمل النساخين باختراع فن الطباعة أنه يفض جيوشاً ، ويثل عروشاً ، ويقضي على نظام الحكومات المطلقة ، ويحل مجلس الأعيان الموقرة ، وينشيء عالماً جديداً بحذافيره من الديمقراطية والحرية ؟ لقد كان مفعول أول حفنة من مسحوق النطرون والكبريت

والفحم أنها أطاحت مدق الراهب حتى اخترق سقف الغرفة التى كان بها ، فاذا ترى سيكون مفعول آخر حفنة ؟ لاشك أنها ستفضى الى احراز النصر المبين للقوة الذهنية على القوة المادية ، وللشجاعة الروحانية على الشجاعة الحيوانية . ثم تأمل كيف كان اختراع النقود فى أول أمره شيئاً هيناً بسيطاً ، اذ خطر ببال الراعى القديم — وقد مل التطواف فى مناكب الأرض بثوره البطىء ابتغاء مبادلته بقمح أو زيت — أن يأخذ قطعة من الجلد فيحفر فيها أو يطبع عليها صورة الثور (بيكس) ثم يضعها فى جيبه ويدعوها (بكيونيا) أو نقداً — ومن ثم صارت المبادلة مبايعة وتحولت النقود الجلدية الى نقود ذهبية فورقية فرأينا من آثارها وفعالها ما فاق المعجزات إعجازاً والخوارق إدهاشاً : فهنالك المصارف المالية والديون الأهلية وأصحاب القناطير المقنطرة والملايين المجمّعة ، ومن آثارها أن صار كل امرىء يملك ولو درهماً واحداً أميراً مطاعاً وسلطاناً مسلطاً على جميع الناس بمقدار هذا الدرهم : يأمر الطهاة فيطعمونه والفلاسفة فيعلمونه والملوك فيحرسونه — بمقدار الدرهم . وكذلك الملابس التى نشأت بادىء ذى بدء عن حماقة الشغف بالزينة أى المبالغ لم تبلغها وأى الغايات لم تدركها ! لسرعان ما استفاد الانسان منها مزيد الوقاية ولذيذ الدفء والحرارة ، ولكن ماهذه بجانب غيرها ؟ فالملابس هى المصدر والمنشأ لفضيلة الحياء ، ذلك الهيكل الظليل المحجب الذى يضم بين جوانحه كل مقدس فى الانسان . والملابس هى التى جعلت لنا شخصيات مستقلة ومميزات نتفاضل بها وسياسة نجرى عليها وصفوة القول أن الملابس هى التى تجعل الفرد منا انساناً وهى التى تنذر اليوم بجعله مشجباً تعلق به الثياب وتعرض عليه الأردية » .

ثم يستمر الاستاذ البليغ فيقول « على أن جملة القول ان الانسان حيوان يستعمل الآلات ، فهو ضعيف في نفسه ضئيل فى جرمه يقف قلقاً مضطرباً على قاعدة لا تتجاوز نصف قدم مربع مهما كان عرض قدميه . ويضطر أن يفتح بين رجليه لئلا تنفخه الريح فيطيح : ما أوهنك أيها الانسان لأنت أضعف ذى قائمتين . يفدحك حمل الثلاثة القناطير ويلاقيك ثور الغاب فيقذفك صعداً فى الهواء كأنك خرقة بالية . غير انك بالرغم من ذلك تستطيع استعمال الآلات واختراع الأدوات وبفضل هذه تذوب من يديك الجبال الشماء والجلامد الصماء ، حتى تصير تراباً كالهباء ، بفضل هذه يلين لك الحديد القاسى فتصور منه ما شئت من صور متماثلة ومتباينة ، كأنه عجينة لينة ، بفضل هذه صارت لك البحار سبلا معبدة وأصبحت لك الريح والنار جياداً مذللة لا ينالها السأم ولا يعتورها الونى ! وكذلك مهما بحثت فلن تجد الانسان بدون آلات اذ هو بغير الآلات لا شيء وهو بها كل شيء .

« الانسان حيوان يستعمل الآلات وما الملابس فى الواقع الا أحد الشواهد على هذه الحقيقة . ولئن تأملت البون الشاسع بين أول معزقة خشبية صنعها الانسان وبين هــذه القاطرات البخارية والمجالس البرلمانية لتبينت مبلغ التقدم الذى أدركه . يقتلع الانسان من جوف الأرض بضعة أحجار سوداء فيقول لها (احمليني ومتاعى بسرعة خمسة وثلاثين ميلا فى الساعة) فلا يكون منها الا أن تصدع بأمره . ثم يجمع جزافاً ستمائة وثمانية وخمسين فرداً مختلفى المذاهب والمشارب فيقول لهم (مروا هذه الأمة أن تبذل فى سبيلنا جهادها وتسفك من أجلنا دماءها وتتحمل آلام الجوع والحزن وعواقب الجريرة والاثم) فسرعان ما يلبون طلبه »

الفصل السادس

فى المباذل والملابس التاريخية

من أغرب فصول الكتاب وأعجبها الفصل الذى عقده الاستاذ عن المباذل وأودعه من عبارات الاستخفاف والازدراء، ما يقارب صريح الهجاء، فعمرك الله ماذا يعنى المؤلف بأمثال الأقوال الآتية :؟

« المباذل دروع واقية يتخذها الانسان للمحافظة على النظافة أو السلامة أو الحياء، وأحياناً للمحافظة على القذر والسفالة. وقد تفنن الناس فى هيئات هذا النوع من الملابس كل التفنن، وتصرفوا فى وجوه استعماله كل التصرف، فمن قطعة الديباج الرقيقة الحواشى المشرشرة الأطراف تضعها الحسناء على صدرها الرقيق فتحسبها من فرط الحسن واللطافة طيف المبذلة الأنيق — الى ذلك الأديم الغليظ يشده البناء بسيور من الجلد حول خصره حتى اذا جاء المساء أثبت فيه أداة عمله — الى تلك المبذلة العالية الصليل المتخذة من صفائح الحديد التى يرتديها القين وهو يطرق المطائل على السندان أو يذيب السبائك فى النيران — أليس فى كل ذلك شاهد صادق على التفنن فى هيئات المباذل والابتداع فى وجوه استعمالها ؟ لله در المباذل كم من أمور تستر عن العيون! وكم من أمور تصون من المحذور! بل تأمل حق التأمل وحدثنى عن حقيقة هذه الجيوش والشرط والأساطيل ينفق عليها ما لا يقدر من الملايين؟ أليست هى أيضاً مبذلة ضخمة يرتديها المجتمع الانسانى (فلا يزال فيها مزهقاً مضايقاً) وهو يعمل فى ذلك المصنع الهائل الذى نسميه الدنيا فيقى بها نفسه مما يرفض هنالك من الشرر، ويتطاير حوله من القذر ؟ »

أو هل أتيح لأحد القراء أن يطالع أمثال العبارات الآتية :

« انى أعد تلك المباذل التى يتخذها طهاة باريس من الورق المطبوع منفذاً جديداً — وان يكن محدودا — يندفع منه سيل المطبوعات الزاخر . وهي من هذا الوجه مظهر منشط لنهضة الآداب ، يجدر بها أن تنال كل ثناء مستطاب . وقد سررت أيما سرور عند ما أنبئت أن متجراً شهيراً في لندن قد عزم على ادخال تلك العادة فى بلاد الانجليز » . لا ندرى من أين وصل هذا الخبر الى الاستاذ مع أننا معشر الانجليز لم نسمع به قط وحقيق بنا أن نحمد الله على أن آدابنا لم تفتقر على وفرتها الى منفذ من هذا القبيل — ثم يستمر الاستاذ فيقول «ولكن أليس من المعجب الطريف أن نرى خمسة ملايين قنطاراً من الخرق تلتقط من المزابل فى كل عام وبعد أن تمزق وتكبس وتذاب ، وتهيأ ورقاً وتطبع وتباع ، تعود الى المزبلة مرة أخرى ، فتكون فى أثناء هذا الطواف قد أطعمت ألوفاً من البطون الجائعة ، فكأن المزبلة بما حوت من الخرق البالية إن هى الا بطارية كهربائية عظيمة تنبعث منها وتعود اليها تيارات المعاملات والمجهودات بعد أن تجول فى دوائر صغيرة وكبيرة خلال ذلك السديم المضطرب العجاج ، المصطفق الرجراج ، الذى يظل بفضل هذه التيارات جائش الحركة مفعماً بالحياة ؟»

***

بعد هذا الفصل العجيب عن المباذل يورد الاستاذ فصلا عن الملابس التاريخية حافلا بأوصاف الملابس فى متتابع العصور ، وما طرأ عليها من التغيير على مر الدهور ، بيد أنا نكتفى منه بهذه الملاحظة الجديرة بالتأمل :

« لو تيسر لأبناء هذا العصر من الألمان أن يشاهدوا الملابس التى كان يرتديها أسلافهم فى غابر الأزمان لتبسموا استغرابا لها واستخفافاً بها ، كما أنه لو أتيح لأولئك الألمان الغابرين أن يبعثوا من قبورهم ويعاينوا مانرتديه الآن لصنعوا بأيديهم علامة الصليب وتعوذوا بالعذراء . ولكن من حسن الحظ أنه لا يتاح ولن يتاح فى هذه الحياة الدنيا لأحد أولئك الألمان الغابرين أولأحد الناس على الاطلاق أن يبعث من رقدته وينشر من حفرته . وكذلك ترى الحاضر لا يرتبك بالماضي ارتباكاً لا داعى له ، بل هو يخرج منه وينمو كما تخرج الشجرة من بطن الثرى فلا تتواشج اعراقها بأغصانها، بل تذهب هذه صاعدة في السماء وتستقر تلك تحت الارض في سكون وأمان — بيد أنه من بواعث الحزن (وان كان الأمر لا يخلو من الفائدة) ان أحب الناس الى قلوبنا وأعظمهم شأناً فى عيوننا اذا عاد الى الحياة بعد مدة وجيزة من وفاته ألفى محله مشغولا ولم يجد لنفسه فى الدنيا مكاناً . فهذا نابليون وبيرون على ما كان لهما في النفوس من المكانة السامية قد أصبحا فى بضع سبع سنين من الطراز القديم وصارا عن أهل أوروبا غريبين أجنبيين ، وبهذا قضت شريعة التقدم والارتقاء فلن تجد نمطاً يبقى على الأزمان لا فى الملابس ولا فى سائر الأشياء الظاهرة على الاطلاق »

الفصل السابع

الدنيا مجردة من الملابس

لئن كان الاستاذ قد أدهش كثيراً من القراء بما أورد فى القسم التاريخى الوصفى فأحج به أن يكون كلامه في القسم النظرى الفلسفى أدعى الى الدهشة

وأدخل فى باب العجب . والواقع أن الناشر قد أخذ منذ الآن يشعر بثقل العبء وضغطه ، فمن هنا تبدأ فلسفة الملابس العالية ، وانها لمفازة سحيقة الارجاء ، محتجزة عن الادلاء ، لا يدرى الخاطر فيها أى المسالك يسلك ، وأى الوجهات يأخذ ، بل لا يعلم أين تثبت مواطىء قدميه فتحتمله ، وأين تسيخ به فتبتلعه . لقد أخذ الاستاذ على نفسه أن يشرح ما للملابس من الآثار الأدبية والسياسية والدينية ، وأن يوضح غوامض تلك النظرية العظيمة : وهى أن مصالح الانسان فى هذه الحياة الدنيا مترابطة الأجزاء متماسكة العرى بفضل شىء واحد هو الملابس . وهو يعبر عن هذه الحقيقة بقوله طوراً « بنى المجتمع على الملابس » وتارة « ان المجتمع ليسبح فى فضاء اللانهاية على الملابس كأنه سابح على بساط سليمان ولولا هذا البساط لسقط فى أعماق الهاوية وغاله الفناء »

ولن نحاول هنا بيان حلقات التفكير التى اهتدى بها الاستاذ الى كشف هذه النظرية العظيمة والى استنباط ما يترتب عليها من النتائج العملية الكثيرة ، فان هذه المحاولة تعد منا ضربا من الجنون ، ولا غرو فالاستاذ لا يتبع طريقة المنطق المدرسى حيث تجد الحقائق واقفة جميعها فى صف مرصوص آخذ بعضها برقاب بعض ، بل هو يسلك طريقة اللقانة واللوذعية والالهام ، فيتخطى بنظرة واحدة من ثاقب نظراته مجاميع كاملة من المقدمات والنتائج ، ومن ثم تجد فى فلسفته نوعاً غريباً من رائع الاختلاط كالذى يشاهد فى مجالى الطبيعة فتشعر كأنك فى متاهة هائلة ولكن قلبك يحدثك بأن هذه المتاهة لا تعدم نظامها المحكم . وقد نشاهد أحياناً بجانب هذا الاختلاط

الشريف اختلاطاً خسيساً يصح أن يدعى ارتباكاً وحينئذ شد ما نتمنى من صميم الفؤاد لو كانت تلك المستندات الموعودة على حبل ذراعنا ، إذ يظهر أن ايضاح كلام المؤلف يتوقف فى كثير من الأحوال على إيضاح شخصيته ، كأن الاستاذ قد تلقى تعاليمه لا من طريق البرهان النظرى بل من طريق الاختبار الشخصى . على أننا نجتزىء الآن باقتطاف شذرات من هنا وهنا ثم نجمع منها صورة تؤدى الى القارىء بياناً مجملاً عن مذهب الفيلسوف .

لهذا نحن ندعو أهل الفطنة والذكاء من القراء الى استجماع خواطرهم وحشد اذهانهم . ونسألهم أن يخبرونا بعد اتمام الروية أفلا يلمحون على حاشية الأفق الأقصى أعلام أرض جديدة ، وبشائر جزائر سعيدة ، تدعو اليها كل من يمتطى صهوة اليم ، ويغامس حومة الخضم ؟ وهاك أيها القارىء مثالاً : —

« يأتى على أهل التأمل والتفكير أوقات حلوة هاجسة ولكنها جليلة رائعة يوجهون فيها الى أنفسهم بين الدهشة والوجل هذا السؤال المفحم الرهيب : من أنا ؟ ، ماهو ذلك الشيء الذى يقول أنا ؟ فى هذه الأحيان يشعر الانسان كأن الدنيا بصخبها ولجبها قد تراجعت الى الوراء قصياً ، وكأن بصيرته قد نفذت من خلال بطائن الورق وجدران المدر ومن خلال المشاغل التجارية والسياسية ونسائجها الصفيقة الطيات المتراكبة الطبقات ومن خلال تلك الأغشية النامية والجامدة التى يتألف منها الجسم والمجتمع والتى تحدق بوجودنا — أقول فى هذه الأحيان تنفذ البصيرة خلال هذه الأشياء كافة حتى تصل الى أعماق الغيب . وهناك يقف الانسان وحيداً

فريداً بين يدى حقيقة الكون يناجيها مناجاة خفية ، كما يتناجى الروحان ويتفاوض السران !

« من أنا ؟ صوت أم حركة أم ظاهرة أم خاطر من خواطر العقل الأبدى جسّم وأبرز الى حيز المنظور ؟ مهلاً أيها المفكر المسكين فقلما يجدى عليك هذا التفكير . حقيقة انك موجود ، وحقيقة انك لم تكن منذ عهد قريب ، ولكن من أين أتيت ؟ وكيف جئت وأيان تساق ؟ أسئلة تجد الجواب عليها منشوراً حولك فى عرض السموات والأرض، مكتوباً بكل لون وحركة ، ومسموعاً في كل أهزوجة وعولة ، ولكن أين العين الثاقبة التى ينكشف لها ذلك السفر المقدس المكتوب بالقلم الأعلى عن مدلولات مفهومة ومعان مبينة ؟ نحن من هذه الدنيا مقيمون فى كهف عجائب وأحلام ، ومعرض خيالات وأطياف ، بعيد الانحاء شاسع الارجاء ، يقصر عن أقرب مداه أغمض الكواكب وأبعد القرون — توفى الى آذاننا أصوات ونغمات، وتتمثل لعيوننا صور جمة الألوان وخيالات ،ولكن الأصل المبدع الذى لا تأخذ سنة ولا نوم، والذى أنشأ الحالم والحلم ، مغيب مكنون ، لا تراه العيون ، بل لا يخطر وجوده على الأوهام، الا فى لحظات نادرة بين اليقظة والمنام . قال حكيم من الحكماء (مثل الكون كمثل قوس قزح يتراءى أمامنا فى حسنه وبهائه ، وجماله وسنائه ، ولكن الشمس الذى نقشته فأبدعت ، وصورته فأحكمت، تحتجب وراءنا في مطاوى الغمام بحيث لا تنالها الأبصار). وكذلك نظل فى هذا الحلم الغريب نحاول امساك الخيالات الطائفة نحسبها أجساماً جامدة ، ونغط فى عميق السبات إذ

نحسب أنفسنا منتبهين أشد الانتباه ! بالله خبرني أي مذهب من مذاهبنا الفلسفية الا وهو أضغاث أحلام في أضغاث الأحلام، الا وهو خارج قسمة صاف أخرجته وأنت واثق بصحته جد الوثوق مع ان كلا من القاسم والمقسوم عليه مجهول ؟ بل ماهذه الحروب والخطوب، والحوادث الجسام، والثورات العظام ، الا هذيان المضطرب في منامه ، وحركات المروَّع من مزعجات أحلامه ؟ هذه الأحلام وهذا الهذيان هو ما نسميه الحياة حيث أحكم الحكماء وأعلم العلماء هم أولئك الذين يعلمون انهم لايعلمون شيئاً .

« أسفى على أن علوم الأصول والكلام لم تثبت حتى الآن غير عقمها المفرط وعجزها الفاضح . فهذا سر الحياة لا يزال كسر أبي الهول : لغز مبهم مغلق لا يستطيع الانسان له حلا ، وقد قضى عليه لعجزه عن حله بشر أنواع الموت : الموت الروحاني . ماهذه التي نسميها بدهيات ونظريات ومذاهب ومبادىء ؟ ..... كلام في كلام ؟ قلاع هوائية شاهقة قد بنيت أبدع بنيان بقراميد الألفاظ وتماسكت بمونة المنطق ، ولكنها خاوية الربوع من العلم ، خالية الحجرات من العرفان . الكل أكبر من الجزء، كلام ما أصدقه ، الطبيعة تمقت الفراغ ، قول ما أكذبه ! لا يستطيع شيء أن يحدث تأثيراً الاحيث يكون ، نعم هذا حق ولكن أين يكون ؟ لا تكن عبد الألفاظ ، ألا ترى أن ما هو بعيد عني، أو ما هو ميت قد انقطعت الصلة بينه وبيني ، هو في الحقيقة قائم « هنا » وقريب مني قرب هذا البلاط الذي أنا واقف عليه ، مادمت أحبه وأحن اليه وأحزن عليه ؟ بيد أن ذينك العنصرين عنصر الزمان وأخيه المكان ما برحا منذ أقدم القدم وهما اللونان الرئيسيان المصبوغة بهما جدران كهف الأحلام، بل ان شئت فقل هما السدى

واللحمة لتلك النسيج المنقوشة عليه أحلام الحياة ورؤاها. ولكن ألم يخبرنا أولو النظر الثاقب فى كل عصر ومصر أن عنصرى الزمان والمكان المتصلين بخواطرنا أمتن الاتصال ، الممتزجين بنفوسنا أشد الامتزاج ان هما الا زوائد أجنبية عالقة بالفكر ، وعوارض سطحية لاصقة بالنفس ، وأن المتأمل البصير يستطيع أن يلمح موضع الاتصال بينهما وبين الأبدية واللانهاية . ألم تر الى كل الشعوب والأمم ، كيف تصورت الله جل شأنه موجوداً فى كل زمان وقائماً فى كل مكان ؟ أنعم النظر ملياً يتضح لك أيضاً أن الزمان والمكان ان هما الا من وتصاوير الحواس ، وأنهما فى الحقيقة لا وجود لهما ولا أثر ، واننا نحن — ماذا أقول — ذرات من النور ، سابحة فى سبحات أنوار العلى القدير !

« وكذلك ما هذا الكون بكواكبه ودراريه ، ودعائمه الجامدة ورواسيه ، الا صورة وخيال لا حقيقة فيه الا هذا الصوت الناطق بلفظة « أنا » . وما الطبيعة بما يموت فيها وما يحيى ، وما يستجد فيها وما يبلى ، الا صورة معكوسة عن قوانا الباطنة ، وخيال يتراءى لأحلامنا الهاجسة ، أو هى كما يقول روح الأرض فى رواية فوست « رداء الله وثوبه الظاهر الحى »

« فى حالة من تلكم الحالات ، وقد غادرتني هذه الخواطر العالية والافكار العميقة نضواً حسيراً ، متعباً مبهوراً ، خطرت ببالى مسألة الملابس لأول مرة . فأدهشتني تلك الحقيقة القائمة وهى وجود الملابس والخياطين . عجباً والله ! هذا الجواد الذى أمتطيه قد كفته الطبيعة مؤونة اللباس ، وأعدت له كسوة من الجلد والشعر ، فلو انى جردته من سرجه ولجامه ، ولبده وحزامه ، لبقى الحيوان النبيل مكتفياً بذاته ، قد هيأت له الطبيعة من نفسه

غزالا ونساجاً وخياطاً ، بل أعدت له كذلك حذّاء وصائغاً ووشّاء . فهو يجمح ويمرح في بطون الوديان وعليه من اهابه الطبيعي كسوة خالدة ، لاتلوّحها أشعة الشمس، ولايؤثر فيها وابل المزن ، بل لاينقصها ما يزينها من محاسن الوشي ، فهي تروق العين بالغرر والأوضاح والشيات والدارات والحلل والهداب والألوان المشرقة والأصباغ المونقة . فيالله كل ذلك وأنا قد تلففت في جزز الاغنام وألحيـة النباتات وامعاء الديدان وجلود الثيران وفراء ذوات الفرو من الحيوان، وعلى هذه الهيئة أخرج الى الملأ فما أنا الا مشجب متحرك قد كوم عليه ركام من الاسمال انتشلت من مقبرة الطبيعة حيث البلى قائم لها بالمرصاد وروكمت على جسدي كي تبلى علي بسرعة أقل وفي زمن أطول . وكذلك يمر اليوم أثر اليوم وأنا لا أجد مندوحة عن تغطية بدني بالخرق والاهدام ، كذلك يمر اليوم أثر اليوم ، ولا بد لهذا الغطاء الحقير أن يفقد من ثخانته طبقة تكتسح الى المزبلة ، حتى يلحق بأوله آخره ، وينضم الى بعضه سائره ، فأعمد أنا ذلك المخلوق المبلي الى اتخاذ مادة جديدة أبليها وأفنيها — باللقبح ويالللشناعة أو لم يرزقني الله اهاباً شاملا ، أبيض الصبغة أو أسمرها ، ناصع البشرة أو أكدرها ؟ عجباً لي ولشاني ! هل كنت اذن كتلة مرقعة من مزق الخياط ورقع الاسكاف، أم أنا شخص دقيق الاجزاء ،متجانس الاعضاء ، محكم النظام أنيق الهندام ذو حركة ذاتية بل روح حية ؟

« لشد ما أعجب والله من أمر هذه المخلوقات الآدمية تطبق عن أبين لحقائق عيونها، ثم تستطيع لابشيء سوى جمود البلادة وذهول النسيان، أن يش آمنة مطمئنة في وسط الروائع والروائق . على أن الانسان كان ولايزال

ذلك الحيوان الغبي الأبله الذي هو على أن يشعر ويهضم أقدر منه على أن يعتبر ويفكر. فالوهم الذي يتظاهر بكراهته ويتشدق باحتقاره هو آمره المطاع، والعادة هي التي تقتاده من أنفه حيثما كان، فلو انه شهد مطلع الشمس أو بدء الخليقة مرتين لعادت تلك المناظر في عينه غير خليقة بإثارة العجب، بل غير جديرة باسترعاء النظر. ولعلك لا تجد واحداً من أبناء آدم من أي قطر أو في أي عصر سواء أكان أميراً يرفل في حلل الارجوان، أم صعلوكا يتضاءل في خرق الكتان، قد خطر بباله ولو مرة في العمر أن نفسه ولباسه ليسا شيئاً واحداً وجزءاً لا يقبل التجزئة. وانه لا يزال بفطرته عريان مجرداً حتى يتحصل على الملابس اما شراء واما سرقة. وحتى يوفق بعد أعمال الروية الى خياطتها وزرها.

«أما أنا فلا أكاد أفكر في أمر هذه الخرق والاهدام التي تغلغل نفوذها الى سويداء قلوبنا وراح يفسد من أخلاقنا حتى يتولاني الرعب ويأخذني الوهل. واعتقادي انه ما أجل الساعة التي ينزع المرء فيها عن نفسه لأول مرة هذه الفضلات الغريبة فيرى انه خلق عرياناً وانه وان كان، كما قال سويفت، حيواناً مفروج القائمتين معوج الساقين، لا يزال سراً ملغزاً من أسرار الكون ونفحة مباركة من روح الله»

الفصل الثامن

في التجرد

لا يهولن القارىء ما أبداه الاستاذ في خاتمة الفصل الأخير من غريب

الآراء التي ما كدنا نطلع عليها لأول مرة حتى قلنا فى نفسنا : عجباً لأمر هذا الفيلسوف أتراه يريد أن يظهر فى هـذا القرن قرن المدنية والحضارة بمظهر عدو الملابس ونصير التجرد !

مهلا أيها الاستاذ الأحمق تذكر ما للملابس على الانسان من عميم الافضال وجزيل الأيادى ! انظر الى نفسك وأنت طفل رضيع حديث العهد بالقدوم الى هذا الـكوكب السيار ، تتقلب في حضن مرضعتك ظاهر العجز عديم الحيلة، تمتص أناملك ، وتقابل الدنيا بنظرات شاخصة وألحاظ ذاهلة ، ماذا كان يكون شأنك لو لا تلك اللفائف والأقمطة ، والملاحف والأربطة ؟ أم هل نسيت اليوم الذى استبدلت فيـه بثياب البيت ثياب المدرسة ، فطار النبأ فى أنحاء القرية ، وأقبل الجيران واحداً بعد واحد يقبلون وجنتيك المتوردتين ، ويمنحونك العيدية من دراهم فضية أو نحاسية فى أول عيد لك فى هـذا الوجود ! أم هل غاب عن ذكرك عهد الشباب والغرور اذ كنت تعنى كل العناية بتزيين شخصك وتأنيق هندامك ؟ بل تذكر حالك اليوم وقد تقضى ذلك العهد أو تبدل شأنك فاصبحت لا تتخذ الملابس للزينـة بل للوقاية ، أتراك تلبسها كارها بحكم الضرورة ، وتعتبر اتخاذها عاقبة مشئومة من عواقب سقوط أبويك الأولين من الجنة ، أم أنت تغتبط بها منشرح الصدر مبتهج النفس شاعراً بأنها بيت دافىء متحرك، بل جسم ثان حول جسمك ، تقيم فيه نفسك العجيبة آمنة السرب لا تبالى بتقلب الاجواء ، ولا تعبأ بتصرف الأنواء ؟ بفضل الملابس قد استطعت أن تمتطى ذلك « الجواد الذى امتطيته » فتخرج به ولو فى صبارة الشتاء ينهب بك الأرض نهباً ، ويختال بك فوق ظهرها نزقاً ومرحاً ، كأنك أميرها

وسيدها ، عبثاً ما تلطم صدغيك عواصف الجليد ، فانها لن تلتقى إلا بطبقات الصوف الصفيق ، وعبثا ما تزمجر حولك الرياح وتقصف ، وتتجاوب اصداء الغابات وتعزف ، وتتكور الزوابع وتعصف ، ثم تنقلب أعصاراً يلفح فينسف . فانك لامحالة مارق في وسطها مروق السهم ، تقتدح الشرر من قارعة الطريق ، وترن فى أذنيك موسيقى العناصر المتصارعة ، وتضيء سبيلك البروق الساطعة . فناشدتك الله ماذا كنت تفعل بغير الملابس ، وماذا كان يفعل بغير السرج والالجام جوادك السابح ؟ الطبيعة كريمة ولكنها ليست أكرم الأكرمين ، فهنا ينتصر عليها الفن ويتفوق .

وكأني بالقارىء يقول : أفهل نسى صاحبك الاستاذ ماذكره آنفاً عن ذلك المتوحش المتسكع فى الغابات وعن حاله التعسة الأسيفة ؟ أتراه يريد أن ينقض كل ما قال ، ويرجع بنا الى عهود التوحش والهمجية ؟

رويدك أيها القارىء ان الاستاذ عليم بكل ما يقول ، وكلانا قد تعجل في لومه . لئن لم يكن للملابس اليوم وقد شرعت تستبد بنا وتفسد من أخلاقنا فضيلة تشفع لها ، أفليس فى الامكان استخدامها فيما هو أصلح وأنفع ؟ أفلا بد من نبذها نبذاً ؟ ان الاستاذ لاتخفى عليه مزايا الملابس ومنافعها ، بل لعله يرى بنافذ بصيرته من خفى فضائلها ومآثرها ما لا يظهر قط لغيره وهاك مثالاً من ذلك :

« ترى شخصين أحدهما في ثوب أحمر فاخر ضاف ، والآخر في ثوب أزرق سخيف جاف . فيقول الأحمر للأزرق « حكمت عليك بالشنق والتشريح » فترتعد فرائص الأزرق ، ثم (ياللعجب العاجب) يدلف الى المشنقة كئيباً حزيناً ، فيشنق هنالك ويتدلى ساعة من الزمن ، ثم يشرحه

الأطباء ويهيئون من عظامه هيكلاً يستعمل فى المقاصد الطبية . كيف كان ذلك ؟ أم ماذا تصنع بقولهم « لا يستطيع شىء أن يعمل الا حيث يكون » ؟ ان هذا الأحمر لم يكن قابضاً على الأزرق ، بل لم يكن ملامسه بحال من الأحوال ، ثم أولئك الشرطة والمأمورون وسائر الذين يصدعون بأمر الأحمر ليسوا متصلين به اتصالاً يمكنه من تحريكهم من هنا الى ههنا والتصرف فيهم بحسب هواه ، بل كل منهم مستقل في موقفه ، منحصر في اهابه . ولكن مع كل هذا لا تكاد تخرج الكلمة حتى يحققها الفعل ، لا تكاد الكلمة الملفوظة تفصل من فم قائلها حتى تنطلق الايدى بالعمل ، فيفعل الحبل فعله، وتؤدى أدوات التشريح مهمتها .

« أيها القارىء المفكر انى أرى السبب فى ذلك يرجع الى أمرين: أولهما ان الانسان كون روحانى تربطه بجميع الناس روابط خفية، وثانيهما انه يرتدى الملابس وهى العلامات الظاهرة الدالة على تلك الحقيقة الباطنة . ألا ترى أن صاحب الثوب الاحمر قد اتخذ شعاراً مخصوصاً وارتدى رداء مخصوصاً بحيث يفهم جميع الناس أنه قاض ؟ بلى يا صاحبي هذا المجتمع الانسانى، الذى كلما زدته تأملاً زادنى حيرة، انما هو مؤسس على الملابس .

« كثيراً ما أطالع وقد تولانى الملل والاكتئاب أخبار الحفلات الرسمية والمقابلات الملوكية والتشريفات السلطانية، وكيف تتقدم الوفود بين صفوف الحجاب والنبلاء ، والقواد والأمراء ، حتى تنتهى الى السدة العلية بين مجالي التعظيم والاجلال ، ومظاهر الأبهة والاحتفال ، فبينا أجهد خاطرى فى تخيل ذلك الموقف ، وأكد ذهني فى تصور ذلك المنظر لا يروعنى الا املاس الملابس عن أفراد الجمع برمته . فاروح أتخيل الحجاب والأمراء ، والأساقفة

والنبلاء ، والأعيان والقواد ، بل الحضرة العلية بجلالة قدرها ، وكل ابن أم منهم واقفاً هنالك عاري الجسد لا تستره خرقة ، فأظل لا أدرى أأضحك من ذلك المنظر أم أبكى .

« ترى ماذا يصنع صاحب الجلالة لو أن هـذا الأمر وقع فعلا : ماذا يفعل القوم لو أن الازرة كلها طاحت من مواضعها وتبخرت أنسجة الملابس بالفعل كما خيل لي في الوهم ؟ لله أبوهم ! كيف كان كل منهم يتسلل لواذاً الى أقرب مخبأ ، وكيف كانت تنقلب حفلتهم المهيبة رواية مضحكة ، وكيف كان نظام الحكومة برمته ، بل كيان المجتمع بجملته ، يتداعى معهم ويتلاشى بين عولات النساء وصيحات الفناء ! »

هل يستطيع القارىء أن يتصور خطيباً عرياناً يخاطب برلماناً عارياً ؟ ان المخيلة لتعجز عن تمثل هذه الصورة ، وتقف دونها حسيرة مبهورة ، بيد أن الأمر ليس من الاستحالة بحيث نظن . أو لم يكن كل فرد من أولئك الحارسين لحقوقنا ، الساهرين على حرياتنا ، عاري الجسد أو يكاد ليلة البارحة وماذا يمنعه — لو جرى بذلك محتوم القدر — من أن يتمشى عارياً الى ندوة البرلمان ، كما يتمشى عارياً الى غرفة النوم ؟

الفصل التاسع

المادية والروحانية

الآن حصحص الحق وبرح الخفاء ، وظهر ان صاحبنا الاستاذ من أغلى غلاة المتطرفين ، لا يكاد يرى فى روائع الحياة وزخارفها الا أسمالا بالية وأناساً حفاة عراة ، فحرى بنا أن لا نتلوم بين هذه المباحث طويلا ، وحسبنا

أن نعلم هذه الحقيقة البسيطة وهى ان تحت هذه الدنيا الكاسية دنيا عارية.
لهذا نضرب صفحاً عن كثير مما يذكره الاستاذ عن « مصارعات الملوك العراة مع الحوذية فوق الكلأ حيث يسقط الفريقان مجدّلين » وذلك حيث يقول « شرحهم بالمشارط تجد فى الفريقين مظهراً متماثلاً من الأوعية والأحشاء، والأنسجة والامعاء، ثم افحص تركيبهم الروحانى تجد فى الفريقين مظهراً متماثلاً من الشراهة الكبيرة، والهمة الصغيرة. بل لعلك تجد الحوذى بما يعلم عن غرائز البهائم وتأطير العجلات، وقانون التوازن والاختلال وما شاكل ذلك من فن جر العربات، وبفضل ما مارس من العمل فى مناحى الطبيعة والكد فى مذاهب الحياة، أخصب الفريقين ذهناً وأوسعهما حيلة.
إذن فما السر فيما بينهما من هذا البون الشاسع؟ السر يا صاحبي فى الملابس».
كذلك نغفل كثيراً مما ذكره الاستاذ عن اختلاط الطبقات واختفاء المميزات واستحكام الفوضي واضطراب الأمن الى ما شابه ذلك من الأمور التى هى جديرة أن تخطر بالبال متى تمثل الفكر صورة « المجتمع العريان » على أنا نكتفى من كل ذلك بالكلمة الوجيزة الآتية:

«هل نحن من ذوات الأكياس، قد جهزتنا الطبيعة بأكياس طبيعية كالتى لليربوع؟ أم كيف كنا نستطيع بغير الملابس تجهيز أنفسنا بذلك العضو الرئيسى: مقر الروح ومركز النفس، بل الغدة الصنوبرية لجسم المجتمع: أعني كيس النقود؟»

بيد أن الانسان لا يستطيع مع كل ذلك أن يبغض الاستاذ، بل غاية ما فى الأمر أن يبقى لا يدرى أيحبه أم يبغضه. ولا غرو فانه اذا كان الاستاذ عند التأمل فى بديع كسوة الحياة وما حوت من شريف التصاوير ورائع

التهاويل لا يقتصر على إجالة النظر فى وجهها بل لا يزال يقلبها على ظهرها ويفتش مواضع الخياطة الجافية والخرق المتدلية وسائر ما حوى ذلك الجانب القبيح من المشوهات — فان فيه مع هذه النزعة السفلية نزعة علوية لا تقل عنها قوة وشدة . ولئن رأيته يحط من مكانة الانسان وينزله فى بعض الاحيان عن سائر الحيوان ، فانك لتراه فى أحيان أخرى يرفعه الى أعلى عليين ، ويجعله فى صف الكرام المطهرين : ومن هذا القبيل العبارة الآتية :

«ما الانسان فى عرف المنطق المادى؟ حيوان ذو قائمتين يأكل اللحوم والأعشاب . وما هو فى عرف المنطق الروحانى؟ روح لدنية وصورة الٰهية ، يحيط بنفسه . تحت هذه الأطمار الصوفية والقطنية ، ثوب من اللحم (أو من الحواس) منسوج على نول السماء ، وبفضل هذا الثوب اللحمى يظهر الانسان لأخيه الانسان ، ويعيش معه فى اجتماع وافتراق ، ويرى بعينه ويهيىء لنفسه عالماً ذا مسافات مترامية من لازوردى الفضاء ، وآلاف مؤلفة من متطاول السنين . وكذلك يقضى المرء حياته فى هذا الثوب العجيب مغموراً ملففاً ، مدفوناً مكفناً ، بيد أنه ثوب طاهر شريف جدير أن يرتديه الملائكة بل الآلهة . ألا يقف الانسان بفضله فى منتصف اللانهايات ، وملتقى الأبديات ؟ لقد منح الانسان ملكة الشعور ، وأوتى القدرة على العلم والايمان ، بل ألا ترى أن طيف الحب قد يطل فى قلبه بساحر بهائه ، وباهر لألائه ، وان كان هذا لا يقع الا فى مسترق اللحظات ؟ لله در القديس إذ يقول بشفتيه الذهبيتين « ليس فى الأرض محراب مقدس غير ابن آدم » والا فأين تتجلى الحضرة اللدنية لبصائرنا فضلاً عن أبصارنا كما تتجلى فى أخينا الانسان ؟ »

في أمثال هذه الشذرات — النادرة لسوء الحظ — تتجلى باطنية الفيلسوف ساطعة باهرة، وتنفجر نزعته الصوفية كالينبوع الدافق والسيل الجارف، وعندئذ يخيل الينا أننا نلمح من خلال ما يحيط بظاهره من مستقذر الأبخرة وكريه الأوضار بحراً صافياً من النور والمحبة. لكن — وآسفاه — سرعان ما تلتئم فروج العجاجة المتكررة، فتحجبه مرة أخرى عن الأنظار.

ان هذه النزعة الباطنية لا تزال واضحة الأثر في جميع حركات الفيلسوف وسكناته، فهو لا يكاد يرى شيئاً من الأشياء حتى يتبين فيه غير معناه الظاهر المكشوف معنى خفياً مستوراً، ولئن كان يرى في صولجان الملك وبردة الخلافة كما يرى في عكاز الصعلوك ومدرعة الشحاذ معنى من الضعة والبلى والضآلة، فانه ليرى في كل منهما أيضاً معنى من الرفعة والروعة والجلالة. ولا غرو فان المادة مهما حقرت واتضعت لا تزال مظهراً من مظاهر الروح، ومهما شرفت وارتفعت فهل يمكن أن تكون أفضل من ذلك؟ ان الشيء المرئي، بل الشيء الموهوم، ان هو الا ثوب ورداء للروح الباطنة الخفية، القدسية السماوية التي لا يحيط بها فكر، ولا يحدها شكل، والتي قد أظلمت من شدة اللألاء! والآن فلنسمع كلام الأستاذ:

« أساس الحكمة وأصلها أن تحدق النظر الى الملابس إما بعينك المجردة أو بعينك المسلحة حتى تعود سرابية شفافة. قال أحكم الحكماء في هذا العصر (ينبغي على الفيلسوف أن يتعرف أوساط الأمور ويتخذ هنالك مكانه) كلمة ما أصوبها وحكمة ما أصدقها! الفيلسوف هو الذي اليه يتضع الرفيع ويرتفع الوضيع، هو الذي يكون لجميع الناس على السواء أخاً باراً وصديقاً وفيا

« أيليق بنا أن نقف من تعدى الفرائص مضطرب الجوانح بين يدي أنسجة

الملابس وأنسجة العناكب سواء أكانت من نسج معامل الأنوال الصاخبة، أو من نسج عناكب الأوهام الصامتة ؟ أم هل تظن أن في العالم شيئاً لا يستحق المحبة والاجلال، مع أن كل ما في الوجود من صنع البارىء المتعال ؟

« طوبى لمن يستطيع أن يستشف بثاقب نظره صنوف الملابس (ملابس القطن وملابس اللحم وملابس الأوراق المالية والمناصب الحكومية) حتى ينفذ ببصيرته الى نفس الانسان، وهنالك يتبين في الأمير الكبير والصعلوك الحقير آلة هاضمة واحدة غير ذات كفاية ولا مقدرة، كما يتبين في كليهما سراً الهياً ملغزاً، وطلسماً عجيباً معجزاً »

ثم يأخذ الاستاذ في الكلام على عاطفة العجب، ويفيض في وصف عظيم فضلها وحميد أثرها، قائلاً انها أحق ما يستشعره المقيم في مثل هذا الكوكب المملوء بالعجائب والمدهشات، وذلك حيث يقول «العجب أساس العبادة. وأن دولة العجب في الانسان لباقية دائمة، لا يزول حكمها، ولا يأفل نجمها، وان كانت تأتي عليها فترات قصيرة من الانحطاط والتضعضع، شأنها في عصرنا الراهن. ان الانسان الذي لا يستطيع استشعار عاطفة العجب، الانسان الذي ليس العجب (وبالتالي العبادة) من شأنه ودأبه، ليس في نظري — وان كان رئيس ما لا يحصى من المجامع والمحافل وصاحب ما لا يحصر من المصنفات والمؤلفات — الا مجرد نظارة ليس وراءها عين بصيرة. فلينظر من خلاله أصحاب البصائر، هنالك يصبح ذا فائدة ومنفعة. أجل ان الفكر وحده غير مقترن بعاطفة الخشوع والعجب جدير أن يكون عقيماً قاحلاً، بل ساماً قاتلاً. وكل علم تتمثله الرأس دون أن يتشربه القلب

علم لاخير فيه . أفتحسب أن من العلم الصحيح تلك المعلومات التى يستطيع أن يستوعبها دماغ كدماغ الطبيب فى ألف ليلة مفصول عن مجثمه موضوع فى إناء يحفظ فيه رمق الحياة دون أن يكون له بالقلب أدنى اتصال ؟ كلا ليست هـذه من العلم فى شيء وانما هى بعض الحرف الممتهنة التى يجدر بالرأس الشريفة أن تربأ عنها بنفسها وتترفع ! »

الفصل العاشر

نظرة الى الامام

لقد تبين الآن للقراء ما تنبأنا به وأخذت فلسفة الملابس تتكشف عن مفاوز شاسعة الانحاء ، محجبة السماء ، لا يدرى سالكها اتفضى به الى جنات زاهرة ومروج ناضرة ، أم لا يزال منها فى مهالك يلمع آلها ومهامه يخدع سرابها .

وكذلك لا يزال الاستاذ يخرج بنا من فدفد الى فدفد ، ويصعد بنا من حالق الى حالق ، ولا تزال نظراته وطمحاته تزداد نفوذاً وثقوباً ، واتساعاً وشمولا ، فمن ذلك رأيه فى الطبيعة وانها ليست ركاماً متراكماً ، بل نظاماً متلائما .

« لله درُّ صاحب المزامير اذ يتغنى ويقول (لو انى استعرت أجنحة الصباح وسكنت فى أقصى أنحاء المعمور لوجدت الله هناك) ، بل خبرني أيها القارىء المستنير المهذب الذى لا يعرف الله الا بالوراثة والتقليد : أتستطيع أن تدلنى على ناحية فى هذا الكون ليس للقوة فيها أثر ؟ ان قطرة الماء التى تنفضها عن يدك المبلولة لا تستقر حيث تقع ، بل انك لتجدها فى غدك قد ترحلت

عن مكانها وامتطت صهوة الشمال واقتربت من مدار السرطان . كيف تأتى لها أن تتبخر ، ولماذا لم تجمد فى موضعها ؟ أتحسب أن فى هـذا العالم شيئاً عديم الحركة ، عديم القوة ، جامداً ميتاً ؟ »

« بينما كنت راكباً جوادى أسير فى بعض السهول قلت لنفسى (تلك النار التى تتلألأ كالنجم الثاقب وتلوح لعينك خلال الغسق على مدى البصر — حيث يكب الحداد الأغبر على سندانه ، وحيث ترجو أن تركب حذاء لجوادك — أهى شرارة منفصلة منعزلة لا صلة لها بسائر العالم ، أم هى قطعة من الكون متصلة به اتصالاً موثقاً ، وملتحمة به التحاماً محكماً) أيها الجاهل الأحمق تلك النار التى تراها الآن مشتعلة وهاجة قد اقتبست أول ما اقتبست من جمرة الشمس ، ثم هى لا تنفك تتغذى بالهواء الذي يجرى تياره حول الأرض من قبل طوفان نوح ومن وراء الشعرى العبور . هنالك فى ذياك المكان قد اجتمعت قوة الحديد وقوة الفحم مع ما هو أعجب وأغرب أعني قوة الانسان ، فنشأ بين ذلك المجموع ارتباطات فمنازعات فانتصارات . ذلك المكان هو غدة أو مركز عصبي فى هيكل الكون ، أو سمه ان شئت منسكا مرفوعا على صدر الوجود الكلى ، قربانه الحديدى ودخانه الحديدى وتأثيره الحديدى : جميع ذلك ينفذ ويسرى فى كيان الوجود الكلى ، وما ذلك الحداد الاغبر الا كاهن يشرح سر القوة لا بالكلمة واللسان ، ولكن بالعصب والجنان ، بل هو يشرح فقرة صغيرة من انجيل الحرية — انجيل القوة الانسانية — الذى ان يكن له الآن بعض الأمر ، فسيكون له يوماً من الأيام كل الأمر .

« منفصل منقطع ! ليس في الوجود شيء ينطبق عليه هذا الوصف .

وما كان شيء من عناصر هذا الكون لينعزل عن سائره وينتبذ جانبا ، بل الأشياء كافة ، حتى الورقة المصفرة الجافة ، تتعاون وتتضافر، وتتفاعل وتتآزر ، يحملها من الحياة تيار زاخر ، عديم القرار عديم الساحل ، ولا تزال في أحوال متقلبة وأطوار متعاقبة . فالورقة الذابلة ليست بضائعة ولا ميتة ، لان قوى عديدة تؤثر فيها وفيما حولها ، وانما على أسلوب معكوس ونظام مقلوب ، والا كيف كان يتأتى أن تتعفن وتذوى ؟ ألا لا تحقرن الخرقة البالية التي يصنع الانسان منها الورق ، ولا الدمنة القذرة التي تصنع الارض منها القمح، فانك ان أمعنت النظر لم تجد فى العالم شيئا حقيراً ، بل ما من شيء الا وهو كنافذة تطلع من خلالها العين البصيرة الى أسرار الغيب وأعماق الأبدية»

نترك الآن هذا السهل بحداده وسندانه ، ومنسكه ومحرابه ، وننظر الى هذه السفن الهوائية المحلقة فى عنان الفضاء متسائلين الى أية غاية تجرى بنا ؟

« كل شيء منظور انما هو رمز ، وما تراه بعينك وتلمسه بيدك لم يوجد لذاته ومن أجل نفسه ، بل هو اذا دققت البحث غير موجود أصلا . ذلك بأن المادة لا تكون الا بفضل الروح ولا توجد الا لتصوير فكرة . ومن هنا صارت الملابس على احتقارنا اياها واستخفافنا بها ذات شأن رفيع . فانها من حلل الملوك الى اطمار الصعاليك رموز ودلائل ، تشير لا الى الحاجة خاصة بل ايضا الى فوز مبين على تلك الحاجة . ثم ترى من جهة اخرى أن جميع الأشياء الرمزية ان هى فى الحقيقة الا ملابس نسجتها الملكة المخيلة أو اليد العاملة. فاما المخيلة فعليها أن تنسج ثيابا منظورة — أو قل اذا شئت أجساما مرئية — ترتديها مبتكرات الفكر الخفية ، فتتجلى للاذهان، كما تتجلى الارواح

فى هيا كل الابدان . وأما اليد العاملة فتتقدم الى مساعدة المخيلة ، ثم بفضل المنسوجات وما شاكلها من الملموسات يظهران هـذه المبتكرات الخفية للعيان ، فضلا عن الاذهان .

« لقد صدقوا حين يقولون : فلان عليه ثوب الهيبة والوقار ، وفلان يغشاه رداء الحسن والجمال ، وفلان عليـه ثوب من مقت الله وغضبه ، الى ما شاكلها من الاقوال . بل تفكر فى الامر مليا ثم حدثنى : ما الانسان ذاته، بل ما حياته الدنيا باجمعها، ان لم يكن رمزاً واشارة، وان شئت فقل رداءاً منظوراً تسربلته النفس الآدمية الألهية الهابطة من أعالى السماء الى وهاد الارض كأنها ذرة من النور ،أولمحة من الأثير ؟ ومن هنا جاز القول بأن الجسم رداء الروح .

« يسمون اللغة رداء الفكر . والحق أن المعنى روح واللفظ جسم،أوثوب من اللحم يرتديه الفكر . لقد قلت أن الملكة المخيلة هى التى تنسج هذا الرداء، أوليس الامر كذلك فى الواقع ؟ أجل انها لتفعل ذلك وتتخذ مادتها من المجازات والاستعارات،فانك اذا استثنيت من اللغة بعض عناصرها الاوليه(وهي التى تحكى الاصوات الطبيعية) لوجدت سائرها استعارات ومجازات ، بعضها لايزال غضا زاهيا،وبعضها قد أصبح جافاذاويا. واذا كانت تلك العناصر الأولية بمثابة الهيكل العظمى فى جسم اللغة فالاستعارات والمجازات هى لحمه وعصبه،وجلده وعضله. ولن تستطيع مهما أطلت البحث ان تجد اسلوبا خاليا من الاستعارات سليبا من المجازات . وانما تتفاوت الأساليب فى أن بعضها هزيل نحيل قد جف عصبه حتى صار أشبه بنطمه،وبعضها مصفر مكفهر قتله الجوع وترآى على وجهه الموت ، وبعضها يشرق فى بشاشة العافية والصحة ويختال فى عنفوان

النماء والقوة . ثم هنالك من الاستعارات ماهو كاذب مزيف وحشو مبهرج يتراكم على جسم الفكر (وحقه أن يكون عاريا) كما تتراكم على البدن الأكسية الموشاة الكثاف، والزخارف المبهرجة الثقال »

عمرك الله أيها القارىء هل عثرت فى جميع مطالعاتك على عبارة هي أحفل بالتشبيهات وأحشد بالاستعارات من هذه النبذة التي يتكلم فيها الاستاذ عن التشبيه والاستعارة ؟ ولكن ما هـذه بظلامتنا الوحيدة ولا بشكايتنا الكبرى فهنالك ماهو أمر وأدهى : فلنرجع الى حديث الفيلسوف .

« أى حاجة بى الى الاكثار من الشواهد ؟ لقد جاء في التنزيل (سوف تبلى الارض والسماء ،كما يبلى الرداء) وكذلك هما بلا ريب : رداء من الزمن تتجلى فيه الأبدية . فكل شيء يوجد فى عالم الحس وكل شيء يظهر الروح للروح انما هو فى الحقيقة ثوب وملبس يرتدى لأجل معلوم ثم ينزع . وكذلك تري أن مبحث الملابس، اذا فهم على حقه ، مبحث خصيب يتضمن كل مافكر فيه الانسان وما حلم به ، وكل مافعله وما كانه ، فما العالم الظاهر وجميع مايحويه الأرداء ، وما لباب العلوم وجوهرها الا فى فلسفة الملابس »

الى هذه الآفاق المترامية الانحاء ، المغيمة الارجاء ، وجد الناشر نفسه متجها فى حذر وعناء . وقد كان يهون عليه الامر أنه مابرح يرى فى الوثائق المترقب ورودها من الهر هفرات كوكبا من كواكب الامل ، ولكن هذا الكوكب قد أخذ يتوارى ـ لا فى ضوء الصباح المسفر ، بل فى غبش قاتم أغبر ، ليس يدري أهو فجر النهار الضاحك ، أم مقدمة الظلام الحالك. والواقع أن تلك الوثائق التى طالما تشوقنا اليها قد وصلت الينا منذ اسبوع فسرعان

ما فضضنا غلافها ، وتصفحنا بنافد الصبر محتوياتها ، ولكنا وآسفاه لم نلبث ان القيناها بين أيدينا وقد خاب الظن واخفق الرجاء .

ولقد بعث الهرهفرات مع هذه الوثائق بخطاب مطول جعل يذكرنا فيه بما نعلمه علم اليقين فيقول أنه كيفما كان الامر بالنسبة للعلوم النظرية المجردة التي لا منشأ لها الا من الدماغ ، فالواقع بالنسبة لفلسفات الحياة التي تدعى فلسفة الملابس هذه انها منها والتي تصدر عن الخلق كما تصدر عن الرأس - الواقع بالنسبة اليها انها لن تنكشف عن جميع معانيها ولن تؤدى الى أقصى مراميها الا اذا تكشف الخلق الذى هو مصدرها ، « الا اذا تبين للقارىء رأى المؤلف فى هذه الحياة واتضح له باية كيفية، من سلبية وايجابية ،توصل الى تكوين هذا الرأى - أو بالاختصار الا اذا كتبت ترجمة المؤلف بطريقة فلسفية شعرية ، وقرئت كذلك بطريقة فلسفية شعرية » ثم يقول صاحبنا على سبيل الاستطراد « كلا بل لو أن الحقيقة العلمية المجردة ذاتها قد تجلت لناظريك لما اكتفيت بطالعتها ، بل لانشأت تسأل نفسك من أين جاءت ولماذا وكيف ؟ بحيث لا يستريح لك بال حتى يصوغ لك الوهم - ان لم يضع لك الواقع - جوابا يرضيك ، وحتى تجد بين يديك صورة كاملة لمنشأ الانسان ومساعيه ، ومجهوداته ومراميه ، سواء أكانت هذه الصورة قد نقشت بألوان الحقيقة الصادقة ، أم بالوان الخيال الملفقة ، ولكن مالى أسهب فى بيان ما لترجمة فيلسوف الملابس من فوائد وفضائل ؟ أو لم يقل حكيمنا الكبير جوتا « ماعنى الانسان حقا الا بالانسان » وهلماً الاحظ بنفسى أن كل مايجرى بيننا من الاحاديث انهو الاضرب من التراجم؟ حقاأن التراجم لهى من دون سائر الاشياء اجزلها فائدة وأعظمها امتاعا لاسيما تراجم الممتازين من الافراد »

ثم يستمر المر هفرات فى عبارة بليغة لعله قد سرقها من كلام الاستاذ أو لعل الامر كله خدعة من تمويه نيوفلسدروخ وذلك حيث يقول « ولا اخالك ياصاحبي الا قد توغلت الان فى غابة فلسفة الملابس وجعلت تلفت حواليك متعجبا مندهشا ، فكم هنالك من نبذ نادرات ، وفقرات رائعات، جديرة بأن تستثير في نفس كل قارىء تطلعا غريبا الى معرفة تلك الرأس التى أنجبتها ، الى اكتناه تلك الآلة العجيبة المنقطعة النظير التى فى مقدورها انتاج أمثال هذه الطرف البديعة والتحف المتعة ، أكان لتيوفلسدروخ كما لسائر الناس أب وام ، وهل مر كسائر الناس بدور الطفولة فكان يلف فى الاقمطة ، ويجرع الطعام بالملعقة ، هل ضم الى صدره بين خفقات الطرب وعبراته صدر صديق ، وهل ينظر نظرة المتعظ المتأمل في دهاليز مقابر الماضى حيث لا يجيب النداء الا انين الريح ورجع الصدى ، بل ليت شعرى كيف حاله فى مواقف الغرام ، وجملة القول من أى سراديب ومعارج ، ومن أى انفاق وثنيات ، قد اطلع الى هذه القمة القدسية العجيبة حيث هو الآن مقيم؟

« تلقاء هذه الاسئلة كلها لا يزال التاريخ صامتا لايحير جوابا ، فكل مايعلم عن صاحبنا علم اليقين أنه رحالة آت من سفر بعيد قد نال منه الأين ، وبات يشكو الوجى ، وانه قد سطا عليه كثير من اللصوص وفارقه فى الطريق الكثير من الرفاق، ولكنه تمكن فى كل مرحلة من دفع ضريبة الجواز (والا لما تركوه يجتازها) ولكن اين كل ما يتعلق بخط سيره من التفاصيل ؟ وماذا عساه أخذ فى رحلته من الارصاد الجوية والمناظر الطبيعية؟ أكل ذلك لاسبيل الي معرفته ؟ أكل ذلك قد فقد بحيث لا أمل فى العثور عليه ؟ أههنا صحيفة اخرى من ذلك السفر الضخم (سفر الذاكرة الانسانية) تركت لكي تطير

فى مهب الرياح من غير أن تطبع وتنشر وتجلد وتحفظ ؟

« كلا ياصاحبي ابى الله أن يكون ذلك ، فها أنا أبعث اليك ـ بفضل ما لك عند الفيلسوف من مكانة ـ ترجمة حياته مكتوبة بقلمه ، أوعلى الاقل المادة اللازمة لانشاء هذه الترجمة، وكذلك ستنكشف فلسفة الملابس وفيلسوفها لأعين الجمهور المتعجب فى بلاد الانجليز ومن ثم تنتقل الى امريكا فالهند فاليابان ، حتى تنتشر على الجانب الاعظم من هذا الكوكب السيار ! »

وليتصور القارىء بعد ذلك شعورنا وقد وجدنا ، مكان هذه الترجمة التى ستميط اللثام عن فلسفة الملابس وفيلسوفها ، ستة أضابير ضخمة عنى بلفها وحزمها وختمها ، وفى داخل كل منها كمية هائلة من الصحائف والقصاصات مكتوبة بخط الاستاذ ، وهو لا يكاد يقرأ ، وقد تعرض فيها لكل موضوع فى الارض والسماء الا ترجمته الشخصية ، فانه لم يتناولها الا لماماً فى عبارة هى منتهى الغموض وغاية الالغاز .

ففى حزم بحذافيرها من هذه الأوراق لا يكاد الاستاذ يشير الى نفسه أدنى إشارة . ثم تراه فى مواضع أخرى بيناه يحدثك عما وراء الطبيعة أو عن آرائه فى الآلات البخارية أو عن إمكان اتصال حبل النبوة يلقى اليك عرضاً نبأ حادثة من حوادث حياته الخصوصية لا تعلم حظها من الأهمية . وفى بعض الصحائف يقص علينا أحلاماً يعلم الله حقيقة هي أو مخترعة ، بينما وقائع يقظته وتصرفات انتباهه قد أغفلت اغفالا . وفي بعض القصاصات السائبة تقرأ حكايات صغيرة ولكنها فى أكثر الأحيان خلو من كل إشارة الى زمانها أو مكانها . أما تنقلاته ورحلاته فلا دليل عليها الا ما يصادفك فى كل حين من اعلانات الشوارع التى زار الاستاذ مدنها فى مختلف أسفاره .

ولعل هذه الأضابير قد حوت من هــذه الاعلانات المكتوبة بكل لسان مجموعة ليس لها فى الدنيا نظير . هذا وقد تعثر الفينة بعد الفينة على بيانات مطولة عن شيء من تفاصيل حياته ، ولـكن فى غير ترتيب ولا تنسيق ، وفى تدقيق لاموجب له واسهاب لا فائدة منه . وهكذا تجـد جدب المعلومات يتناوب مع الأسراف فيها ، وأمحال الأخبار يتداول مع الافراط منها ، كأنما هذا الفيلسوف لم يسمع فى حياته عن شيء اسمه النظام أو حسن الاختيار ، اذ كل ما فى الوثائق فوضى فوق فوضي .

واذ كان فى نيتنا أن نودع هذه الأضابير الستة المتحف البريطانى فانا نوفر على نفسينا كل أطناب فى وصفها ، وحسبنا الآن القول بأنه لا أمل البتة فى أن نستخرج منها ترجمة لحياة الاستاذ بالمعنى المفهوم من الترجمة ، بل كل ما نطمع فيه أن تنشأ بين الناشر والقارىء بجهوداتهما المشتركة من كد الذهن وإجهاد الخيال صورة قريبة الشبه لهذا الفيلسوف الغريب .

وكذلك شرع الناشر يواصل ليله بنهاره فى استجلاء غوامض هذه الوثائق المدهشــة ومقابلتها بمحتويات الـكتاب الذى لا يقل عنها إدهاشاً ، محاولاً بكل جهده أن يبني للقراء فوق هذا السديم المضطرب الموّار، المتلاطم الفوّار ، جسراً متينا . وأكبر ظني أنه منذ قام أول اثنين من بناة الجسور — الموت والخطيئة — ببناء ذلك العقد الهائل الممتد من باب الجحيم الى حافة الأرض لم يأخذ أحد قط على عاتقه مثل العمل الذى يحاوله الناشر . والحق أن العملين من حيث الصعوبة يتشابهان ، وان كانا — فيما نرجو — من حيث الغاية يتباينان . فاننا نحن أيضا مضطرون الى التقاط مواد البناء ، من أعماق الهاوية ومن أجواز الفضاء ، آخذين من هنا كتلة ومن هنا كتلة ،

محاولين بكل ما لدينا من مهارة أن نلصق القطعة بالقطعة ، بينما العناصر تغلى تحتنا وتفور، وتصطفق وتغور. ذلك الى أننا لم نؤت قوة خارقة للطبيعة تؤدى بها هذا العمل ، بل كل عدتنا تنحصر فيما رزقه ناشر انجليزى ضعيف من قوة اجتهاد وملكة تفكير ، يحاول بهما أن يخلق « دنيا » مطبوعة من « سديم » مطبوع ومخطوط . وانها لمحاولة — علم الله — توشك أن تفتك بملكاته ، بل تكاد تودى بحياته .

ولقد أخذ الناشر — تحت تأثير هذه الجهود المتواصلة العنيفة — ينظر صابراً متجملاً الى بنيته القوية تهزل وتنحف ، والى حظه من النوم ينتقص ويتحيف ، والى جهازه العصبي يضطرب ويضعف . وأي بأس فى ذلك ؟ ما فائدة الصحة ، بل ما فائدة الحياة ، ان لم تستهلك فى تأدية عمل من الأعمال ؟ وأى عمل هو أفضل وأنبل من غرس الافكار الأجنبية ، في التربة القاحلة الأهلية ، اذا استثنينا طبعا غرس بنات أفكارك وتلك موهبة لم يؤتها الا الأقلون ؟ ان فلسفة الملابس هذه تبشر ، اذا استطعنا أن نصل الى صميم معناها ، بأن تفتتح فى تاريخ الانسانية عهوداً جديدة — بأن تسفر عن تباشير عهد أمجد وأعلى ، وأشرف وأسنى . فهلا تستحق هذه الغاية أن نتسابق اليها ونتهافت عليها ؟ فالى الأمام معنا أيها القارىء الشجاع ، لتكن العاقبة ما كانت : فشلا واخفاقا أم فوزاً ونجاحا ! فان تكن الأخرى فان لك لنصيبك منها ، وان تكن الأولى فا الذنب كله علينا .

———

الكتاب الثانى

الفصل الاول

المنشأ

غير محقق ان كان كشف الستار عن غوامض مولد الانسان ومنسبه يفيد كثيرا في تعرف حقيقته . بيد انه لما كان مبدأ كل شىء فى الكون لايزال يعد أخطر لحظة فى حياته كان الناس عند النظر في ترجمة البطل من الابطال لايستريحون أو يزاح لهم النقاب عن جميع الظروف المحيطة والتفاصيل المتعلقة بقدمه الى هذا الكوكب السيار . سواء أكان لهم فى ذلك فائدة علمية أم لم يكن . لذلك قد أفردنا هذا الفصل الاول للبحث فى منشأ فيلسوف الملابس ، ولكن يظهر لسوء الحظ أن صاحبنا غامض الأصل ، ان لم يكن مجهول النسب ، فهو لايعرف له مولد ولا منسب ، وكل مايعرف عنه انتقال من عالم الغيب الى عالم الشهادة ، وذلك حيث يقول :—

« فى قرية انتيفهل كان يقيم اندريا فترال وزوجته فى عزلة وسكون واغتباط وان كانا قد أشرفا على الشيخوخة ولم يرزقهما الله بمولود. وكان اندريا ضابطا ومعلما عسكريا فى عهد فردريك الأكبر . بيد أنه قد استماض المحراث والمجرفة من الرمح والعصا ، واعتكف فى تلك القرية يزرع حديقة صغيرة

يعيش على ريعها شأن « سنسيناتس[1] » فى عزة وقناعة . وكان يقضى العشيات بالتدخين أو المطالعة . ويقص على جيرانه أنباء الماضي من وقائعه الحربية وحوادث حياته العسكرية .

أما زوجته جرتشن، وكان قد ملك فؤادها كما ملك عطيل فؤاد ديدمونا بمجد أفعاله لا بسحر ألحاظه ، فكانت تحبه حباً جماً وترى فيه المثل الأعلى للشجاعة والحكمة ، كأنه في نظرها «سيسرو» خطيب الرومان و « سيد » فارس الأسبان ، ولا غرو فان الذى تراه ولا يستطيع نظرك أن يتعداه هو بالنسبة اليك بمنزلة أقصى غايات الكمال، وأبعد مطامح الآمال. وبعد أو لم يكن أندريا فى الواقع رجل نظام وشجاعة وجد واستقامة جديراً بالمحبة والاجلال ؟ وهكذا كانت جرتشن تتعاهده وترعاه ، وتحنو عليه وتتحفى به ، شأن الزوجة الصادقة الصالحة ، لا تفتر لحظة عن القيام بشئون بيته من طهي وتنظيف وخياطة ، فلم تكن عنايتها مقصورة على الاحتفاظ بسيفه القديم وخوذته العتيقة، بل كان البيت كله وجميع ما يكتنفه يروق العين بحسن روائه وبشاشته ، ويشرح الصدر بجمال ترتيبه ونظافته . وكان كوخاً فسيح الغرف مزدان الجدران ، تظلله أشجار الغاب والفاكهة ، وتحتضنه أغصان المتسلقات ذوات الخضرة الدائمة ، وكلها صاعدة ، فى اختلاف ألوانها والتفاف أفنانها ،من حياض الكلأ المقصوص والعشب المسوّى، قد تكاثر زهرها حتى راح يطل فى جوف الكوخ من خلال نوافذه . ثم ترى تحت رفارف السقف أدوات الفلاحة مكومة على أجمل نظام لوقايتها من المطر ،

---

(١) قائد من عظماء قواد الرومان وزعيم من كبار زعمائهم اعتزل الحياة العسكرية والسياسية فى أخريات أيامه واعتكف فى مزرعة صغيرة له

وعدة مقاعد نظيفة لو رآها ملك متوّج لتمنى أن تكون له ولاشتهى أن يضطجع عليها ذات ليلة من ليالى الصيف ، مبرأ من أكدار الهموم ، منغمساً فى صفاء النعيم .

« فى ذات عشية ساجية الأصيل ناعمة النسيم ، وقد توارت الشمس عن أهل القرية ، وان كانت لا تزال تسبح مشرقة باهرة فى أبراجها العلوية ، دخل ذلك العش الآدمى الظليل انسان غريب الهيئة ذو وقار وهيبة . فسلم على ساكنيه ووقف حيالهما وقد عرتهما دهشة ، وكان ملتفعاً بعباءة سابغة فنشر طياتها وهو لا ينبس ببنت شفة ، وأخرج منها سلة تغشاها رقعة خضراء من الديباج الفارسى ، ثم قال (يا أهل الخير والتقوى انى أضع بين أيديكما وديعة لا تقوّم بثمن فابذلا فى صيانتها والانتفاع بها كل عناية ورعاية واعلما أنه سيكون يوم تطالبان فيه بردها فتثابان على ما أسلفتما أحسن الثواب ، أو تعاقبان أشد العقاب) ، قال ذلك بصوت جلى جهورى لا ينساه السامع آخر الدهر ، ثم انسل فى خفة وخفوت . وما كاد أندريا وزوجته يفيقان من الحيرة ، ويمسحان عن عيونهما نظرة الدهشة ، ويجدان من الوقت متسعاً للسؤال أو الجواب حتى كان الغريب قد اختفى عن النظر ، فى أسرع من لمح البصر ، فنظرا فى خارج الدار علهما يقفان منه على خبر ، فوجدا السكون سائداً وباب الحديقة مغلقاً . ولم يكن فى كل ما يحيط بالبقعة شىء ينم عنه أو أثر يدل عليه وقضى الأمر فى ثوان معدودات وفى غبس الشفق وسكون المساء فى غير عنف وجلبة ، بل بكل رفق وتؤدة ، حتى خيل صاحب الدار وزوجته أن الأمر كله خدعة من خدع الوهم ، أو زورة من غفـ ، لولا أن السلة ذات الرقعة الخضراء كانت لا تزال قائمة على المائدة

تنظر بالعين وتلمس باليد ، وما عهد قط أن وهما أو طيفاً حمل مثل ذلك الحمل. فبادر الزوجان الى فحص السلة ومعهما شمعة موقدة ، فرفعا الغطاء الأخضر لينظرا ما حوت من كنز نفيس ، فلم ترعهما درة يتيمة ولا ماسة فخمة ، بل طفل غض الأهاب أحمر اللون نائم بين لفائف ناصعة من الزغب الناعم والخز الوثير ، والى جانبه صرة من الدنانير لم يشهر للملاعدة ما فيها . ووجدا أيضاً شهادة التعميد ولكنها مطموسة كلها غير الاسم ، ولم يكن مع المولود شيء غير ذلك من الوثائق أو الدلائل .

« وما كان التعجب والتخمين ليجديان ، في ذلك الأوان أو بعد ذلك الأوان . فقد انقضى الغد وتاليه ولم يسمع عن الغريب أدنى خبر ، لا في القرية ولا فيما جاورها . وفى أثناء ذلك كانت المسئلة الكبرى التي تواجه أندريا وزوجته (ماذا يصنعان بهذا الطفل النائم المحمر اللون ؟) فقر رأيهما بين الدهشة والتعجب على التكفل به وإرضاعه حتى يبيض لونه ، بل حتى يكبر ويشتد أزره اذا استطاعا الى ذلك سبيلا . وقد أمدهما الله فيما حاولا بعونه وتأييده . وهكذا أتيح لذلك المجهول الأصل أن يأخذ من هذا العالم مكانه، وهاهو الآن بعد أن امتد جسمه طولا وعرضاً، واتسع علمه بالأشياء خيراً وشراً، قد أصبح معروفاً بين الناس باسم الهر دياجو نيس تيوفلسدروخ أستاذ « علم الأشياء كافة » فى الجامعة الجديدة بمدينة وسنتشتو »

وهنا يصرح الفيلسوف بأن أول علمه بهذا السر كان عن لسان الصالحة جرتشن فترال فى الثانية عشرة من عمره ، ذلك حيث يقول :—

«وقد غادر هذا النبأ فى قلبي الصغير أثراً لا يمحوه كر الأيام ومر الليالى، وجعلت أسائل نفسى : تري من كان ذلك السيد المهيب ، الذى أنسل الى

الـكوخ والشمس جانحة للغروب ، ثم اغلس منه املاس الخيال فى الفضاء؟
وقد تملـكني منذ ذلك الحين شوق لا يوصف وحنين ممزوج بالحزن والوله
الى معرفة الحقيقة. وما زلت كلما تأوبتني الهموم والاشجان، وأوحشتني العزلة
والقطيعة ، اتجه بمخيلتي تلقاء ذلك الوالد المجهول الذى ربما كان قريبا مني ،
وربما كان بعيداً عني ، وهو فى الحالتين غير منظور ، فأتلهف على لقائه كيما
يضمني الى صدره الحنون ويحميني هنالك من لواعج الآلام ...: أيها الوالد
المحبوب أفلا تزال تروح وتغدو بين زحام الاحياء لا يفصلك عني الا ستار
شفاف رقيق من الفضاء المكانى ، أم تراك قد أسدلت بينى وبينك تلك
الاستار الصفيقة — أستار الليل السرمدي ، أو لعلها أستار النهار الابدى ،
التى عبثا ما أحاول ان استشفها بنظرى أو أتقذفيها ذراعى؟ ويلاه! ويلاه!
لست أدرى وعبثا ما أحاول أن أدرى! لطالما حدثني فؤادى المخدوع انك
هذا الغريب النبيل أو ذاك ، حتى اذا دنوت منه أمعن فيه النظر واتفرس
منه عاطفة الحنو نأى عنى بجانبه ، فاعلم انك لست به »

وهنا تأخذ الفيلسوف بعض نوباته الفجائية فيصيح قائلا « ومع كل
هذا خبرنى أيها الانسان المعروف الأبوين : بماذا انفردت حالتى عن حالات
سائر الناس ؟ أتحسب انك تعرف أباك أكثر مما أعرف أباى ؟ ان آدمك
وحواك اللذين جاءا بك الى هذه الحياة حيث لبثا حينا من الدهر يرضعانك
ويربيانك واللذين تدعوهما أبويك ان هما بالنسبة لك الا كاندرياوجرتشن
بالنسبة لى : مجرد مرضعين ومربيين ، اما أصلك الحقيقى وأولك ففى السماء
لا يرى بعين الجسم بل بعين الروح »

ثم يستأنف الاستاذ قصته : « ولا أزال محتفظاً بالقناع الاخضر وأشد

من ذلك احتفاظى بالاسم: دياجو نيس تبو فلسدروخ . فاما القناع فلا سبيل الى استنتاج شىء منـه ، وما هو الا قطعة بالية من الحرير كالألوف من أمثالها . وأما الاسم فكثيرا ما أجلت فيه الروية ، ولكني لم أقف منه على دلالة اهتدى بها الى الحقيقة المنشودة .

« وكأنى بك تعجب من قولى هذا أيها القارىء ولكن مهلا ! انى مازلت أنظر الى الاسماء نظرة اكبار واجلال ، فان فيها من عميق المعانى مالا يخطر لك ببال، وما الاسم الا أول رداء ترتديه النفس ساعة قدومها الى هذه الحياة ، ثم لا تزال متشبثة به حتى يكون لها أبقى من أهابها وأدوم ، فانا لنعرف من الأسماء ماعمر نيفا وثلاثين قرنا. الأسماء وما أدراك ما الأسماء ! أما لو استطعت أن أريك خفى تأثيرها وبعيد نفوذها لأريتك العجب العجاب ! ليس مجرد الكلام المعتاد بل العلم كله ، والشعر ذاته ، كلاهما لا يعدو كونه تسمية صائبة . لقد كان أول مافعل آدم فى هذه الحياة أن تعلم الأسماء : أسماء الظواهر الطبيعية ، فعمرك الله ماذا نحن فاعلون حتى اليوم الا مواصلة ما بدأه ، سواء أكانت تلك الظواهر زراعية أو عضوية أو آلية أو فلكية (وذلك هو العلم) أم كانت وجدانات وشهوات أو فضائل ومكرمات أو كوارث وآفات (وذلك هو الشعر) ؟

« فى اثناء ذلك كان الرضيع ، وهو فى باكورة عهده بالحياة وفى جهله بكل ما أحاط به منها ، قد أخذ يفتح عينيه لكريم النور وشرع يمد جوارحه ، ويتلمس بأطرافه ، ويتسمع ويتذوق، ويحس ويشعر ، وجملة القول أنه جعل يستعين بحواسه الخمس أو إذا شئت فزد عليها حاسة الجوع وقل بحواسه الست ، مع مالا يحصى من الحواس الروحانية الباطنة ، تلك التى قد اخذت تتنبه فى

نفسه ، محاولا بكل ذلك أن يعلم شيئاً عن هذا العالم الغريب الذى نزل به ، كائناً ما كان واجبه فيه . ولشد ما كانت سرعة تقدمه ، فقد استطاع فى بضعةعشر شهراً أن يؤدي تلك المعجزة العجيبة: معجزة الكلام . عجباًوا الله أليست تربية الروح الغضة أشـــبه شيء بتربية بيضة (سماوية) غضة ، كل ما فيها لايزال عديم الصورة عديم القوة ، ولـكنها لاتلبث حتى تنبت بالتدريج فى زلالها المائى عناصر عضوية وألياف حيوية ، ثم تري غامض الاحساس يتمخض عن الفكر فالخيال فالقوة ، ومن ثم تنشأ المبادىء الفلسفية والأسر الملوكية بل القصائد الشعرية والمذاهب الدينية !

« الى هذه الغايات القصوي جعل دياجو نيز الصغير يتقدم بخطوات لينة حثيثة. وقد أراد آل فترال، ان يتقيا القيل و القال، فاشاعا فى القرية ان الرضيع يمت اليهما ببعض صلات القرابة ماتت عنه أمه فارسله اليهما أهله ، إذ كانا هما أحق الناس بـكفالته . وجعل الرضيع يتغذى ويترعرع ، غير مكترث لشيء من ذلك . ولقد سمعت بعض أهل القرية يقول أن الطفل كان هادئاً وديعاً قليل الكلام قليل الحركة ، وأنه لم ير البتة يصيح او يبكى. لا غرو فانه قد بدأ يشعر بأن الوقت ثمين، وبأن لديه من المهام مالا يسمح له بالعويل او الأنين! »

الفصل الثانى

عهد الطفولة

« ألا سقاك الغيث ياعهد الطفولة ورعاك الله يازمن الصبا ! وأنت أيتها الطبيعة الرحيمة هل كنت الا أمًّا رؤوماً لجميع هذا الخلق، تزورين كوخ الفقير بساطع ضيائك ، وبارع لألائك، وتلفين رضيعك الضعيف بلفافة لينة من وثير الحب وسابغ الامل ، فلا يزال فى اثنائها ينمو وينام ، ترقص حوله مفرحات

الاحلام ؟ ولئن حجبتنا إذ ذاك دار الأبوين بين جدرانها ، فان لنا فيها لمعقلا ومأوى ، ولنا من الوالد بنى وامام ، ومؤدب وسلطان ، نلقي اليه من الطاعة مايهدى الينا نعمة الحرية ، وتؤدى اليه من الخشوع ما يقينا ذل العبودية . يومئذ تكون الروح الصغيرة حديثة العهد بالتيقظ من الابدية ، فهى لاتعرف معني الوقت ، ولاتدرى أنه ذلك النهر الجموح ، ذو التيار الطموح ، بل تراه بحراً فسيح الأرجاء ، يلعب الموج على متنه ، ويتكسر الشعاع على ثبجه . فتمر السنين على الطفل كأنها احقاب ، ذلك بان تصرف الدهر لايزال سراً مكتوما ، وعوامل البلى ومعاول الفناء — تلك التى لا تنفك تقدح على عجل أو مهل فى هيكل الكون من صخره وصوانه الى حيوانه وانسانه الى هوامه وديدانه — لايزال أمرها مخفياً ، وأثرها مطويا . هنالك نذوق من حلاوة الراحة فى ذلك السكون القرير ، والعيش الغرير ، مايحرم علينا بعدها مذاقه متى انكشف لنا العالم عن جلية أمره ، فعلمنا أنه تلك الرحي العنيفة الحركة المستمرة الدوران . ألافنم هنيئا أيها الطفل الجميل ، فما قليل يؤذن مؤذن الرحيل ، ويسار بك فى رحلة شاقة وسفر طويل ! أجل ان هى إلا لحظة حتى تحرم لذة هادىء النوم ، وحتى تنقلب احلامك المفرحة خيالات مزعجة لما تعانيه فى يقظتك من مر الكفاح وعنيف الجهاد . نعم سوف تقول كما قال الاول فى صبر وجلد : (أي حاجة بى اليوم الى الراحة ، والأبدية كلها أمامى وفيها من الراحة مايكفيني ؟) أيها السلوان المريح ! هذا بيروس قد فتح الممالك ودوّخ الاقطار ، وهذا الاسكندر قد ملك الارض ودانت له الامصار ، ومع ذلك فقد اعجزتهما منالا ، ولم يستطيعا لك مراما ، ثم نراك تأتى من تلقاء نفسك وبمحض هواك فتقع على اجفان الطفل نوما

نديا ، وتنزل فى فؤاده رَوْحاً هنيا ، ذلك بأن النوم واليقظة عنده سيان ، وجنة الحياة الضاحكة تمتد حوله الى غير نهاية في حفيف أوراقها الناعمات ، وتمايل اغصانها المائسات ، تمبق بذكى الأرج أنفاسها الطلة ، وتتفطر عن براعم الأمل أفنانها الخضلة ، تلك البراعم التى إن تفتحت فى عهد الشبيبة عن نوارها النضر فلن تؤتى فى عهد الكهولة قطوفا جنية يانعة ، بل ثمرة صلبة شائكة ذات قشرة صفيقة الغلاف مره المذاق لا يهتدي إلا الأقلون الى لبابها وشحمتها ! »

من خلال هذه الانوار البهية والاضواء المتلألئة ينظر الاستاذ الى عهد طفولته شأن الشعراء . ثم تراه يفيض فى تفاصيل ذلك العهد بتدقيق واسهاب يكاد يبلغ حد الاملال ، يتخلل كل هذا قطع خطابية ونبذ شعرية ، ثم وصف مغانى صباه ومعاهد لهوه . فمن ذلك وصفه للدوحة التى كان يختلف اليها أهل القرية كل عشية فيجلس الشيوخ فى ظلها يتحدثون ، ويضطجع الى جانبها العمال المتعبون ، ويظل الاطفال النشيطون يمرحون حولها ويلعبون ، ويروح الفتيان والفتيات على ايقاع الموسيقي يرقصون ويتغازلون ، وذلك حيث يقول « فيالها من أصائل ناعمات ، إذ يعم السكون وتخفت الاصوات ، والشمس قد ولتنا ظهرها وجنحت للمغيب ، كأنها ملك أصيد مهيب ، على اعطافه أرجوان الملك مزخرفاً بفاخر العقيان ، وحوله موكب حرسه مؤلفاً من بديع الالوان . وقد أمكنت الفرصة عمال هذه الارض من اختلاس لحظة يستريحون فيها قليلا ، بعد كد النهار وتعبه ، ويلهون يسيرا ، غب عناء اليوم ونصبه ، على ثقة بأن تلك النجوم الوديعة الرفيقة لن تشي بهم ولن تنم عليهم »

ثم يقول الاستاذ على ذكر ملاعب صباه « وأنت إذا تأملت فى العاب الاطفال ، حتى ما كان منها كله اتلاف ، لرأيتها جميعا تنم عن غريزة انشائية ، مما يدل على أن الطفل يشعر بأن وظيفته في الحياة هى العمل والانشاء . وأحب الهدايا اليه آلة او أداة من أى نوع كانت، للهدم اوالبناء ، للتعمير او التخريب ، فانها على كلا الحالين صالحة للعمل والتغيير . ثم تراه باشتراكه مع اترابه فى اللهو يمرن نفسه على التعاون والتضامن ، السلم والحرب، الطاعة والامر .

« ولقد كان من أوقع المناظر فى نفسى أن أشاهد الراعى فى الصباح الباكر ينفخ فى بوقه ، فتتوارد اليه من كل حدب وصوب تلك الاغنام الجائعة السعيدة ، تتعادى وتتراكض يحثها أمل الفطور ، بالمرعى النضير . ثم تراها وقد آبت فى الرواح كأنها تسير على نظام عسكرى ، ينفصل كل منها عن رفاقه ، متجها يمينا أو شمالا الى زقاقه ، لايخطىء مرماه ، ولا يشتبه فى مأواه ، حتى اذا وصل الراعى الى نهاية القرية ولم يبق معه من القطيع بهيمة نفخ فى البوق آخر نفخة وعاد الى بيته . لقد اعتدنا معشر البشر أن نحب الغنم فى صورة الشواء والقتير ، والمحمر والقديد ، ولكن أليس فيما تظهره هذه العجماوات المرحة من الفطنة والذكاء والميل الى الدعابة والمزاح وحسن الطاعة والثقة بالانسان ما هو جدير باستثارة العطف والمحبة ؟ »

يذهب فريق من الفلاسفة الى أن الناس جميعاً يولدون متكافئى المواهب لافرق البتة بين ذكيهم وغبيهم ، ورشيدهم وغويهم ، وإنما هى ظروف عجيبة ومؤثرات مدهشة تصادف ذلك فتفتح ما فيه من قوي ومواهب وتخطىء هذا فيظل مغلقاً مطويا ، ويعيش دهره مغفلا غبيا . ذلك — على زعمهم — هو

السر فيما تراه من البيون الشاسع بين العبقرى النابغ والأبله المائق ، احدهما قد لقيت نفسه من كريم الظروف ما نماها ورقاها حتى زكت وترعرعت ، والآخر قد انسحقت نفسه بتأثير قواه الحيوانية وضغط آلته الهضمية ، فهى إما قد تبخرت واملست ، وإما قد غاضت إلى قرار ممدته فاستقرت هنالك فى غمرة لاتفيق منها . هذا مذهب القوم . أما صاحبنا الاستاذ فيري غير ذلك حيث يقول « لأسهل عليّ من الاخذ بهذا الرأي أن اوافق القائلين بأن بذرة الكرنبة اذا لقيت تربة كريمة ومناخاً صالحاً قد تصير سنديانة رائعة ، وان بذرة السنديانة اذا منيت بظروف سيئة من مناخ فاسد وتربة سبخة قد لاتنبت الاكرنبة مشوّهة.

« بيدأنى لست انكر ما للتربية والتهذيب في باكورة الحياة من بليغ الاثر ، فأنه على صلاح التربية اوفسادها يتوقف مصير بذرة الكرنبة كرنبة ممتلئة وريقة ناضرة أو كرنبة جوفاء صفراء ذابلة ، ومصير بذرة السنديانة سنديانة باسقة ظليلة لفاء ، أو سنديانة قصيرة نحيفة عجفاء . لهذا كان خليقاً بكل انسان ولاسيما معشر الفلاسفة والحكماء ان يدوّنوا بالدقة كل ما احاط بتربيتهم من الظروف الخاصة ، ملائمة أو معاكسة ، منشطة أو مثبطة . وقياما بهذا الواجب اذكر الامور الآتية من جملة ما كان له فى نفسي وقع واثر :

« كما أن الملاهى الصبيانية تبعث فى الطفل الذكاء والنشاط كذلك كانت القصص والاحاديث التى طالما سمعتها من الاب اندريا تستثير فى نفسى ملكة الخيال وحب التاريخ. ولشد ما كان شغفى بتلك الروايات والاحاديث إذ كان جيراننا يلتفون حول الموقد كل عشية . وينصتون الى الراوى بآذان صاغية وقلوب واعية وأنا بينهم مقبل عليه ، متوجه بكل جوارحى اليه ، يخيل اليّ انه

بطل من أبطال الاساطير وأن ملاقاه في اسفاره من حوادث ومخاطر كان في عالم وهمي بعيد. وكلما أمعن في قصصه تفتح في نفسي ملكوت الخيال وانفسحت بين جنبي أقطار الوهم. كذلك ما كان أكثر ما تملمت واستفدت بوقوفي الى جانب شيوخ القرية تحت ظل الدوحة. لقد كان عالم اللانهاية لا يزال كله جديداً في نظري، وهؤلاء الشيوخ المبجلون الثرثارون أولم يقضوا ثمانين حولا يذرعون جانبا من فضائه، ويمسحون طرفا من فنائه؟ ولشد ما كانت دهشتي إذ جعلت اتبين أن قرية انتبفهل قائمة وسط قطر بعيد الارجاء وفي وسط دنيا شاسعة الانحاء، وأن هناك شيئاً يسمى التاريخ، وأني أنا أيضاً لابد أن اؤدي يوما من الايام نصيبي منه باللسان وباليد.

« على هذا النحو أيضا كان تأثير عربة البريد في نفسي. اذ كنت أشاهدها تتخلل القرية ذهابا وأيابا تنوء بما عليها من جبال الامتعة والرجال. وما خطر ببالي حتى بلغت سن الثامنة أن هذه العربة كانت شيئاً يختلف في جوهره عن قمر ارضي يشرق ثم يغرب بمجرد فعل النواميس الطبعية شأن القمر السماوي. فما كان يمر بوهمي انها تسير على طرق مصنوعة، متنقله من مدن بعيدة الى مدن بعيدة، كأنها وشيعة الحائك تحكم ما بينها من صلات المعاملة وروابط المبادلة. عند ذلك خطر بفكري ذلك الخاطر العميق وهو أن أي طريق — وليكن طريق هذه القرية المتواضعة — يفضي بك الى آخر الدنيا!

« ثم اذكر اسراب الخطاطيف، تلك التي كانت تتوافد كل ربيع من اقاصي أفريقيا كما اخبرت، جائبة في طريقها الاغوار والانجاد، والسهول والاطواد، والقفار والبحار، والمدائن والامصار، حتى تنتهي الى كوخنا فتبني

هنالك أوكارها حيث تقيم آمنة مطمئنة، تطير وترفرف وتنقر وتغرد وتتناسل وتفرخ. من ذا الذى علمك فن البناء ايتها الطيور المرحة الرشيقة؟ بل من ذا الذي علمك سر التضامن فى ماهو أشبه بجمعية ماسونية بل هيئة اجتماعية؟ ألم اشاهدك مراراً كلما تهدم وكر لاحد افرادك وأعجله الوقت عن الانفراد ببنائه تسارعين فى صبيحة الغد الى معاونته، فلا تزالين فى جيئة وذهاب، وحركة واضطراب، وغدو ورواح، وقرقرة وصياح، حتى لايمسى المساء إلا وقد تم بناء وكره

« وهكذا لبث الطفل يتعجب ويتعلم وسط هذا الكون الحافل بالأسرار، تقله الأرض الطائحة فى وسيع الفضاء، وتظله القبة العميقة الزرقاء، وتقوم فى خدمته الفصول الأربعة النهية، تتقدم اليه على التوالي بمختلف هداياها ومطايبها، ومتنوع ملاهيها وملاعبها. وما كانت هذه المظاهر والظواهر الا حروف الهجاء التى كان يجب على الطفل أن يتعلمها حتى يستطيع قراءة ما يتيسر له من ذلك السفر الجليل — سفر الحياة. فسواء عليه أكانت هذه الحروف مكتوبة بالخط الكبير المذهب، أم بالخط الصغير غير المذهب، مادام قد أوتى عيناً بصيرة تستطيع قراءتها. على أن دياجونيز الصغير كان لفرط شغفه بالتعلم يجد فى مجرد النظر اليها من النعيم واللذة مايقوم مقام التذهيب والترصيع. لقد كانت حياته كلها عنصراً مشرقاً ليناً من الفرح والغبطة، وكانت عجائب الكون تبرزله الواحدة تلو الأخرى وتعلمه الحكمة فى معرض الفتنة.

« على أنى أكون هاذياً مبطلا اذا ادعيت أن سعادتي حتى فى ذلك الأوان، كانت سليمة من النقصان. فالواقع أنى قد غادرت السماء، وهبطت

الى الأرض دار المحنة ومنزل البلاء . فكنت أرى بين طيات أقواس قزح ، تلك التي ما برحت تزخرف أطار أفقي وتزين مدى بصري ، حلقة سوداء من الهم لم تفارقني حتى فى عصر الطفولة ، وان لم تكن بادىء بدء أثخن من الخيط الدقيق ، بل كانت أحياناً تغمرها بهجة الألوان ويسترها رونق الأنوار فتختفي اختفاء تاماً . بيد أنها مافتئت تعود فتظهر بل تزداد على مر الأيام انفساحاً وانتشاراً ، وانضاحاً واشتهاراً ، حتى أوشكت فى سنىَّ اللاحقة أن تطبق بسوادها سماء حياتى ، وحتى آذنت أن يلتهمنى منها ليل مقيم الظلام ، مطموس الأعلام . تلك الحلقة هى حلقة الضرورة التى تحيط بنا جميعاً إحاطة السوار بالمعصم ، بل إحاطة الادهم بالقدم . فطوبى لمن أشرقت له شمس سماوية كريمة فجعلتها حلقة للواجب تنعكس عنها الأشعة الباهرة ، وترقص حولها الأضواء الزاهرة . غير أنها على كل حال باقية مقيمة لا يزال منها لحياتنا أساس مكين ، وسياج متين .

« فى السنين القلائل الأولى من مقامنا فى مصنع الحياة لا تكلف تأدية عمل كثير ، بل يقام بأطعامنا وإيوائنا بغير مقابل ، وجل ما يطلب منا أن نلاحظ ما يجرى حولنا فى المصنع ، وأن نتأمل الصناع وهم يعملون ، حتى ندرك شيئاً عن ماهية الآلات ، ونستطيع تعاطى هذه أو تلك من الأدوات . واذا كان المراد من التربية هو إنما الجانب اللازم دون الجانب المتعدى من النفس فلقد كان حظى منها فوق ما يرام . اذ كنت قد نلت من أسباب الانماء والتهذيب ما لا مزيد عليه لمستزيد فى كل ما يتعلق بلين الطبع ورقة المزاج وحسن التطلع وصدق الاحساس . بيد أن الامر لم يكن كذلك

من الوجه الآخر ، فان الجانب المتعدى من نفسى قد ظل مقيداً معطلا ، ولا أزال حتى اليوم أعانى من هذا النقص وخيم عواقبه . وذلك أنى نشأت فى بيت جبل أهله على حب النظام وكراهة كل ما يشوشه ، لا سيما عبث الاطفال . فلا جرم أن تكون تربيتى مقرونة بالشدة ، والواقع أنى كنت مقيداً بكثير من ضروب التحريم ، لا أكاد أبيح لنفسى الاسترسال فى رغبة من الرغبات ، أو الاستمتاع بشهوة من الشهوات ، إذ كنت كلما هممت شعرت بأن حلقة ضيقة من الطاعة قد ضرب علىّ نطاقها ، وشد حولي وثاقها . وكذلك كنت أباشر ، وأنا فى نعومة أظفارى ، آلام اصطدام الارادة بالضرورة ، فتنهمر دموع العين وتنشب فى حلقى مرارة ذلك الجذر المشتبك بثمار الحياة اشتباكاً لا انفصال له.

« على انى أعود فأقول أن الافراط في تعود الطاعة هو بلا نزاع أدنى إلى الصواب من التفريط، والغلو فيه أقرب إلى الرشاد من التقصير. فالطاعة واجب عميم، وفرض محتوم ، والمرء فى ذلك بين امرين: إما ان يطاوع فينعطف ، واما ان يمانع فينقصف . فلا رآني الله بعد اليوم اندب حظى من التربية ، بل أخلِق بى ان اروح بما اصابنى جذلا مغتبطاً . لقد كانت تربيتى مقرونة بالتقتير والشدة والمرارة والعزلة ، مخالفة من كل وجه لأصول العلم، ولكن ألا يجوز أن نفس هذه الشدة والعزلة والمرارة كانت هى التربة الصالحة لانماء جذور الجد والاخلاص ، وانبات تلك الشجرة الكريمة التى تجنى منها كل ثمرات الحياة وأطايبها ؟ وكيفما كان الامر ومهما كانت تربيتى مخالفة لأصول العلم ، فلقد كانت صادرة عن محض المحبة وحسن النية وشرف القصد ، وفي هذا مايكفى لسد كل خلة وأصلاح كل عيب . وما أنس لا أنس ما كان لأمى

الشفوقة الطيبة - السيدة جرتشن - من جزيل الفضل عليّ ، فقد علّمتني بصالح الاعمال ، دون الأقوال ، و بغضيض الالحاظ ، دون الالفاظ ، ماتفهمه من العقيدة الدينية . وكانت رقيقة الاحساس تقية خاشعة . فيالله كيف كان تأثير ذلك فى نفسى ! لقد كنت أري أعلى من أجله فى الارض ساجداً فى خشوع وخنوع بين يدى من هو أعلى منه فى السماء ! إن امثال هذه الامور — لاسيما فى غضاضة الطفولة — تتغلغل الى صميم القلب ، وهناك تنشأ من عاطفة الخوف عاطفة الاجلال وهى أقدس مايختلج فى صدر الانسان . أتفضّل أيها القارىء أن تكون ابن فلاح تعرف بأى شكل مهما كان غير مهذب ان فى الكون وفى الانسان آلها ، أم تؤثر ان تكون ابن أمير لايعرف إلاّ اسماء كلاب الصيد وشارات خيل السباق ؟ »

الفصل الثالث

عهد الدراسة

ينظر الفيلسوف الى العهد المدرسى من حياته نظرة المستخف غير المحتفل ، ويرى في زهيد ماتعلمه بالمدارس مالا يستحق ذكرا ، وذلك حيث يقول « لقد تعلمت فى المكتب مايتعلمه سائر الاطفال ، ثم ابقيته مدخراً في ناحية من رأسى ، لا أدرى بعد سبيل الانتفاع به . وكان معلمى رجلا بائساً مستضعفاً مستذلا ، كسائر ابناء طائفته . وجل ما استفدته منه استكشافه أنى من اصحاب العبقرية ، وأنى جدير بالنبوغ فى فنون العلم والادب ، وانه ينبغى ارسالى الى المدرسة فالجامعة ،،

لقد عرفنا الآن أن معلم المكتب كان صادقا فى نبؤته . والواقع أن

دياجو نيز الصغير كان، على ظاهر سكونه وانقباضه، وصمته واحتجازه، لا يزال يبدي من بوادر الفطنة المستسرة ماينم عن نفس مفكرة تتوقد شاعرية، وتتلهب لوذعية. والا فخبرني، ناشدتك الله، متى صادف الناس فيما صادفوه غلاما في الثانية عشرة من عمره يخطر بباله مثل هذه التأملات الرائعة: « في ذات يوم وقد جلست على ضفة الغدير انصت الى هدير تياره، واتأمل في تدفقه وانحداره، والكون مستغرق في سكون الهجيرة، مرّ بذهني فأدهشني أن هذا الغدير بعينه مابرح يهدر ويتدفق على تقلب الزمان، وتصرف الحدثان، من قبل انبثاق فجر التاريخ والدهر لاينفك غض الاهاب، والدنيا ناضرة الشباب — نعم في نفس الهجيرة التي عبر فيها قيصر نهر النيل سابحا كان هذا الغدير يسيل في البرية، لم يطلق عليه اسم، ولم تقع عليه عين، بل لعله كان يجري جريته هذه يوم عبر موسى البحر بقومه ناجيا من غضب فرعون. بلى ايها الانسان! انك لتجد في هذا الجدول الصغير ما أنت واجد في الفرات أو النيل: شريانا أو عرقا من تلك الدورة المائية العظمى التي تتخلل كيان هذا العالم الارضي ومابرحت ولن تبرح تلازمه منذ نشأته من العدم الي يوم رجعته الى العدم. ايه ايها الاحمق! تأمل في الطبيعة واعجب من عراقتها في القدم. أن هذه الصخرة التي أنا جالس عليها تعد من السنين نيفا وستة آلاف عام »

الا يلمح القارىء في هذا الخاطر البسيط — الذي كان ينبوع صغير — مبادىء تلك التأملات السامية التي تتخلل فلسفة الملابس عن روعة الزمان وعلاقته بالابدية؟

ثم يأخذ الاستاذ في وصف أيامه بالمدرسة وبالجامعة، ولكنه لا يذكر لها من طيب العهود وجميل الذكريات ما يذكر لايام طفولته. وهي، وان كانت لا تخلو من بقع شامسة خضراء، فانها مملوءة بغدران الدموع المرة،

ومناقع التبرم المقرة . وذلك حيث يقول « بدأت أيام نحسي ، واستهل عهد شقائي ، منذ وقعت عيني على المدرسة لأول مرة. ولشد ما أذكر ذلك الصباح المشرق اذ جعلت أعدو بجانب الأب أندريا ثملا بنشوة الأمل والجذل ، حتى دخلنا الشارع المفضي الى المدرسة ، فاذا كلب صغير قد ربط بذيله أحد الأشقياء من الصبية وعاء من صفيح ، فاندفع ينهب الأرض نهباً وقد طار الفزع بلبه . وكذلك جعل هذا المسكين المتألم يجوس خلال القرية طولاً وعرضاً ، محدثاً من الصخب واللجب ما لفت اليه جميع الانظار ،وجعله أشهر من علم في رأسه نار : ذلك لعمر الحق مثال دقيق ورمز صادق لكثير من أبطال الحروب ، أولئك الذين قد علّق بهم القدر الخبيث صفيحة صاخبة من الأطماع لا تزال تسوقهم سوقا ، وتطردهم طرداً ، فكلما لجوا في الركض والشد، لجت هي في الصخب والطرد !

« وتلفت فاذا الحي الذي نحن فيه ساكنون قد اختفى على مدى البصر، واذاني بين قوم غرباء ، لا يرقون لي ولا يعطفون عليّ ، فأحس القلب الصغير لأول مرة أنه في هذا العالم يتيم وحيد »

وكان رفقاؤه في المدرسة كما هو المعتاد يسيئون اليه ويضطهدونه وذلك حيث يقول « كانوا كلهم صبيانا ، وكان أكثرهم جفاة الطباع غلاظ الاكباد، يسرعون الى إجابة داعي الطبيعة الفظة التي تأمر قطيع الغزلان أن ينقضّ على الظبية المستضعفة ، وتحرّض سرب البط على قتل رفيقها المهيض الجناح ، وتغرى كل قوى في هذا العالم باهتضام الضعيف المستكين » وهو يعترف بأنه وان كان من الوجهة الأدبية صادق الشجاعة صحيح الاقدام فهو في المصارعة والنزال سيء البلاء ، ووده أن يتحاشى تلك المواقف جهد

المستطاع . والظاهر أن السبب فى ذلك لم يكن صغر جرمه فانه ما زال يبدى عند الغضب من خفة الحركة وشدة الوثبة ما يبعث على الدهش والاعجاب . وإنما كان الأمر عنده مبدأ وعقيدة حيث يقول « اذا كان من العار المخجل أن يخرج الانسان من الحرب مهزوماً فمجرد اشتراكه فيها عار آخر لا ينقص عن عار الهزيمة الا قليلا » وكان فى ذلك العهد كثير البكاء غزير الدمعة حتى لقبه أقرانه « بصاحب العبرات » . وما كان غضبه ليثور الا فى الأحايين النادرة ، وعندئذ تعصف في رأسه عواصف الموجدة ، ويضطرم فى عينيه لهيب الحنق ، حتى يظل أشجع الشجعان من أقرانه يرتجف بين يديه ارتجافا.

أما عن التعليم وأساليبه والقائمين بأمره فالاستاذ يتكلم بتحمس يكاد يبلغ حد الغضب ، وذلك حيث يقول « وكان أساتذتى من المغفلين المتقعرين ، ليس لديهم ذرة من العلم بطبائع الانسان أو الحيوان ، كلا ولا بشىء فى الوجود سوى قواميس المفردات ودفاتر التحضير . لا دأب لهم الا أن يحشروا في أذهاننا أكداساً مكدسة من ميت الألفاظ ومجدب العبارات ، ويسمون ذلك تثقيفاً للعقول وتربية للملكات . لله أبوهم ! كيف نستطيع تلك الآلات الجامدة التى لا تجول فيها نسمة من الحياة (يعنى المعلمين) والتى لا يبعد على مصانع القرن الآتى أن تخرج أمثالها من الجلد والخشب أن تعدّ وسائل النمو لشيء على الاطلاق ، لاسيما للعقل الانسانى ذلك الذى ينمو ، لا كما ينمو النبات (بتسميد جذوره بالدبال اللفظى) بل كما تنمو الروح ، بالتلامس الخفى مع الروح وهنالك تشتعل النفس من النفس ويقتبس الفكر جذوة الحياة من نار الفكر ؟ كيف يستطيع إشعال غيره من هو فى ذاته بارد الجوف قد خلا من كل جمرة حية ، ولم يبق فيه الا رماد هامد من المحفوظات اللغوية

والقواعد النحوية ؟ لقد كان أساتذتى يعرفون الجم الكثير من النحو والصرف ، ولكنهم لا يعرفون من شئون النفس الانسانية سوى أن فيها ملكة تسمى الذاكرة ، يمكن التأثير فيها من طريق الغشاء العضلى بواسطة العصا !

« ويلاه ! تلك هى الحال فى كل مكان ، ولسوف تبقى كذلك على مدى الأزمان ، حتى يُطرد الفاعل الأخرق الحقير ، أو يقصر عمله على حمل النقير ، ويستأجر مكانه مهندس صناع يتلقى ما يجب من التشجيع والتنشيط ، نعم وحتى تتعلم الجماعات والأفراد أن تغذية الأرواح بالعلم والعرفان، لا تقل منزلة عن تمزيق الأبدان ، بشظايا القنابل وأسنة المران ، وأنه ينبغى أن يكون بجانب قواد الجيوش وبطارق الجحافل ، ممن تنحصر مهمتهم فى التقبيل والتذبيح ، أئمة مكرمون ورؤساء ممجدون تكون مهمتهم التربية والتعليم . وإنه لمن علائم الفساد فى هذا المجتمع أنك بينما تجد الجندى فى كل مكان يمشي الخيلاء متباهياً بآلة التخريب ، لا تجد المعلم قط يتباهى بآلة التهذيب ، وأكبر ظني أنه لو تجاسر وخرج الى الملأ متقلداً عصاه منتظراً من القوم أن يقابلوه بتحية الاجلال، لما وجد منهم غير السخرية والاستهزاء »

ويظهر ان اندريا توفى الى رحمة ربه فى السنة الثالثة من ذلك العهد فابصر الطالب الصغير لاول مرة ان ظاهره مكتس بالحداد ، وأن باطنه مكتس بنوع من الكآبة لايستطيع وصفه اللسان . وذلك حيث يقول « لقد انفغرت له تلك الهاوية المظلمة السحيقة ، التى نطأ جميعاً على قشرتها الرقيقة ، وتراءت لعينه اقاليم الموت شاحبة مكفهرّة ، تروع الناظر بسكانها الصامتين من امم لاتحصر وأجيال لاتحصى . وأخذت امى فى البكاء

والنحيب فأوجدت لحزنها منفذاً ولكربها متنفساً . أما أنا فقد بقيت في قلبي بحيرة مملوءة بالعبرات ، تكتنفها قفار صامتة وصحارى موحشات. غير ان الروح كانت لا تزال في عنفوان النشاط والفتوة ، والحياة كلها عافية وصحة فهي واجدة حتى في الموت مادة الغذاء والقوة. فانغرست تلك التجارب المظلمة بيد الذاكرة في ثرى المخيلة ، ومازالت تنمو هنالك وتزكو حتى صارت غابة ملتفة من الأثل والسرور ، كئيبة ولكنها جميلة ، محزنة ولكنها أنيقة ، تهتز وتميد فتتردد في جنباتها الزفرات العذاب ، والأنين المستطاب ، ولا تبرح الظلال السود مخيمة عليها وان متعت فوقها شمس الظهيرة — ذلك شأنها طول الشباب ، واحسبها باقية كذلك مدى الكهولة ، فأني قد ضربت خيمتي في ظل أثلة ، وجعلت القبر حصني المنيع ، اقف على بابه وانظر الى الجيوش المتمادية ، والى الحياة العاتية ، متأملا ما حوت من ألوان العذاب والعقاب بجأش رابط ، مستمعا الى وعيدها القاصف بابتسامة هادئة . فيا أحبابي الذين اضطجعتم على وثير مهاد الراحة في دار الامن والسكون ، والذين كان منتهى طاقتي وانتم في قيد الحياة ان ابكي عليكم ، غير قادر على ايصال المعونة اليكم ! ويا احبابي الآخرين الذين لا تزالون مشتتين في مجاهل المأسـدة الموحشة ومفاوز الحواة المقفرة ، تجوبون انحاءها ، وتصبغون بدمائكم حصباءها — ان هي الا لحظة قصيرة حتى نجتمع كلنا في صعيد واحد ، وحتى نأوي الى صدر أمنا الحنون ، فنصير في مأمن وعصمة ، لا يصيبنا اذى من نير الاضطهاد وسوط العذاب ومرزبة الأحزان وزبانية الجحيم : اولئك الذين يطوفون في انحاء الزمان المضطرب »

في هذه اللحظة اطلعت السيدة جرتشن ربيبها على جلية امره وافهمته

ان أندريا لم يكن بوالده وذلك حيث يقول « وهكذا كان يتمي مضاعفاً . فلقد حرمت عزاء الذكرى كما سلبت نعمة الملك . هنالك تلاقحت فى نفسى عوامل الأسى والعجب ، فيا روعة ما أنتجت ، ويا كثرة ما أثمرت ! بلى لقد ضرب ذلك النبأ بعروقه في ثرى القلب ، ثم لبث قائماً هنالك يمتزج بخطرات الفؤاد ويتواشج بهجسات الضمير كأنه الجذع الذى تنمو عليه أحلام يقظتى ورؤي منامى . لقد كنت منقطع النظير . وكان هذا الخاطر لاينفك يشعرني بنوع من السمو والارتفاع ، كما كان يشعرنى بنوع من الانحطاط والاتضاع . ولا بدع فلعلى — كما كنت نسيج وحدي فى مولدى — كنت أيضاً نسيج وحدى فى أقوالى وأفعالى ومذاهبي وآرائى »

وبعد إيراد الكثير من أمثال هذه الملاحظات المبهمة يصل الفيلسوف أخيراً الى ذكر أيامه بالجامعة فيفتتحها قائلاً :

« لقد أصيب فى المثل السائر : إذا الأعمى قاد أعمى سقط كلاهما فى المهوى . فهلا كان يحسن بهما تفادياً من الزلل واجتناباً للعثار أن يجمدا فى مكانهما ؟ أليس الأضراب عن الطعام والمبيت على الطوى خيراً من تناول الطعام المسموم؟ أفرأيت لو انك عمدت الى مربع من الارض فى بلاد الهمج ومفاوز المتوحشين ، فسوّرته بسياج واعددت فيه مكتبة لا بالمنتقاة ولا بالحافلة ونصبت على ابوابه جماعة اطلقت عليهم لقب الاســـاتذة وكلفتهم أن يتقاضوا من راغبي الدخول أجوراً طائلة وأن يصيحوا ملء افواههم (هلموا ايها الملأ فهذه جامعة) ـ اقول إذن لكنت مثلت بالجوهر و بالنتيجة ، وان لم يكن بالهيئة والمنظر ، مايشابه الجامعة التى كنت فيها او يكاد . أقول يكاد لأنه اذا كان بناء جامعتنا يخالف بناء هذه جد المخالفة ،فقد كانت النتيجة

أيضاً فى الحالتين غير متماثلة ، اذ كنا نقيم لسوء الحظ لا فى مفاوز الهمج ومجاهل المتوحشين ، بل فى غمار مدينة اوروبية فاسدة ، مكروبة بالدخان ، مشحونة بالآثام ، وفى وسط جمهور لا ينخدع بمجرد النداء ورخيص المعدات ، بل لابد من التذرع الى خدعه بوسائل اكثر تعقيداً وأبهظ نفقة .

«على انه ليس بين هذه الجماهير كلها الا ماهو سهل الانخداع متى أخذ للأمر صادق أهبته ، وأعد له لائق عدته ، وان خادعيها ليفيدون من الارباح مالا يخطر فى بال . وأنه لمن دواعي العجب أن لا يوجد لدينا حتى اليوم شيء من قبيل احصاءات الدجل والتمويه ، وأن يظل علماء الاقتصاد مكبين على احصاء كل ماهو صغير الشأن من فروع الصناعة ، صارفين النظر عن فرع النفاق وهو أجلها خطراً ، كأن كل ما يدخل فى باب النصب والاحتيال والنفج والادعاء والغش والرياء وما شاكلها من غريب المهن والاسرار ليس من الصناعات المنتجة فى شيء ! فمثلا هل يستطيع امرؤ ان يخبرنى عن كمية مايجمع من المال فى مهنتى التعليم ومسح النعال بواسطة صحيح التعليم وصادق المسح ، ثم عن كمية ما يجمع فيهما بواسطة كاذب الاعلان وخادع التمويه ؟ على انك اذا عمدت الى كل منحى من مناحي الحياة الاجتماعية من سياسة وتعليم وتأليف وتفكير وتجاره وصناعة ، فسألت عن مبلغ سد حاجة الانسان فى كل منها بالبضاعة الصحيحة ، ومبلغ سدها بمجرد صورة البضاعة الصحيحة — أعنى أنك اذا تساءلت عن مبلغ حلول العمل الصورى مقام العمل الحقيقى فى كل زمان ومكان ، وبأى الأساليب والنتائج يتم ذلك لرأيت بين يديك مبحثاً واسعاً خصيباً حافلا بالعظات البالغة والنتائج المثمرة ، ولكنه قد لبث حتى الآن مختوم الغلاف لا تكاد تمسه مخاويض الباحثين. فاذا

كنا نقدر اليوم نسبة البضاعة الحقيقية الى البضاعة الصورية بنسبة واحد الى مائة فأي المبالغ من الاقتصاد لا يرتجى بلوغها في المستقبل متى تقدم فن احصاء النصب والدجل فتناقصت صناعة الأكاذيب على التدريج (كلما ارتفع شأن صناعة الحقائق) حتى نصبح أخيراً ولا حاجة بنا اليها البتة ؟

« هذا ما نؤمل أن يتم في العصر الذهبي القادم ، أما في عصرنا البرنزي الراهن فالذي أراه في مختلف مناحي الحياة كالتعليم والسياسة والديانة ، حيث تمس الحاجة الى الجم الكثير وحيث لا يستطاع الحصول الا على النزر اليسير — أن الدجل قد يكون مفيداً نافعاً كدواء صحي مسكن ، وأن قابلية الانسان للانخداع ليست شر مواهبه ، واسوأ منائحه . فهب مثلاً أن الامة قد تضعضع عصبها الحربي ، أعني انها أصبحت مفلسة قد صفرت من المال خزائنها ، وصارت جيوشها على شفا التمرد فالانحلال فالتناحر ، أفلا يحسن وقتئذ أن تعمد الى ما يشبه السحر والمعجزة فتدفع لهم أعطياتهم بأوراق صورية ، وتطعمهم ماء جامداً أو أطعمة خيالية ، وبذلك تسكن سورتهم ، وتبقى على وحدتهم ، حتى يتم لها تحصيل المؤن الحقيقية ؟ هذا هو ، فيما أظن وأرجح ، غرض الطبيعة — والطبيعة لا تفعل شيئاً عبثاً — من تركيبها في فطرة صنيعتها الانسان تلك الملكة العجيبة : قابلية الانخداع .

« لله در هذه الملكة ما أبدعها في عملها ، وما أسلسها في سيرها ، لا تكاد تحتاج الى شيء من الآلات والمعدات ، بل هي تصنع لنفسها ما تريد من هذا القبيل ! لقد كان أساتذتي في الجامعة يعيشون في أمن وخفض ، بفضل لا شيء سوى شهرة أنشئت لهم بفعل غيرهم في الزمن الغابر بغير كبير مشقة ، فهي لهم كطاحون متينة التركيب دائبة الدوران تطحن لهم من تلقاء نفسها ما شاؤا ،

ولا تتطلب منهم سوى أن يجددوا دهانها مرة فى كل عام . هنيئاً لهم أولئك الطحانين ! وما أسعدهم حظاً بأن الأمر كان كذلك ! لقد أحسنوا صنعاً إذ لم يكلفوا أنفسهم مؤونة العمل ، فانى كلما تذكرت الآن محاولاتهم في سبيل العمل — فى سبيل ما كانوا يسمونه التعليم — امتلأ قلبي بنوع من التعجب الصامت والاعجاب الواجم .

«ولقد كنا نتباهى بأن جامعتنا من أنصار المذهب العقلى ، وأعداء المذهب النقلى ، وأننا خصوم الداء لكل ما ينطوى تحت لواء الباطنية والصوفية . وكذلك كانت الأدمغة الخالية الصغيرة تحشى حشواً بأكداس من الكلام العريض الطويل عن رقي الأنواع وعصور الظلام وكواذب الأوهام وما شاكل هذا،فسرعان ما تنتفخ بما يملؤها من رياح الجدل العقيمة. فما كان من تلك الأدمغة متيناً حصيفاً كان مصيره الضلال فى بيداء الشك العاجز الوبيل ، وما كان ضعيفاً سخيفاً انفجر ، فاستحال هواءً من الزهو والغرور لا تنتظر منه فى المقاصد الروحانية فائدة — ولكن هوّن عليك ولا تبتئس فهذا أيضاً بعض ما قسم للانسان وقدر . أتشكو وتتذمر لأن عصرنا هذا عصر كفر والحاد ، وانك لتعلم أن ما هو خير منه سيطلع علينا مع الغد ، بل هذه تباشيره قد لاحت منذ اليوم ؟ لقد جرى حكم القضاء بأن تتعاقب فترات الايمان والكفران ، كتعاقب ضربات القلب انبساطاً وانقباضاً ، وتعاقب شطرى اليوم ليلاً ونهاراً ، وأن يكون ربيع ازدهار الآراء وصيف إيناع المعتقدات سابقين ولاحقين لخريف اصفرارها واضمحلالها وشتاء انتثارها وانحلالها . على أنه ربما كان من البلية لذوى الحجى أن يولدوا فى أمثال هذه الفترات القاحلة — فترات الالحاد — فيظلون

فيها يقظين عاملين، دئبين مشيحين . أما أهل الغفلة والغباوة فأولئك ينعمون فيها بسبات عميق، شأن الحيوانات المشتية التي تجتاز صبارة القر في غمرة الكرى، فلا يفيقون من رقدتهم الا بعد أن تهدأ الزعازع العاصفة ، وتسكن الزلازل الراجفة، ويقبل الربيع الجديد إجابة لدعواتنا اللهفى ومكافأة لضحايانا الموجعة»

يتضح مما تقدم أن تيوفلسدرخ كان ولا شك يعاني من برحاء الألم شيئا كثيراً ، يؤيد هذا قوله بعد ذلك « لقد كان الصغار الجائعون ينظرون نظرة الملهوف الى مراضعهم الروحانية ، فيؤمرن أن يرتضعوا الصخر الاصم ويستطعموا الريح العقيم . وما كنت لاقصّر عن سبق الاقران في حفظ ما نلقن هنالك من مجدب المجادلات الفقهية والمباحث اللفظية ، والمعالجات الآلية التي كانوا يطلقون عليها اسم العلم زورا وبهتانا . كذلك ما كان ذلك الجمع الغفير من طلبة الجامعة ليخلو من بضعة أفراد يتعطشون الى مناهل العلم الصحيح ، فكنت استفيد من احتكاكي بهؤلاء روحا من التحمس والنشاط. وكنت بحكم طبيعتي ولحسن حظي أميل الى التفكير والمطالعة مني الى الصخب والمشاغبة ، فطالما كنت أنغمس في فوضى تلك المكتبة فاستخلص من كتبها مالا يخطر ببال حفظتها . وكذلك وضعت لنفسي دعائم حياة أدبية، وتعلمت بجدي واجتهادي معظم اللغات الراقية ، وكنت لا أني طرفة عين عن المطالعة في كل الموضوعات وفي كل العلوم . ولما كان الانسان على الدوام قبلة الانسان كان لي غرام شديد باستقراء الأخلاق عن ظهر الغيب، وتعرف صفات الكاتب من أسلوب كتابته ، ومن ثم تكونت في نفسي اصول فكرة عامة عن الطبيعة البشرية والحياة الدنيوية : فكرة مازالت تجاربي تقيم من أودها على مر الايام وتوسع من نطاقها على كر الليالي »

كذلك يستفيد القوى من العوز والفاقة غني وثروة ، وكذلك يعثر اسماعيلنا الفتى أثناء هيامه فى الصحراء علي أنفس المقتنيات : اعنى فضيلة الاعتماد على النفس . بيد أنه مابرح يضرب فى فلاة موحشة ومفازة قفراء

تصيح بها بوم وتعزف جنة

فيعوى لها سيد ويضبح سمسم

فلشد ما كانت تساوره أفاعي الشك ، وتعاوره وحوش الارتياب ، ولطالما بات كما يقول « مؤرق الوساد ، نابي المهاد ، في ليل طامس الاعلام يحيط به من الظاهر ، وغيهب دامس الظلام يحدق به من الباطن ، جائراً بالدعاء يتطلب نور الهدى ، ويلتمس الخلاص من الردى ، حتى بلغ منه الجهد وغشيه اليأس ، فاستسلم لحكم القضاء وخر صريعاً بين يدى كابوس الالحاد ، وبات في أحلامه المرتاعة يحسب هذا الكون الحى البديع مجمع الابالسة وعالم الموتى . ولكن لا بأس فبهذا جرى محتوم المقادير ، إذ لا بد للروح أن تنغمس فى مثل هذا المطهر [1] حتى تخرج منه نقيه الردن طاهرة الذيل ، لا بد لميت رسوم الدين أن تعترف بموتها وتذهب هباء فى مهب الرياح ، قبل أن ينطلق روح الدين من سجن رفاته البالى ويطلع علينا في بهائه الجديد ، حاملا طي اجنحته شفاء الارواح وعزاء النفوس »

فاذا أضفنا الى هذه الآلام المطهرية ، على مابها من شدة وتبريح ، نصيبا وافراً من الارزاء الارضية ، كفقد المرشد وفقد المعين وضيق ذات اليد وضيق فسحة الامل ، واذا اجتمع كل هذا على امرىء رث الوسائل ولكنه فى شرخ الشاب ذى الخيال الجموح الوثاب والمطالب الطوال العراض : ألا نجد حينئذ

---

(١) منزلة وسط بين الجحيم والفردوس تتطهر فيها الارواح من ذنوبها قبل دخولها الجنة

بين أيدينا نفسا فتية قوية تعانى من الظاهر والباطن كربا كاربا ،وتقاسى من الخارج والداخل ضغطا حازبا ؟ وهلا نرى يومئذ نار العبقرية تعالج الصعود خلال أكداس مركمة من الحطب النضير وقد طغى فيها الدخان المعتكر ،على اللهيب المستعر ؟

وما كان تيوفلسدروخ ، على فرط حيائه وانزوائه ، وانقباضه واعتكافه ، ليفوت أنظار القوم ؛ فقد كان معروفا لدى طائفة من ذوى المكانة والجاه ، وان لم يكن يحظى منهم بشىء من المساعدة . والظاهر أنه شرع يتعلم ؛ على كره منه،علم الحقوق وأنه نال الشهادة فى هذا العلم،ولكنا ندع هذه التفاصيل جانبا ونكتفى بالكلمة الآتية نجعلها خاتمة كلامنا عن عهد الجامعة :—

« وهنا أيضاً كان تعرفى بالهر توجود ، وهو شاب من أسرة عريقة فى صميم بلاد الانجليز ، يمت بصلة القرابة إلى بعض ذوى المقامات فى هذه الناحية من ألمانيا . وهذا الأمر كان بلاشك من البواعث التى أغرته بمغادرة وطنه والقدوم إلينا رجاء إتمام دراسته . ضَلَّةً له لقد طاش سهمه وخاب فاله ! كيف يبغى الكمال في مكان لم يبق فيه أثر لفكرة الكمال فضلاً عن المجهود اللازم لتحقيقه ؟ ولطالما كان أحدنا يجلس إلى أخيه فلا نزال نندب حظ الشبان فى هذا العصر المنكود ،فنذكر ضيعة مساعى ولاة الأمور فى التعليم ، وانّنا بعد كل ما كابدناه من وصب ونصب سنخرج الى الدنيا ولم نكتسب من صفات الرجولة الا هذه اللحى النابتة فى عوارضنا ، فلا نحن ندرى فى أى طريق نسعى وبأى نور نهتدى، كلا ولا نحن ندرى بأى العقائد نؤمن وبأى المذاهب نقتدى . إنى لأذكره يقول « لله ما أعجب هذه الرؤوس التى نحملها فوق المناكب ! لقد جهزت من الظاهر بقبعات تركتها ناهيك بها حسن بريق

وبهاء، ولـكنها من الباطن خالية هواء، لا تحوي الا رغوة من المنطق الجدلي والألفاظ الجوفاء. أرى الناس يتعلمون بأيسر نفقة عمل الأحذية فماذا تراني قد تعلمت عمله بعد تكبد النفقات الطائلة؟ تالله يا أخي لقد أنفقت في المأكل والملبس منذ قدومي عهنا مالو تجمع لـكفى للانفاق على مستشفى عظيم» عندئذ يكون جوابي «هوّن عليك يا صاح! لقد أودع الانسان قوة هاضمة لا بد له من تشغيلها ولو بالسرقة. أما ما تقول عن سوء التعليم فحذار أن تزيد الشر وبالا، وإياك أن تضيع ما لا يزال بين يديك من نفيس العمر في وطء الشوك لانه قصّر عن اجتنائك التين. إن لدينا لـكتباً قيمة، وقد أوتينا عقولاً بها نقرأ ونفهم. وإن لدينا لسماء الله وأرضـه، وقد منحنا عيونًا بها نبصر وندرك!»

«وكثيراً ما كنا نخوض في أحاديث الفكاهات ممتعة مشرقة. وكنا نتأمل الحياة ومسرحها العجيب يجمع بين المآسي المبكيات والمهازل المضحكات، في مناظر متنوعة المظاهر لا تخلو من مسحة الهول وروعته. بيد أنا كنا ننظر اليها بقلوب ملؤها الحمية والشجاعة. ولعل هذه كانت أسعد أوقاتي، وأكملها هناء وصفواً. وكنت أوشك أن أشعر تلقاء ذلك الشاب الحي القلب العنيد الرأس بعاطفة الصداقة التي أصبحت اليوم من الطراز العتيق. ضلةً لي من غبي أحمق! لقد حسبت من المستطاع أن أحب هذا الانسان وأن أضمه الى صدري وأن أكون له مدى العمر أخاً وشقيقاً. بيد اني لم ألبث حتى أفقت على التدريج من هـذا الحلم، وحتى فهمت روح العصر الجديد ومقتضياته، نعم لقد أدركت أن النفس إن هي إلا ضرب من المعدة،

وان تآلف الأرواح لا معنى له إلا اجتماع الخلان على الخوان ، وان رابطة الأخاء ليست الا رابطة المؤاكلة . أما ما عدا ذلك فترهات وأوهام ، وسخافات وأحلام »

الفصل الرابع

في سبيل البحث عن عمل

يقول صاحب الترجمة ، والظاهر أن قوله هذا كان بعيد تخرجه من الجامعة ، « وهكذا تحقق في الوجود شيء ما : أعني أنا ، دياجونيز تيوفلسدروخ ، تلك الصورة المرئية الموقوتة ، تشغل من الفضاء بضعة اقدام مكعبة ، وتحتوى من مادى القوى وروحانيها قدراً معلوما ، من آمال وخواطر وشهوات ونزعات ، إلى آخر ما يتألف منه ذلك الجهاز العجيب الذى يجهز به أعقد ألغاز الحياة وأغربها — الانسان . لقد أودعت من المقدرة ما أكافح به ، ولو كفاحا ضئيلا ، دولة الظلام الرهيبة : الا ترى حتى الحفار الحقير يعمل بفأسه على اقتلاع الكثير من الاشواك وردم الوبيء من المستنقعات ، وبذلك يغادر يسيراً من النظام حيث وجد الفوضى سائدة ؟ بلى وأنك لتلفى حتى أحط الكائنات قد أوتى حظه من هذا النوع من المقدرة ، فالذبابة التى يقتحمها طرف العين لا تزال تنظّم ما كان من قبل غير منظم ، ولو بادغامه فى عناصر جسمها وتحويله من مادة غير عضوية إلى مادة عضوية ، ثم هى لا تنفك تحدث بطنينها من الهواء الصامت الميت انغاماً حية وأن تكن من أخفت ما سمع السامعون .

« واذا كان هذا شأن الذى أوتى نصيباً من القدرة المادية فكيف بمن رزق حظاً من القدرة الروحانية ، بمن تعلم أو شرع يتعلم أسرار ذلك الفن السحرى الأعظم ، فن التفكير ؟ انى أدعوه فناً سحرياً ولا غرو فأليه يرجع الفضل فى جميع ما تم حتى اليوم من مدهشات المعجزات ، وفيما سوف يتم في مستقبل الأيام من خوارق يخطئها الحصر ونشاهد منها حتى فى عصرنا هذا مايحير الالباب . لست بذاكر ما لوحى الانبياء والشعراء من عجيب المأثرات وروائع الآيات ، ولا أنا بمتعرض لوصف ما كانت تحدثه رسالات هؤلاء الملهمين من خلق عوالم بجملتها وافناء أكوان برمتها . ولكني أسائل أبلد البلداء : ألم يسمع زفير الآلات البخارية يتصاعد حوله من كل مكان ؟ ألم يشاهد فكرة النحاس الايقوسى (وهى بعد ليست الاً فكرة آلية) تسبح على أجنحة النار ، وتشق لجج البحار، وتصارع النوء والاعصار ، وتبدى من دلائل الجلد والقوة ، وغرائب المضاء والهمة ، ماتعجز عنه اعوان السحرة ، من جبابرة الجان وشياطين المردة ، فهى لا تكتفى بنسج الثياب والأبراد ، ومحو المسافات والابعاد ، بل تعمل بعزيمة حذاء على قلب نظام المجتمع بأسره رأساً على عقب ، وتهيء لنا بدلاً من عهد الاقطاعات وسيادة الشرفاء ، عهد الصناعات وحكومة الحكماء ؟ ألا إن الحقيقة التى ليس فيها مراء ان الانسان المفكر هو ألد خصم وأعدى عدو لأمير الظلام ، وأنه كلما أعلن أحد المفكرين مقدمه سرت فى كيان الدولة السفلى رعشة الرعب والفزع ، فتنبرى للقائه من جنود الباطل فرقة جديدة ، تتعلم وتعالج من أساليب الكفاح ضروباً جديدة ، علها تستطيع اقتناصه فتعصب عينيه وتغل يديه .

« إلى أداء مثل هذه المهمة العالية قد دعيت أنا أيضاً بصفتي واحداً من

أبناء هذا الـكون . بيد أنه من دواعي الأسى أن المرء ، مع ما يخول بأمر الطبيعة من حق إعلان الحرب على أمير الظلام وحق الفتح والاستيلاء على ما استطاع من دولة الباطل ، لا يستطيع أن يحرز صولجان إرثه ويعتلي كرسي ملكه ، الا بتجشم النصب الناصب وتـكبد العناء المعني »

تُرى هل يقصد الاستاذ بهذه العبارة المقعرة والاستعارة المفخمة شيئاً سوى أن الشاب خليق أن يلاقى مصاعب وعقبات فى سبيل البحث عما يلائمه من العمل ؟ انا نستميحك العذر أيها القارىء ، فهذا شأن الاستاذ في أساليبه وتعابيره . وبعد فلنسمع ما يقوله بعد ذلك :

« ملـكوتى وسلطانى هو فيما أنتج وأصنع ، لا فيما أملك وأجمع . لقد أوتى كل امرىء مواهب باطنية معينة وظروفا خارجية معينة ، يخرج منهما بحسن الملاءمة مقدرة قصوى معينة ، ولـكن عقدة العقد ومعضلة المعضلات هي فحص ملـكاتك الباطنة وظروفك الظاهرة رجاء الاهتداء الى نوع هذه المقدرة الناتجة من اتحاد القوى الداخلية والأحوال الخارجية . اذ الواقع مع مزيد الاسف أن الروح الفتية لا تزال تتفطّر عن مَقْدِرات متباينة فيظل المرء فى حيرة لا يعرف صحيحها من فاسدها ولا يميز صادقها من كاذبها . هذا الى أن المرء ساعة يولد يخرج الى العالم في وقت جديد وظروف جديدة ، فسيرته فى الحياة لا يمكن ان تحتذى على مثال سابق ، بل لا بد أن تـكون نسيج وحدها . أضف الى ذلك أنه قلما تأتى الظروف الخارجيـة وفق المواهب الباطنية ، فترانا اذا منحنا من الذكاء قسطا وافراً ابتلينا بالفقر أو بفقد الاخوان . أو بعسر الهضم أو بفرط الحياء ، أو بما هو شر من كل ذلك : الحمق . وكذلك يظل المرء يتعيث بين خليط المقدرات متلمسا منها ما هو له ، وملتقطا فى

أ كثر الاحيان ماليس له . ويقضي الشاب الأعشى فى هـذا العمل الأخرق سنين عدة من عمره القصير ، حتى يعود بفضل متكرر التجارب خبيراً بصيراً، بل ربما قضى كل عمره فى هـذا العمل العقيم ، بين رجاء متجدد ، واخفاق متردد ، متقلبا من مسعى الى مسعى ، ومضطربا من ناحية الي اخرى ، حتى اذا بلغ سن الشيخوخة وهو يعدُ فى غرة الحداثة عمد الى آخر مساعيه : نزول القبر .

« ذلك بلا نزاع كان يكون مصير اكثر الناس ، إذ كان معظمنا من ذوى البصائر العشواء والاعين الرمداء ، لولا شيء واحد هو الذى ينقذنا : الا وهو الجوع ، ذلك الذي لا يعرف التريث ، ولا يفهم التلبث ، فهو متى داهم المرء أعجله عن التردد والاضطراب ، واضطره الى سرعة الاختيار . ومن ثم رأى الناس من الحكمة وحسن التبصر أن يعدوا للاحداث الأغرار مناهج للتمرن على مختلف الحرف ، حتى اذا سلك الشاب منهجا منها لم يأت على آخره الا وقد أفرغ ما اوتيه من الكفاءة المبهمة العامة في قالب حرفة معينة خاصة ، فيصبح فى استطاعته أن يعمل عمله فى الحياة مع القليل أو الكثير من التبذير فى المقدرة ، ولكن مع اتقاء شر أنواع التبذير — تبذير الوقت . وانه لمن حسن التدبير أن مثل هـذه الخطة قد اتبعت حتى فى الشئون المعنوية والمسائل الروحانية ، وان هُيئت للمتطلعين الى الاشتغال بهذه الامور مناهج للتدرب على مختلف المهن ، لأن الصانع المعنوى لا يولد بصيراً، كلا ولا يمنح نعمة البصر بعد تسعة أيام من مولده شأن بعض الاصناف من الحيوان ، بل يظل مكفوف الرؤية زمنا طويلا ، ولقد يبقى كذلك مدى العمر . بيد انه متى انخرط فى سلك مهنة من المهن انطلق فيها يلف ويدور

كفرس الطاحون ، لا يضيره ما بعينيه من عشوة أو عمى ، بل تراه منشرح الصدر مثلوج الفؤاد ، يحسب أنه لا يزال يتقدم الى الامام وان كان في الواقع لا يتقدم خطوة . ثم لا يخلو عمله من فائدة أو فائدتين : واحدة لنفسه وهى إطعامها ، واخرى للمجتمع وهى إضافة قوة حصان آخر الي القوة المحركة لطاحون الاقتصاد الكبرى. لقد أعد لى أيضا زماما ربط به الى هذه الطاحون، ولكني لم ألبث حتى تبينت أنه شناق آزم كاد يخنقني ، فبادرت الى قطعه. عندئذ وضح لى أن العالم بحذافيره أصبح بين يدى مثله كمثل محارة ، كلفت فتحها اقتدارا أو احتيالا بما أوتيت من حول ومن حيلة . بيد أنى وجدتها من شدة الانغلاق وفرط الاستعصاء بحيث كدت أقضى دون الظفر ببغيتى »

فى هذه الكلمة تتجلى خلاصة ما كتب على الاستاذ أن يلاقيه . لقد كان هذا الشاب ذو المواهب العالية والمزاج النارى مثله كمثل مهر فتى جموح نشط من عقاله وخرج هائما من مذوده يريد المرح فى نواحى الارض والضرب فى مناكبها العراض ، ولكنه ما لبث ان وجد فى كل صوب ينتحيه سدوداً منيعة تستبي عينيه من ورائها مراع فيحاء وأكلاء خضراء ، ولكنها محرمة عليه ، فاما أن يجمد في مكانه ريثما يرعى الجوع لحمه ويبرى القحط عظامه ، وأما أن يُجنَّ من الغيظ فلا يزال يتخبط ويتوثب ، ويناطح من السدود كل صخرة صماء ، ويصادم من الأسوار كل صفاة صلداء ، فلا يبوء الا بتهشيم أعضائه وتمزيق أشلائه ، حتى وفق أخيراً الى اقتحامها باعجوبة بعد بذل الالوف من المحاولات ومعاناة الاهوال من الآلام ، فخرج يمحص لا فيما كان يتخيل من مراتع رغيدة ومروج سعيدة ولكن على كل حال فى فضاء معشب تُستمرأ فيه حلاوة الحرية وإن مازجتها مرارة الفاقة . وجملة

القول أن تيوفلسدروخ بعد أن نبذ مهنة القانون الق نفسه فى فلاة بهماء ليس فيها من العمل الصالح مرشد ظاهرى ، ولا فيها من الايمان الراسخ مرشد باطنى . لقد كانت الضرورة تسوقه اعنف السوق ، ولا غرو فما كان للزمن ولا لابن الزمن أن يتريث ويقف ، وكيف بالوقوف لمن لا تزال تحدوه وتوفزه ، وتنخسه وتحفزه ، وجدانات مستعرة لا شفاء لغليلها ، وملكات متقدة لا عمل لعاطلها ؟ وهكذا كتب عليه كما كتب على غيره ، أن يمثل تلك الرواية الرهيبة « لا غاية ولا راحة » ، وأن يمر فى أدوارها المتتابعة ، ويخرج من خاتمتها الفاجعة ، مستنبطاً منها ما استطاع من عبرة وموعظة .

بيد أنا نقول انصافاً لصاحبنا أنه كان معذوراً بعض العذر فيما أتاه ، وأن الشناق لم يكن على عنقه بالخفيف الوطأة ولا بالهين الحمل ، فلا بدع أن يضطر الى قطعه . لقد وجد نفسه أثر تخرجه من الجامعة وبعد نجاحه الباهر فى الامتحان فى موقف لا يحسد عليه انسان ، يبحث عن العمل فلا يجده ، ويلتمس المرتزق فلا يؤاتيه ، وما كان لمثله ، وهو المقطوع الصلة بكل صاحب منزلة وجاه ، أن يأمل من الانتظار كثيراً . والظاهر أنه كان يعيش يومئذ فى عزلة عن اقرانه ، وذلك حيث يقول « لقد كان أترابى من خريجى الجامعة لا هم لهم فى غير المطعم والملبس . أما غير ذلك من دلائل الحياه فقد خلت منه جعبتهم ، وأجدبت منه طينتهم . لله در تلك العيون المحملقة ! لقد كانت مع شدة تحديقها لا تبدى من التفكير بصيصاً . وكيف بالتفكير لمن هو كليل الحواس عن إدراك معالى الأمور وبواطنها ، وجلائل الشئون ودقائقها ، كل ما يستطيعه أن يستنشق خفي ريح الترقية مقبلة من أبعد البعد ؟ » ألا يجد القارىء في هذه الكلمة ما ينم عن مرارة الحفيظة المهتاجة ،

وتألم الكرامة المجروحة ؟ لاجرم أن هؤلاء الزملاء كانوا يسخرون من صاحبنا ومن غريب أطواره ، بل لعلهم حاولوا أن يبغضوه ، وأن يفعلوا ماهو أشد من ذلك استحالة : أن يحتقروه . والمؤكد على كل حال أن الثرى فيما بينهم وبينه كان لا يصلح لا نبات صداقة أو مودة . لقد انفصل الفتى عن سرب الجراء ، ولم يكن يُدرى بعد هل هو من أشبال الاسود أو من جراء الذئاب؟

والظاهر أنه كان مفرط الحياء والكبرياء ، حمى الأنف أشم المعطس ، شديد الاعتداد باستقلاله وكرامته . ولم يلبث اولئك الوجهاء الذين كانوا يلحظون تقدمه في الجامعة ان تحولوا عنه ، وقطعوا كل أمل من استصلاحه لتلوثه فى نظرهم « بداء العبقرية » . ' هذا التصرف يحتج الاستاذ فى الكلمة الآتية:

«كأن الأ ... ، كأن الجم الكثير لا يحتوى النزر اليسير ، كأن من يستطيع ... ج فى عنان السماء ، لا يستطيع السير على اديم الغبراء ! ولكن الدنيا عجوز خرقاء كانت تحسب كل درهم مذهَّب ديناراً خالصاً ، فلما طال عليها الغش نزعت ثقتها من الدنانير جملة وأقسمت لا تتعامل بغير نقود النحاس »

ولعل القاريء يتساءل كيف استطاع هذا النابغة السماوى الطيار ، وقد رفض القوم قبوله بينهم كعامل ارضى سيار ، أن يظل سابحاً في الجو دون أن يختفى عن العيان ، ويذهب حيث ذهب القارظان ؟ وجوابنا على ذلك أن هذا لغز ليس له فى هذا الخليط من الوثائق حل جلي . وسواء ا كان صاحبنا يستعين على العيش بأعطاء دروس خاصة ، أم بترجمة بعض المؤلفات القيِّمة ، فالمؤكد — كما يقول — أنه لم يقع فريسة الجوع ، بدليل بقائه حتى اليوم فى قيد الحياة . والظاهر أنه لم يكن صفر اليدين من النقود كما يستنتج من اشتمال

الوثائق على طائفة من قوائم الحساب لبعض الفنادق ، عثرنا بينها على رقعتين وصلتا اليه يومئذ من بعض ذوى المقامات ، إحداهما إعتذار عن عدم استطاعة كاتبها الوفاء بما وعده من المساعدة على الاشتغال بعمل يليق بنبوغه ومستقبله ، والاخرى دعوة إلى حفلة شاى من الأسرة التي مت اليها بالقرابة هر توجود زميله بالجامعة .

على هذا الوجه التهكمى كان جواب استصراخه ، وتلبية استنجاده : كأس من سخيف الشراب بدلا من غذىّ الطعام الذى تلتوى من شدة الحاجة اليه امعاؤه ، ودعوة الى حفلة سمر ومفاكهة بدلا من العمل الذى كادت تصدأ من فرط الافتقار اليه اعضاؤه . وقد أجاب تيوفاسدروخ هذه الدعوة ولكننا لا نستطيع الامن باب التخمين أن نتصور كيف كان موقفه ، وقد بات مع الضرورة القاسية فى صراع ناشب ، وسط الحاضرين هنالك من هواة الادب وعشاق الموسيقى من كلا الجنسين ، كأنه أسد جائع دعي الى وليمة عشبية بين ربرب من الظباء والغزلان . لعله التزم الصمت ولم يخرج مخالبه من اغمادها ، والأرجح أكبر الظن أن لم يُعملها فى العشب بل في الربرب .

ندع هذا جانبا ونستمع قول الاستاذ « لقد كان العالم كله فى نظرى لغزاً هائلا كلغز ابى الهول ، إما أن أفوز بفك طلاسمه وأما أن اقع فريسة بين براثنه . وكانت الحياة لا تزال تنكشف لخاطرى عن روائقها وروائعها ، عن أنوارها المتضرجة تتخلل غياهبها المدلهمة . وكان فى نفسى تناقض غريب لا أجد بعد الى حله سبيلا ، ولم أكن أدرى أن الموسيقى الروحانية انما تنشأ عن ائتلاف متنافر الانغام واتساق متباين الألحان ، وانه لولا الشر ما كان الخير ، ولولا بشاعة المعركة ما كان جمال النصر »

ويقول الأستاذ فى موضع آخر «سمعت بعض الناس يؤكدون (على سبيل المزاح طبعاً) انه لوكان من المستطاع اعتقال جميع الشبان من سن التاسعة عشرة فى براميل تكفأ عليهم، أو اخفاؤهم باى طريقة أخرى تريحنا منهم، حتى اذا بلغوا الخامسة والعشرين أخرجوا الى الدنيا أرجح أحلاما وأرصن وقاراً، لكان للناس فى ذلك مزيد وافر من الصفاء والهناء. وغنى عن البيان أنى لاأوافق البتة على هذا الاقتراح كخطة عملية، بيد أنى أقول اذا كانت الفتاة تبلغ فى شرخ الشباب عنفوان الحسن والظرف والملاحة، ففى ذلك الأوان يستوفى الفتى أقصى غايات الرذالة والسماجة والوقاحة. فبينما تراه أبله من الحبارى واحمق من الطاووس، اذا به أشره من العقاب حبا فى الملاهى وشغفا باللذات، قد نفخه التيه والكبر، وملأه العجب والفخر، وجمح به العناد والاباء، وتمادى به التبجح والادعاء، فهو فى جميع أموره متهوس أحمق، متهور أخرق. ومن العجب العجاب ان ذلك الحدث المغرور الذى لم يبذل بعد جهدا ولم يحاول سعيا لايعجبه من مساعى الغير شيء، بل لايزال يدعي لنفسه التفوق عليهم، زاعما انه لوكانت مساعيهم جديرة بهمته لبلغ بها أوج الاعجاز وذروة الأتقان. ثم لايفتأ يرى الحياة من الهنات الهينات، وانها من فرط البساطة أسهل من القاعدة الثلاثية، ما عليك الا أن تضرب الحد الثانى فى الثالث ثم أن تقسم الحاصل على الحد الاول يكن خارج القسمة هو الجواب فان لم تحصل عليه فانت فى زعمه اجهل من دابة واحمق من بهيمة. بعداً له من غر مغفل، لم تعلمه التجارب انه مهما يفعل فلن يبرح لديه كسر مشؤم، يكون فى الغالب عشريا دائرا، وانه من العبث محاولة الحصول على ناتج صحيح، بل من العبث التفكير فى ذلك!»

لاريب أن تيوفلسدروخ كان في ذلك المهد يقاسي من الهموم والعراقيل عناء شديدا ، والا فكيف يعلل قوله : « سنة الطبيعة لامغير لها ولامبدل ، وهي أن ماندعوه الوقت أو الدهر لايزال يلتهم أبناءه ، لامنجاة لك منه الا بمواصلة العدو ، بمواصلة العمل ، سبعين عاما أو نحو ذلك . وحتى اذا فعلت لم تستطع في النهاية الافلات من قبضته . هل في مقدور اى مليك ، أو أى تحالف مقدس من الملوك ، ان يأمروا الوقت بالوقوف ، وان يتحرروا من قيده ولو في الوهم ؟ ألا ان الحياة الدنيا قائمة بحذافيرها على الوقت ، ومشيدة من عنصر الوقت ، وانما هي في مجموعها حركة ودفعة من دفعات الوقت ، الوقت مصدرها والوقت مادتها . ومن ثم كان واجبنا جميعاً ان نتحرك ، أن نعمل ـ في الاتجاه القويم . أليست أبداننا ، بل أرواحنا ، في حركة مستمرة ، شئنا ذلك اولم نشأ ؟ أليست حياتنا كلها موجة قلقة بين جزر ومد ، بين فقد مستمر وتعويض مستمر ؟ أليس أوفى ما نستطيع بلوغه من إشباع مطالبنا الظاهرية والباطنية انما هو إشباع لأجل مسمى ، لوقت معلوم ، فمهما نفعل لايلبث أن يطيح به الوقت ، ويصبح بالنسبة الينا في حكم المعدوم ، فلا نزال في حاجة الى استئناف المضى والعمل من جديد ؟ أيها الوقت ! أيها الوقت ! كيف احطت بنا ، وسجنت أرواحنا ، وأغرقتنا في أعماق لجتك المضطربة الحالكة ، حتى أمسينا لانستطيع أن نختلس ولو لمحة من أوطاننا السماوية الا في أحايين الافاقة وما أندرها ؟ لقد كنت ، وأنا احد أبناء الوقت أشق خطا من كثيرين سواى ، وكان الوقت يؤذن بالتهامي قبل الاوان ، فأني مهما بذلت من المجهود ما كنت لأستطيع الى العدو سبيلا ، من فرط مابث في طريق من العقبات ومن ثقل ماعلق بقدمي من الاصفاد . » لعل الاستاذ يقصد ، على

مارجح ،أن يقول باللغة المتعارفة بين أهل الدنيا ان الواجب كان يقضي عليه، كما كان يقضى على سائر الناس، بان يعمل ويسعى في الاتجاه القويم، ولكنه بعد طول البحث لم يجد عملا، فانقلب تعسا شقيا. ولا بدع ان يكون هذا مصير من لم يزل شبح الجوع المخوف ماثلا على البعد يهدده، ومن كانت روحه الجياشة تعانى من القلق والبطالة نزعات الذبول والاحتضار

كالنار تأكل بعضها ان لم تجد ما تأكله

« وكنت حتى هذه الساعة معروفاً بين عشرائى وخلطائى بالميل الى الدعة والسكون، وكانوا يأخذون على ذلك الميل، ويقولون انه بئس المعبر عن وجداناتى الملتهبة وعواطفي الحادة. والواقع أنى كنت أنظر الى الناس بحب مفرط وخوف مفرط. ولا غرو فكل من يدرك من روعة الجلال السرمدى طرفا جدير أن ينظر الى شخص الانسان بعين التقديس. وكان القوم كثيراً ماوجهون إلىَّ اللوم، وأحيانا يستشعرون لى البغض، لما كانوا يحسبونه فىَّ جموداً وجفاء، ولما كنت قداعتدته فى حديثى من لهجة تنم في الظاهر عن تهكم وتهجم وان لم تكن فى الباطن الا درعا أعددتها لنفسى حتى يتسني لشخصى الضعيف أن يعيش فى حماها مطمئنا آمنا، موادعا مسالماً، لا تستفزه قوارص الغير ولا يستفز الغير بقوارصه. بيد أني قد عرفت الآن أن التهكم هو فى الجملة لغة الشيطان، فاقلعت عنه وآليت أن لا أقربه. وكم من امرىء قد أثرت في تلك الأيام حفيظته، واجتلبت بتلك اللهجة عداوته ! ان الكهل المتهكم ذا السكينة الماكرة والأساليب الخادعة لخليق بان يعد آفة المجتمع، فكيف بالشاب الذى يستبدل خشونة التهكم بنعومة الغرارة، وحرافة المكر بحلاوة السذاجة. أو لم نشاهد رجالامن ذوى

الاقدار يتقدمون فى رفق ووقار ، ومرادهم أن يطئوا بأرجلهم أحد هؤلاء المتهكمين من الشبان ، وأن يطهروا المجلس من تلك الهناة الحقيرة والحشرة المرذولة، فلا يروعهم الا انفجاره ، كأنه قنبلة أوطور بيد، فاذاهم قدطاحوا فى الجو صعداً ثم خروا على الأرض صبباً ، مهشمي الجوارح ممزقى الأعصاب ، ضائعى الرشد مفقودى الصواب ! »

ويلاه ! كيف يستطيع من لهمثل هذا المزاج الشيطانى والطبع النارى أن يمهدلنفسه فى الحياة سبيلا ؟

الفصل الخامس

(عهد الغرام)

« وكذلك ظل الفتى فى سبيل البحث عن العمل سنين طوالا ينتظر وينتظر ، ويعانى أبرح الآلام من هم وضجر ، حتى خطر بباله ذات يوم : لماذا كل هذا ؟ لأجل الخبز والدفء ! أو ليس في غير هذا المكان من أرض الله ذات الطول والعرض ما يقوم باطعامك وادفائك ؟ لقد عقدت النية على التجربة ، قضى الله ما قضى! »

لقد اتيح لنا إذن أن نشاهد تيوفلسدروخ مستقلا بنفسه في ظروف جديدة . نعم لقد قضى الامر ، فانفصل الفتى عن قافلة السفن حيث كان مكانه المتخلف في المؤخرة لا يبعث على عظيم الرضى ، وأخذ الآن يمخر عباب اليم في طريق منفرد معتمدا على ما أوتى من هداية ومقدرة . ويل لك أيها

المخاطر المنكود ! لئن كنت لا تزال تتبرم بالقافلة ومهمتها ، وتتسخط على ربابنتها ونواتيتها أو لم تكن هي على كل حال تسبح فى طريق معبّدة لأغراض معينة ويتماون أفرادها جميعاً أخذاً وعطاء وإرشاداً واستئناساً ؟ ماذا أنت اليوم صانع ، وأنى تسلك بمفردك فى مجاهل الدأماء ، ومهامة اللجة الخضراء ، بل كيف تهتدى الى الطريق المختصر لضالتك المنشودة من جزائر السعادة ؟ لا جرم أن تقع لمثل هذا الجواب الجوال، المخاطر بنفسه بين المهالك والأهوال، حوادث وعجائب واقفةله بالمرصاد . بل ها هو لا يكاد يخطو أول خطوة حتى تعترضه جزيرة مسحورة توقف تقدمه ، فتفسد عليه كل تدابيره ، وتقلب خطته رأساً على عقب .

« اذا كانت الحياة لا تزال تتكشف فى ريعان الشباب عن محاسن بهجتها، واذا كانت جنة الخلد لا تزال تتجلى للفتى على كل بقعة من الارض فى مفاتن روعتها ، فان هذا التجلي لا يتم في صورة هي أسرع وأبرع منه في صورة الغادة الحسناء . لطالما قلت إن الانسان هو أبداً فى نظر أخيه الانسان مهبط روح القدس، وإن سراً إلهياً ليربط كل نفس الى أخواتها بروابط المحبة والأنس. بيد أن هـذا التجاذب السماوي والتآلف الروحانى لا يصير ضراما مشرقا ، ولا ينبعث لهيباً متألقا، الا فى هذا التقارب بين الجنس وضده، كما يورى الشرر بين السالب والموجب . أفتحسب فى استطاعتك أن لا تحفل حتى بأحقر انسان ؟ أليس من أحب آمالك أن تجعله وإياك شخصاً واحداً بأن تضمه اليك ولو بأسباب الرهبة إن لم يكن بدواعى المحبة ، أو ان تنضم أنت اليه اذا أعيتك الحيلة في جذبه الى نفسك . واذا كانت الحال كذلك بين العشراء والخلطاء فكيف بها فى هـذا التقارب بين الجنس وضده ! الا ان فى هـذا التقارب

اشرف مايعرف فى الارض من تآلف والتئام ، واسمى ما تطيقه الطبيعة البشرية من اتحاد وانضمام . نعم فى هذا الوسط الموصل بين مختلف الجنسين، كما فى الوسط الموصل بين مختلف السلكين ، تشتعل نار الكهربائية الروحانية، تلك التى يسرى تيارها السيال فى انحاء الكون اجمع، والتى ندعوها اذا هى انقدحت بين الرجل والمرأة عاطفة الحب !

« وأكبر ظنى أنه مامن شاب الا وتشرق فى مسرح خياله جنة قصية غناء ، وروضة قدسية فيحاء ، تخلع عليها حلة الأنس والبهاء ، حورية من من بنات حواء ، ويتراءى من خلال مسالكها الظليلة الوريقة ، ومن فروج خمائلها المنورة الأنيقة ، « شجرة المعرفة » ماثلة فى جلال وروعة ، وجمال ورقة . ولقد يزيد المنظر فتنة وحسنا لو قام على خفارته « ملاك حارس » وحال بينه وبين عابرة السبيل «حسام ملتهب» ، فيظل الفتى وكل ما يستطيعه أن يحظى بمتعة النظر دون الدخول، ويتملى بنعمة المشاهدة دون الوصول. سقيت الغيث ياعهد الشباب والفضيلة ! إذ لا يزال الحياء ذلك الحجاب الآلهى المنيع ، وإذ قصور الامل وشرفاته الرفيعة لاتزال قائمة فى جمالها المقدس ، لم تتضاءل ولم تدنس، ولم تتكشف لاعيننا المفيقة، عن حقير أكواخ الحقيقة ، واذ لايزال الانسان بطبعه ذلك الكائن الطليق الحر ، لا تحده غاية ، ولا تحصره نهاية !

« أما صاحبنا الفتى البائس (يعنى نفسه بلا نزاع) فقد كان ، ولا يزال، شعوره تلقاء مليكات الأرض مما يعجز الوصف عن تصويره . ولا عجب أن يكون هذا شأن امرىء آثر العزلة عن الخلق ، وأوتى مع ذلك خيالا توهجا ، لا يزيده احتراقه فى الخفاء الا تأججاً . لقد كان يرى فيهن لألاء

النور اللذي ساطعاً يخطف الأبصار، وكن جميعاً في نظره مقدسات روحانيات، مطهرات سماويات، ولم يكن عهده بهن يتجاوز لمحهن لحا وهن ينسبن بجانبه انسيابا في رياشهن الملائكي المفتن التلاوين البديع التزايين، أو وهن يحمن على أطراف حفلات الشاي بعيدات المنال، محفوفات بهالات الجلال، كلهن هواء ونور، ونسيم وعبير، أرواح مترقرقة، في صور متألقة، فاتنات ساحرات، كأنهن كاهنات مهيبات، في أيديهن ذلك المعراج العجيب يرقى عليه الفتى فينال أسباب السماء! هكذا كان شأن الحسان في نظره. وما كان ليهجس في وهمه، وهو ذلك البائس المسكين، ان يوفق ذات يوم الى الظفر باحداهن، بل كان مجرد سنوح هذا الخاطر يتركه وكأن الأرض الفضاء به تدور، ولقد يخيل اليه انه لو تم ذلك لخر صعقا، وفاضت الروح الى بارئها.

« وهكذا كان الفتى، على انكاره ماتؤمن العامة بوجوده من ملائكة وشياطين، لاتزال تزوره أسراب من الاطياف السماوية، والأرواح العلوية ترفرف حواليه، على مرأي من عينيه، ومسمع من أذنيه، أينما راح وحيثما اغتدى. وكان يلحظها بعين غضيضة الطرف خشية وخشوعا، وقلب خفاق الجوانح تعبداً وخضوعا. ولكن هب أن احدى أولئك الحسان المصورات من نور وبهاء، المجسمات من شعاع وهواء، القت عليه من سواجي ألحاظها نظرة مكهربة توحي الى قلبه (لا بأس عليك أيها المنزوي فقد أبيح لك أنت أيضاً أن تحب وأن تحب) ترى اذن أي نار بركانية، قاصفة الرجفات، ناسفة اللفحات، كانت تنقدح يومذاك وتندلع! »

والواقع أن مثل هذه النار، وما يتلوها من فرقعات وانفجارات، قد

شبت بالفعل فى صدر هرديا جونز ، وهل كان عن ذلك مندوحة ؟ لقد كان ذلك الصدر (وليعذرنا القارىء اذا نحن جارينا الاستاذ قليلا فى أسلوبه المجازى) يحوى قدرا لا يستهان به من حرُوق الحدة ومن نترات الوجد ومن كبريتات الدعابة ، وكل ذلك فى مستقر حار ، على مقربة من فرن خيال ملتهب . فهل عجب أن يتألف من هذه العناصر الحامية ما يكفى لتركيب أجف نوع من البارود ، بل أقوى صنف من الديناميت ، حتى لا تكاد تقترب منه أدنى شرارة — وما الشرر بالنادر فى هذه الحياة — حتى يتقد فينفجر .

نعم لم يكن ثمة شك فى أن ملاكا من هذه الملائكة الحائمة حواليه ، المرفرفة على مرأى عينيه ، سوف يعمد يوما من الايام الى الاقتراب من هذا الخامل المنزوى ، وهنالك يشعل بنظرة من تلكم النظرات السماوية الثاقبة نارا ماأخطر شأنها ! فطوبى له يومئذ لو تكشف امرها عن نار كنار السواريخ تتعاقب انفجاراتها المأمونة فى رونق بديع السنا ، ومنظر انيق المجتلى ، خلال الادوار المتوالية لحب فتى سعيد ، حتى تنفد مادتها ، وتهمد جذوتها ، وتخرج الروح الفتية سليمة لم يصبها اذى . أجل طوبى له لو ان الامر لم ينكشف عن حريق هائل وانفجار مروع ، عن نار تمزق اعشار الفؤاد كل ممزق ، وذلك هو الموت — أو تصدع الغشاء الرقيق «لفرن ذلك الخيال الملتهب» فتندلع لواهبه وتظل تعيث مطلقة العنان فيما جاورها من المفرقعات ، وذلك هو الجنون ، حتى لايبقى من ذلك الهيكل البديع الرائع الا بقية رماد هاب ، أو فوهة بركان خاب .

وهكذ شاءت المقادير ان يقع فيلسوفنا فى شراك الغرام، وأن يصيبه جنون الحب المستعر. فاحب حبا ملك عليه عقله ونهاه، واستهلك لبه وحجاه. ولكنها مرة واحدة، مرة لم تعقبها ثانية. وكذلك شأن القلب الآدمى لا يستطيع ان يعرف الحب الصحيح، الحب الصادق العميق، الامرة واحدة. وما كان للرشفة الاولى من كأس الغرام ان تعادلها فى الحلاوة رشفة أخرى. فلا عجب أن نرى الفيلسوف بعد هذه الحادثة الغرامية الفذة قد أغلق فؤاده دون دواعى الصبابة، بل سد سمعه دون هواتف الغزل والدعابة، وبات يعتد النساء لا أكثر ولا أقل من طرف فنية بديعة، لا بأس عليه أذا هو متع ناظريه بمشاهدتها في المعارض، ولكنه لا يفكر قط في اقتناء شيء منها فى بيته.

وكأنى بالقارىء يتلهف شوقا الى معرفة ما أحاط بهذا الحادث من الظروف، وما تضمن من التفاصيل، وعلى الاخص باى المناسبات ولأي الاسباب كان التقاء العاشق بالمعشوق، وكيف كان موقفهما فى ذلك الملتقى. ولكن الفيلسوف، كعادته دائما، يتركنا من هذا الامر في حيرة حيراء، ويكتفى بايراد هذه الكلمة الموجزة «لقد كتب فى لوح القضاء ان يقاطع مدار كوكبها السماوى الاعلى مدار كوكبه الارضى الادنى، وان يخيل اليه وقد أطل فى أعماق الحاظها الصافيات ان سبحات الانوار العليا، قد هبطت الى مساحب الظلال السفلي، حتى اذا انكشف له خطؤه أنشأ يملأ الدنيا عويلا ولجبا»

ولقد يظهر ان المعشوقة كانت فتاة فى مقتبل الشباب وريعان الجمال من بيت نبيل ومحتد كريم، ولكنها لم تكن من ذوات الثراء، ولعلها كانت تعيش فى كنف أقرباء لها من ذوى النشب والجاه: على اننا لا ندرى

كيف كان التقاؤه بها . ولعل الامر قد حدث من باب المصادفة . وحسب القارىء ان يسمع من فم الاستاذ هذه الكلمة في وصف القصر الفاخر حيث كانت تقيم الحسناء:

«أيها القصر النبيل! من ذا الذي مر بك في جمالك وروعتك، وحسنك وهيبتك ، الاحبس خطاه ووقف بين يديك متأملا متعجباً ؟ لكأني أراك الساعة ماثلا هنالك في أحضان ذلك المدرّج الجبلي العميق تحيط بك العزلة الصافية، وتحنو عليك الظلال الضافية، وقد ارتفعت شواهق شرفاتك المرمرية، وبواذج جدرانك الجرانيتية . تلمع في أشعة الشمس الراحلة ، كأنك من قصور الفردوس بنيت بآجر النضار وغشيت بذوب الذهب . ويالله ماأميلح تلك الروابي المشرفة عليك ، والقلاع الحارسة لك ، تنهض سفوحها الخضراء متدرجة متموجة ، قد اتّزرت بالعشب النضير، وترصعت بالحصباء والصخور، وازدانت ههنا وهنا بأيكات منفردات تبسط على الارض ظلها الظليل . بلى أيها القصر لقد كنت لهذا الحائر المتجول كمعبد ممنون في صحراء حياته المحرقة ، وكنت تضم بين جدرانك لوح قضائه المحتوم قد جرى فيه القلم بسعادته وشقائه، وسرائه وضرائه : فما كان أجدره بالوقوف والتأمل لو كان يدرى ماخبأت له من عذاب ونعيم ! »

وليتصور القارىء أن صاحبنا الفيلسوف دعى الى حفلة شاى بهذا القصر فادخل في حديقته ، فالفى نفسه في مجلس زاهر قد ضم جماعة من صفوة الفتيات والفتيان ، يتجاذبون أحاسن الحديث ويستمعون أطايب الألحان والظاهر ان الحديقة لم تكن دون القصر بهجة وبهاء، وورونقا وسناء، وذلك حيث يقول الاستاذ : —

« تحت ناضر الايك وأثيث الاغصان ، وبين عاطر الزهر وعبق الريحان ، كان يجلس أولئك الاماجد يروقهم من بدائع الالوان كل مجلى أنيق، وتحييهم من نوافح الانوار أمثال نفحات المسك الفتيق ، وتتراءى لهم من خلال الابواب المفتحة مناظر يرود فيها الطرف ويمرح ، وترتع فيها العين وتسرح، من خمائل غناء ، ورياض لفاء ، ومروج خضراء ، وسيوح زرقاء، وكل شيء هنالك قد أشرقت ديباجته. وانجلت صفحته، وترقرق ماؤه، وتألق لألاؤه ، وقد ارتفعت من كل صوب وناحية تغاريد الطيور فرحة طربى، وأرانين الهوام سعيدة جذلى ، حتى لكأن الانسان قد اختلس من الدهر ساعة هنيئة، واسترق من الحوادث لحظة بريئة، وآوى الى أحضان السعادة مستقرا من صدرها فى مكان أثير ، ومضطجع وثير .

« وما هى الا لحظة حتى قدم صاحبنا الى القوم وفيهم – بلومين ! وكانت جالسة فى تواضع رقتها ، ومهابة روعتها ، بين اترابها وصواحبها كالكوكب الوهاج بين مصابيح الثرى، فتقدم اليها منحنيا بجسمه وروحه ، لا يكاد يجرأ على رفع بصره الغضيض ، لفرط ماشاع فى قلبه من ارتباك مستلذ واضطراب مستعذب .

«وما كان اسم هذه الحسناء بالجديد على مسمعه . لقد سار ذكرها فى كل ناد ومحفل ، ولهج بوصفها كل لسان ومقول ، فمن متحدث عما اوتيت من محاسن وهبات ، ومن متندر بما ركب فى طبعها من اهواء ونزوات . فكان صاحبنا قد صور لنفسه من الوان هذه الاشاعات الغامضة ، مدحا كانت أم قدحا ، ثناء كانت أم نقدا ، صورة رائعة ، أخاذة بمجامع الافئدة ، تملأ الجنان رهبة وخشوعا . وكان قد رأى شخصها من قبل رأى العين في

منتديات المدينة ومحافلها ، فشاهد ذلك القوام الاهيف المهيب ، وتلك الغدائر الوحفة الفاحمة ، تظلل وجها تلعب فيه الضحكات والانوار ، على متن اعماق سحيقة من الجد والوقار . بيد أن هذا كله كان يتراءى له كتهاويل السحر واضغاث الاحلام ، لاسبيل الى ادراكه ، بل لاحقيقة لوجوده . نعم لقد كانت الشمس فى بيت عزها ادنى اليه منالاً ، واسهل عليه مراما ، فما كان ليهجس بوهمه أن يلتقى بها ولو فى العمر مرة ، وما كان ليسمو بأمله الى أن يخطر ذكره على بالها خطرة ! ولـكن هكذا شاءت الاقدار، فاذا به الساعة جالس واياها فى حلقة واحدة، ان بسمت شملته أنوار بسمتها ؛ وان لفظت وقع فى اذنه رنين لفظتها . ثم اذا كانت الشمس وهى فى سماء مجدها لاتستنكف أن تطل فى أحط الوديان ، وأوضع القيعان ، فمن ذا الذى يدرى لعل هذه الحسناء كانت قد لاحظت قبل اليوم هذا الخامل المغمور ، ولعلها سمعت من أفواه حاسديه وشانئيه ، كما سمع هو من أفواه حاسديها وشانئيها، ما أثار عجبها منه وأعجابها به . ترى اذن هل كان التجاذب مشتركا ، وثوران العواطف متبادلا ، هل كان القطبان المختلفان يرعشان وقد أدنى أحدهما من الآخر حنيا الى العناق ، ويهتزان شوقا الى الالتصاق ؟ أو قل هل كان القلب يجيش جيشانا فى حضرة مليكة القلوب ، كما يجيش صدر البحر اذا هو اقترب من مدار القمر ؟ نعم لقد كان هذا شأن صاحبنا ، لقد أحس كانما قد لمسته لمسة من عصا السحر ، فاذا بروحه قد ثارت من اعماق مكامنها ، واذا بكل ماهنالك من لذة وألم ، ونعيم وعذاب ، وذكريات غامضة لـكل غابر ماض ، واحساسات مبهمة بـكل قادم آت ، تصطفق وتثور ، وتلتطم وتمور ، فى أمواج زاخرات ، ودوامات دائرات .

« ولطالما كان صاحبنا قد شهد قبل هـذا الموقف مواقف أقل إثارة

للعواطف ، فكان يعروه فيها تهيب وانقباض ، وكان يبادر الى إخفاء اضطرابه وارتباكه وراء ستر صفيق من السكوت ، بل خلف حجاب كثيف من الجمود . فلماذا إذن ، وقد راح فى هذا الموقف ينتفض من أعماق سريرته، لم يسقط فى مصرع الاغماء، بل جعل يصعد فى معارج القوة والشجاعة والبيان ؟ لاجرم إن شيطانه قد هتف به حينذاك ان أبرز من مكمنك ولاق ما ساقه لك الحظ ، هذه ساعة الاقدام فاما أن تظهر وإما أن تتوارى آخر الدهر ! وكذلك تأتى على الانسان أحيان يبلغ فيها وجده من الطغيان مبلغاً يستفز الروح من رقدتها ، حتى تشعر لأول مرة انها تفوق هذا الوجد بطشاً وقوة ، فاذا هى قد ظهرت عليه وسمت عنه تحملها أجنحة النصر فى هالة الفوز ، وتسبح بها سبحاً مفرط الهدوء من شدة إسراعه ، مفرط اللين من شدة اندفاعه . وان صاحبنا ليذكر بمزيد الدهش والارتياح كيف كان اذ ذاك لا يلتزم الصمت كعادته ، بل ينغمس في تيار الحديث بلباقة ، فاذا هو قد قبض على ناصيته يصرف كيف شاء زمامه . لا ريب أن وحياً من السماء كان ينزل عليه فى تلك الساعات يلهمه الحكمة والصواب ، وينطق على لسانه بفصل الخطاب، فتظل نفسه المطوية تنشر مكنون خواطرها فى معنى جليل ، ولفظ نبيل ، وعبارة مشرقة بهية ، وديباجة مصقولة طلية ، وتعود روحه وكأنها بحر من النور يتلألأ ، هو مقر الحق ومنبع الحجى، تطلع من جوفه أطياف الخيال صورة أثر صورة، فى وشى بديع التلاوين ، وورونق باهر التحاسين»

والظاهر ان بعض المتقعرين كان يعكر صفاء المجلس بوابل من حديثه المملول ، غير دار أي بطل مخيف قد أقبل الساعة ليزعزع أركانه ويهدم كيانه بما جعل يصوب عليه من نكات لاذعة ، وتهكمات قارعة ، لم تلبث ان أغرته

بالصمت أولا ، ثم لم تتركه حتى حملته على الانسحاب أخيراً . وذلك حيث يقول صاحبنا « ولقد كان انخذال ذلك اللجوج المماحك مدعاة ارتياح الحاضرين ، ولكن أي قيمة كانت لمستطاب ثنائهم ومستعذب إطرائهم بجانب تلك الابتسامة الحلوة الجذلى التي كافأت بها الحسناء هذا البطل المنتصر على جميل صنيعه وحسن بلائه ؟ لقد جرأته هذه الابتسامة على توجيه الخطاب اليها ، فأقبلت عليه والتفتت اليه بل ليت شعري أكان فى ذلك الصوت الرنان رعشة خفيفة ، وهل كانت حمرة الشفق تخفى على ذلك الخد الأسيل خجلة طفيفة!

« ثم اتجه تيار الحديث الى مناح سامية ، في معرض من المعانى بديع ، حيث المعنى يبعث المعنى ، والفكرة تقدح الفكرة . وكانت لحظة من تلك اللحظات النادرة إذ تتفتح أغلاق النفوس ، ويشعر الانسان بأنه اقترب من أخيه الانسان . وكذلك ظلت كؤوس الأحاديث تدور على المجلس مشعشعة رائقة ، نيرة صافية ، وقد ارتحل عن كل صدر همه ، وانزاح عن كل قلب عبؤه ، وذابت حواجز الكلفة فتمازجت النفوس ، وتلاشت حوائل الانقباض فتعانقت القلوب ، وترامت الحياة على مدى البصر مفتنة الالوان ، منسقة النظام ، كأنها قطعة من الفردوس ليس فيها لغير الحب سلطان ! مثل هذه الموسيقى خليقة أن ترن في جوانب النفوس الكريمة متى طاب لها الزمان والمكان . بيد أنه ما كاد الضوء يترقرق على رؤوس الرعان ، والظلال تستطيل فى بطون الوديان ، حتى دب فى كل قلب دبيب من الحزن والشجى ، وتمشت فى الجوانح وسوسة تذكر كل امرىء بأنه كما يوشك هذا اليوم المشرق البهى أن يفضى الى غايته من ظلمة وسكون ، كذلك يوم الحياة لا محالة صائر الى الاضمحلال فالزوال ، وكذلك هموم الانسان وأبراحه ، وأفراحه وأتراحه ،

لا محالة مفضية الى ظلمة القبر وسكون الأبدية .

« وكانت الساعات تمر على صاحبنا مر اللحظات ، لفرط شعوره بالسعادة والطهارة ، وكانت الالفاظ تهبط عليه من تينك الشفتين الحلوتين كما يتساقط الندى على العشب الظمآن ، وظل يخيل اليه ان كل ما فيه من كريم العواطف وشريف الوجدانات راح يهمس في أذنه « طوبى لك فقد طبت مجلساً وكرمت مقاماً » ولما نهضوا للوداع اذا بيد الحسناء في يده ، وكان الجو يعبق بأنفاس الغسق ، والنجوم الوديعة تلوح في الأفق ، فطلب اليها معاودة اللقاء ، فلم يقابل طلبه برفض أو إباء ، ثم ضغط في رفق تلك الأنامل الرخصة الناعمة ، فخيل اليه انها لم تسحب من يده بسرعة ، ولم تنتزع من قبضته بعنف »

وارحمتا لك أيها المسكين ! لم يبق شك في ان السهم اصمى فؤادك ، وان مليكة القلوب قد اعتزمت ان ترى بين صرعاها رجلا من ذوى العبقرية فالقت عليك من شباك سحرها ماغادرك موثقا اسيرا . وهنا يقول الفيلسوف «ليس الحب كله ضربا من الخبل ، وان كان يشبهه في كثير من الوجوه . والاولى عندي ان يقال انه اكتشاف غير المحدود في نطاق المحدود ، اكتشاف الكمال الخيالي في شخص الواقع الحقيقي . وهذا الاكتشاف بدوره قد يكون صادقا أو كاذبا ، قد يكون ملائكيا أو شيطانيا ، قد يكون الهاما أو جنونا . بيد انه في كلا الحالين لايخلو من عنصر الوهم ، الوهم الذي يتخذ من الواقع الحقيقي المحدود . نقطة ارتكاز لرافعته الارخميدية ، فيحرك بها عالم الروحانيات غير المحدود . والحقيقة ان الوهم في حياة الانسان باب جنة وباب سعير ، وماحياتنا الحسية الا مسرحا مؤقتاً صغيراً ينصب عليه من هذين البابين سيلان عزيزان من المؤثرات ، يمثلان هنالك مايمثلان من المبكيات المضحكات . ولو كان الامر

مقصورا على الحس لوجد المرء فى الكفاف رضاه ، وفي شظف العيش هناءه ومناه ، ولكن سلط عليه الوهم ، وهو لا ينفعه غلة ولو استولى على ابراج السماء وامتلك ناصية الجوزاء. الا ترى الى بيروس كيف دوخ الامصار، وفتح الاقطار، وهو مع ذلك لا يحتسى من قانى الشراب خيراً مما كان يحتسى؟» بل قل الا ترى اليك ايها المسكين كيف رحت تحلق فى سماء الخيال، وتشرف على حافة الجنون والخبال، كلفا وهياما بفاتنتك الحسناء كانما ليس فى الارض غيرها من الحسان الفاتنات ! »

والظاهر انه كان يلتقى بها فى المدينة كثيرا ، وذلك حيث يقول « وكذلك مر اليوم أثر اليوم وشمس فؤاده المشرقة تغمره بضيائها ، وتخلع عليه من بهائها. بالله! لقد كان منذ لحظة واحدة يتخبط فى حالك الظلام، ولا يطمع من الحسان فى نظرة عطف بله في نظرة غرام ، وكان ضعيف الايمان بكل شىء حتى بنفسه، وكان لعزلته وأنزوائه ، وبأوه وكبريائه ، مع تعرضه لهجمات الهموم والاشجان، والوساوس والاحزان، قد أمسى طافحا بالغم والغيظ قلبه، منقطعا من اعز مآرب الحياة امله .فكيف حالت به الحال وكيف اصبح اليوم القداصبح يحدث نفسه : أنها تلحظنى بنظراتها ، فما أسعدنى بان اكون موضع الرعاية من اجمل ذوات الحسن ، وأنبل ذوات النبل ،الا تناجيني عيونها السوداء لا بأس عليك فما أنت بمحتقر الاافرعاها الله من رسول رحمة وعزاء، وبشير نجاة ونماء وكذلك ظل الفتى تفيض فى قلبه انغام رخيمة ، وتهفو فى صدره نفحات كريمة تحدثه بانه هو أيضا انسان من صلب آدم وحواء، وبانه هو أيضا قد أعد له ما لا ذن سمعت من غبطة وسراء

«وسط هذه المؤثرات من حديث كالسحر الحلال بين جد وفكاهات ،

تصمى القلوب ساجيات، وضحكات كنبرات الالحان صافيات، وعبرات كاللؤلؤ الرطب مترقرقات، يمازج كل هذا من الموسيقي صوتها الاعجم الفصيح، وغناؤها المغنى المريح — ظل صاحبنا في هذا العهد السعيد يغدو ويروح. نعم لقد حالت الحياة، فاذا هي فجر مختلف الالوان ساطع السنا، وإذا بابرع شموس الجمال تغازل صاحبنا الفتى، فاضحى يطالع في نورها البهي سفر الطبيعة المجيد، وظل يضاحكه من مشرقات الاماني كل أمل جديد. لك الله أيتها الحسناء اهل كنت الا كبعض كواكب السماء، نار كلها رفيقة كالماء، وشعاع خضل اللألاء؟ هل كان فيك حتى من العيوب والنزوات، الا ما كان في نظر الفتى محاسن وملاحات؟ أو لم تطلعي عليه كنجمة الصباح الاسني، تستنزل أطيب الالحان من الملأ الأعلى، فاذا أنغام سماوية، كالتي تثيرها أنامل ذكاء الوردية، من عثال ممنونف البرية، ترن حواليه وتملأ أذنيه، وتمهد تحته فراشا من الراحة وثيرا، حتى تغادره في أحضان السعادة ضجيعا، قد انهزمت بين يديه جيوش الشك والهموم، وأزلفت له جنات الآمال والنعيم؟ اذن لقد كان حلما مزعجا كل هذا الماضي، واذن لقد كان الفتى يعيش في جنة الخلد وهو غير ماداري. فما هو الا أن التقى بهذه الحسناء، حتى انجلت عن عينه غشاوة السحر السوداء، فاذا بجدران سجنه المكروب، تماث وتذوب، وإذا بالاسير الموثق، حي يرزق، بل حر مطلق. فياليت شعري أكان الاسير يستشعر لمعتقته حبا وغراما، ولوعة وهياما؟ لقد كان يشعر بان قلبه ومهجته، وحياته وسعادته، كل ذلك ملك لها، وفداء مستعذب في سبيلها، ولكنه ما كان يجرأ على تسمية الامر حبا. ولا غرو فقد كانت حياته كلها عاطفة مبهمة، لم تبرز بعد في صورة فكرة بينة. »

نعم ولـكن بروزها الى حيز الافـكار ، بل حيز الأفعال كان أمرا لا بد منه. فما كان عتيق ولا ممتقة، وكلاهما من أبناء الزمان ، ليستطيعا العيش على مجرد العاطفة والوجدان . والظاهر ان الفيلسوف لا نزال حتى الساعة حيران لا يدرى « كيف استطاعت هذه الحسناء أن تجد فى قلبها اللين الرقيق، وصدرها الحنون الرفيق ، من قوة العزم ومضاء الصريمة ، ما مكنها من قطع هاتيك الصلات المباركة الـكريمة. ويحك أيها الاستاذ ! ان الامر لأوضح من ان يحتاج الى بيان ، فحسبك ان تسائل نفسك قائلا : « هب ان الامر قدر على ما كنت أشتهى ، ففى أية مكانة كانت تنزل ، وَفى أى مظهر كانت تبدو ، مـدام تيوفلسدروخ بين طبقات المجتمع الراقية ، ودوائره العالية ؟ » أم هل كنت تحسب ان حرارة الحب فى الصدور ، تغني عن حرارة الاطعمة فى القدور ؟ أما والله لقد أثبتت حسناؤك يوم آثرت عليك من هو أوسع منك جاها وأوفر نشبا ، انها أصدق منك فلسفة وأثقب نظراً !

لقد شهد القارىء كيف نشأ هذا الغرام ونما ، وجعل يرقى فى رونق بديع المجتلى ، حتى بلغ ذروة السعادة والهنا . فليعذرنا اذا نحن الآن أمسكنا عن وصف مصرعه الوشيك فى حضيض الشقاء ، وانـكداره الوحى فى هاوية الظلماء . لقد رأينا المنطاد المونق البهيج ينهض من الغبراء ، ويختال صاعدا فى الهواء ، ويشق أجواز الفضاء ، حتى بلغ عنان السماء . فماذا ننتظر أن نرى وقد انفجر اما بعامل طبيعى أو لحادث عرضى، فهوى ممزق الاشلاء كل ممزق ، مفرق الاوصال كل مفرق ؟ كلا ما للقارىء من فائدة في وصف هذه المناظر الموجعة ، بل حسبنا أن نلقى لمحة على الفصل الاخير من المأساة :

« في ذات شارقة وجد الفتى نجمة صباحه قاتمة كدراء ، محمرة غبراء .

لقد كانت الفتاة واجمة ذاهلة قريحة الآماق ، دامعة الاحداق . ويلاه ! ماهى اليوم بنجم صباح ، يهدى الامل والانشراح ، ولـكن شهاب منذر ، باقتراب الساعة ودنو المحشر . وقالت بصوت يتهدج : «الوداع الوداع فلا لقاء بعد اليوم » اذن لقد وقعت الصاعقة ، فلنترك كل ما أبدى فى ذلك الموقف من تضرعات لهفى ، وتوسلات ولهى ، وغضب متفزز ، وحنق متميز ، فقد ذهب كله أدراج الريح ، ولنسرع الى الخاتمة ـ « وقال الفتى بصوت ينم عن تجلد وأنفة ، لان كرامته المجروحة أسعفته فى آخر لحظة : « الوداع اذن أيتها السيدة » فوضعت يدها فى يده وأنشأت تتأمل فى محياه ، فما راعه الا تفجر مقلتيها بصبيب من الدمع هتان ، فلم يشعر الا وقد اندفع اليها يضمها الى صدره ضمة تعانق فيها القلبان ، وتمازجت المهجتان ، كما يتمازج من الندى قطرتان — ضمة كانت هى الاولى والأخيرة ، هى الفاتحة والختام » ثم ماذا ؟ نعم ثم أسدلت على روحه استار الليل الـكثيفة ، وأرخيت حوله سجوف الغياهب المخيفة ، وارتفعت من كل صوب وناحية ، دمادم الزلازل الداوية ، وبات بين أطلال الوجود الخربة ، يهوى هويا فى ظلمات أغوار الهاوية »

الفصل السادس

أحزان تيوفلسدروخ

مازلنا نشعر بان صاحبنا الفيلسوف رجل نسيج وحده فى أخلاقه وخصاله ، غريب الشأن فى أطواره وأحواله . وانه لايماثل أحدا فى طبع أو مزاج ، ولا يجارى مخلوقا فى مسلك أو منهاج . ولو كان كسائر الناس ، لأخذ وقد غشيته غاشية اليأس ، فيما يأخذ فيه كل عاشق منكود من تخبط وصرع

وجنون، ولدم ترائب وضرب جبين، وتحطيم أدوات، وقذف لمنات، ونظم أشمار، ومحاولة انتحار.

ولكن شيئا من ذلك لم يكن. بل نرى صاحبنا وقد سوى حسابه القديم، ودفن في أعماق الصدر همه المقعد المقيم، يتناول عصا الترحال، ويشرع حول الارض فى تطواف وتجوال. فان تعجب فاعجب لا ئتلاف ماعهدنا فيه من حدة الادراك وتوقد الوجدان، مع هذا المظهر المدهش من رباطة الجأش وثبات الجنان. لقد عرضت له الحسناء الساحرة، فسلطت عليه من نفثاتها الماهرة، مافتح أغلاق فؤاده المختوم، فاذا كل مافيه من مخبوء ومكتوم، يندفع ويتهزم، كالجنى المنبعث من القمقم — ولكن ما كاد تيار السحر ينحبس حتى انغلقت خزانة الفؤاد، ولعله لم يبق لها في الوجود مقلاد، لان تجربة الحب ما كانت فى حياة صاحبنا لتعاد.

وأعجب من ذلك انه ما كاد يفرغ من هذا الحادث المفتت للقلوب حتى راح يعتده أمراً طبيعياً، وحدثاً عادياً، لا يستحق أن يذكر عنه شيئاً. وان ذكره فبأمثال الملاحظات الآتية: « لقد لاح فى أفق الفتى ملاك شام فى عينيه بريق الأمل الأعلى، فاذا هو قد أخرجه من ظلمة الموت الى نور الحياة. ولكن ما هى الا لمحة الطرف حتى غشيت وجه الملاك سحابة من وميض الجحيم، فاذا الزوابع الهوجاء تعصف بصاحبنا وتلوى، واذا بقهقهة الأبالسة تصل في أذنه وتدوى!» وفي موضع آخر يقول: « ما كان هذا الغرام الا دواراً كالذى يعترى راكب اليم، فيخيل له خمائل الغناء، فى قفار اللجة الخضراء — أمل من الغرور كذوب، وسراب من الباطل خداع!»

كذلك مضى صاحبنا لطيته، وقد أخفى ما يتلظى فى صدره من نيران

الوجد والكمد ، تحت ستار صفيق من الصمت والجلد ، يبدو لرائيه مثال الدعة والسكون ، أو يتحدث لمحدثيه عن كل عادى من الشئون ، فلا يكاد يمر فى خاطر الناظر اليه أن جحافل من الآلام تصطرع تحت هذه السكينة ، وان جحيما من الأبراح يفور وراء هذه الطمأنينة ، اللهم الا من خلال النظرة ، تبرق فى عينه الفترة بعد الفترة ، فلا يدرى إن كان هذا البريق لآلئ دمعة مترقرقة ، أو شواظ لوعة متحرقة . وإنا لنذكر هنا ، اعترافاً منا لكل ذى فضل بفضله ، أن اقتدار المرء على أن يحرق بين الضلوع مادة أشجانه ، كما يفعل بعض المداخن بدخانه ، هو فضيلة وان تكن سلبية ، الا أنها من أجل الفضائل شأناً ، وأندرها فى عصرنا هذا وجوداً .

بيد أنا لا ننكر أن الطريقة التى لجأ اليها الفتى من الضرب فى مناكب الآفاق لا تخلو من مسحة جنون ومس ، فقد أخذ يعتسف مجاهل الغبراء ، ويتجشم العناء والوعثاء ، على غير خطة مرسومة ، والى غير غاية معلومة ، رائده الوحيد قلق هائم ، وقائده الفذ ضجر مستحكم . وانك لتجد فى وصفه لهذا العهد من حياته من فرط التشويش والاختلاط ، والارتباك والاختباط ، ما يصور حالته النفسية يومذاك أصدق صورة ، وما يغادرنا نحن من معالجة مهمتنا فى أضل حيرة . على أنا باذلون جهدنا فى استخلاص ما نستطيع استخلاصه من هذه الفوضى .

فمن ذلك مثلا إنا نجد العبارة الآتية ، بلا مقدمة ولا تمهيد : « شعور غريب ذلك الذي يعترى المسافر ، وقد ارتقى قمة من القمم ، فاذا به يرى في بطن الوادي بين الخمائل والبساتين ، وفى أحضان المعاقل الطبيعية والحصون ، مدينة من المدن ، متضائلة على البعد كأنها صندوق من اللعب . عندئذ يخيل الى الرائى

أن برج الكنيسة الذاهب في الهواء إن هو الا الأصبع مرفوعة ، وان ذلك السرادق المنعقد من الدخان إن هو إلا أنفاس الحياة . وكذلك النفس الآدمية لا تزال تخلع من وحدتها ثوباً من الوحدة على كل شيء ترنو اليه بعين المحبة ، فترى المدينة الحافلة ، وهي في ذاتها مجموعة من عديد الاكواخ والقصور ، تبدو لنا كأنها وحدة مندمجة ، بل كأنها شخص حي . ولكن ما هذا الشعور بجانب ما ينضم اليه من آلاف الخواطر ، اذا كانت هذه المدينة موطن أفراح لنا وأحزان ، ومراد لذات لنا وأشجان ، اذا كان المهد الذى ترجحنا فيه لا يزال قائماً هنالك ، واذا كان أحبابنا الاحياء لا يزالون بين اكنافها يغدون ويروحون ، وأحبابنا الأموات في مضاجع ترابها ينامون » أترى صاحبنا وهو فى فاتحة تجواله قد عاج بدافع الغريزة تلقاء مسقط رأسه ، شأن كل طريد شريد ، فألقى اليه نظرة على البعد ، حتى اذا تذكر انه لن يجد هنالك معونة انصرف هائماً على وجهه ؟

والظاهر أن متجهه كان بعدئذ الى قفار الطبيعة كأنما راح يبتغى فى أحضان هذه الأم الرؤوم شفاء لأبراحه ، وبلسما لجراحه ، وذلك حيث يقول :

« لم يكن ذلك أول عهده بالجبال . بيد أنه قلما رؤيت الجبال ، وقد اقترن فيها الجمال بالجلال ، كما في هذا المكان ، حيث الصخور مرصوصة منضدة طبقات فوقها طبقات ، وهضبات من دونها هضبات ، فى جفاء شكل وغلظة منظر ، ولكنه جفاء تلطفه من النضارة رقة غريبة ، وغلظة تمازجها من النضارة رشاقة عجيبة ، فترى الصخرة الغبراء فى هذا المناخ الخصيب ، تطلع من تحت بساط الكلأ القشيب ، فى بردة سندسية ، وترى الاكواخ البيضاء ، فى ظلال الأشجار اللفاء ، تجتمع كالعناقيد حول الجلامد السرمدية .

وهكذا تتعاقب الحلاوة والجزالة ، وتتناوب اللطافة والفخامة ، فيسير السائح على جواده فى معابر مطردة خلال مخارم وفجاج ، تخترقها جداول متدافعة الأمواج ، وتكتنفها جدران من الصخر كالأبراج ، فآناً يعبر متمعجاً بين فجوات مربدة فاغرة ، وأفناد من الجلمد الكالح متناثرة ، وآناً يطلع على واد ناضر ريان ، قد التقت في ساحته الجداول والغدران ، فتألفت منها بحيرة فسيحة الرحاب ، على ضفافها الرطاب ، وجد الانسان مسكناً جميلا ، وعيشاً رغداً وظلاً ظليلاً ، فكأن السلام قد استقر فى أحضان البأس ، وكأن النعيم قد سكن فى حمى القوة .

« ولكن هل يستطيع ابن الأيام ، أن يتطلع فى دوامة هذه الحياة الى السلام ، وبخاصة اذا كان له من الماضي شبح مزعج لزام ، واذا كان المستقبل بأجمه دجنة جمة الأشباح مرعبة الظلام ؟ كلا . بل لقد كان جديراً بالسائح الشريد أن يخاطب نفسه (أولم تغلق أبواب السعادة في وجهك حتى لقاء المنون ، وهل جال بخاطرك أمل ليس بطائش مجنون ؟) ولكن تقدم ، فلقد قال حكيم الأغريق : (من استطاع أن يرى الموت بعينه ، فلن يحفل من رؤية الخيال)

« عن هذه الأفكار وأمثالها من السوانح ، ينصرف ذهن السائح ، لأن الوادى ينتهي بغتة ، فى هذه البقعة ، حيث يقاطعه طود مشمخر الافناد ، لاسبيل الى ارتقاء ثنيته على صهوة الجواد . فما يكاد يصل مترجلا الى قمته حتى يرى نفسه قد ارتفع مرة أخرى الى ضوء الأصيل ، فى منظر عجب ومسرح جليل : نجد واسع الاكناف ، مترامى الأطراف ، تنحدر عنه المسايل والغدران ، وتتفرع منه الشعاب والوديان ، فتنصب فى كل ناحية من الافق

انصبابا ، أو تنساب على المهل انسيابا ، ثم ترى تحت قدميك سلاسل الجبال متراكبة الطبقات ، متراكمة الهضبات ، قد نجمت من هنا وهنا رعانها الشماء ، كأنها تشرف على بطيحة ملساء ، ولاحت بين ثناياها البحيرات صافيات الجمام في وهادها المطمئنة ، باردات النطاف في عزلتها المستكنة . وقد خلا المكان ، من كل أثر للانسان ، اللهم الا أن كان هو الذى مهد ذلك الطريق النافذ فى صميم الصخر ، المقتحم لهذا الوعر ، كيما يصل العلائق بين أطراف البلاد ، ويعقد الروابط بين أشتات العباد . ولكن عد عن هذا وول وجهك شطر مغرب الشمس! فأية بهجة هنالك وبهاء ، وأية روعة ورواء ! يالله كيف تذهب تلك القنن فى أعالي الفضاء ، وتسمو الى عنان السماء ، كأنها اكليل هذا الاقليم الجبلى ، ومركز الدائرة لهذا المدرج الصخرى! مئات ومئات من القمم الوحشية تبدو لعينك فى أخريات ضوء الأصيل وهى تتوهج وتأتلق كأنما سال على جوانبها ذوب العقيان ، وفاضت على معاطفها حلل الارجوان ، ماثلة هنالك فى البيداء كأنها عمارها الجبابرة ، وملوكها العمالقة ، وقائمة في جلال الصمت والعزلة لا فرق بين منظرها فى هذه العشية الساجية ، ومنظرها ساعة انحسر عنها الطوفان فى السنين الخالية . وكان فى هذا المشهد المتجلى لعين السائح بغتة ، من روائق الحسن وروائع الهيبة ، ما جعله يحدق اليه بنظرة كلها اعجاب وطرب ، بل حنين ووله . والحق انه ما كان يدرى حتى الساعة ان الطبيعة كائن حى ، وانها أمه الرؤوم وأنها مظهر إلهى ! وبينما كانت حمرة الشفق القانية ، تستحيل الى زرقة السماء الصافية ، وقد توارت الشمس بالحجاب ، واربدت حواشي السحاب ، أحس السائح همساً ندياً ، حفيفاً خفياً ، كانه همس الأبدية واللانهاية ، وكأنه حفيف الموت والحياة ،

و

ينساب في أعماق روحه ، ويسرى في شعاب نفسه ، فاذا به يشعر كأن الموت والحياة سيان ، وكأن الارض ليست جثة هامدة ، وكأن روح الارض قد استوت على عرشها البهى ، فجعلت روحه تناجيها في ذلك الرونق السنى .

« ومالبث الاقليلا حتى انجلت ذهبية النشوة بصوت عجلات قادمة . فالتفت السائح ، فاذا عربات فاخرات ، تجرها صافنات مطهمات ، طالعة من الشمال متجهة الى الجنوب . وكانت مزدانة بالزهر والريحان ، وكل الدلائل تشير الى أن وسطاهن تحمل زوجين على وشك الاقتران . فطوبى لهذين السعيدين! لقد وجد كل منهما أخاه وهذه ليلة قرانهما ! وما هى الالحظة حتى اقتربت مني عربة العروسين، فيالله ماذا أري ! الهر توجود وبجانبه ... من ؟ بلومين ! وحياني الزوجان تحية يسيرة كتحية المتجاهل ومضيا لشأنهما ، واختفى الموكب في ظلال الخمائل وبطون الوديان ! الى أين ؟ الى الهناء والنعماء ! الى الحياة المشرقة والعيشة الخضراء ! اما أنا فبقيت وحيدا مع الظلماء ! »

من هذه اللحظة يبدأ على الحقيقة تجوال الاستاذ وتطوافه . اذ يظهر أن هذا الحادث ـ حادث التقائه بالزوجين ـ قد محق ما كان لايزال كامنا في صدره من بقية أمل ، فامسى لاقصد له ولاغرض ، وباتت الحياة في نظره متاهة مظلمة الأرجاء ، كتب عليه أن يقضي فيها السنين وهو يخبط العشواء ، بين أشباح تطارده من كل وجهة ، وعثرات تعترضه في كل خطوة .

وهنا نستميح القارىء عذرا اذا نحن أمسكنا عن متابعة الأستاذ في حله وترحاله ، وظعنه ومقامه ، فان أبسط وصف لهذه الرحلة الهوجاء ـ لوكان شيء من ذلك بالمستطاع ـ خليق بان يملأ بطون المجلدات الضخام . بل حسبنا أن نثبت هنا الكلمة الآتية في بيان حالته النفسية : —

« وكان بى نوع غريب من القلق والهيام، يستحثني الى الامام ،ويحدونى الى الأقدام . وكنت أجد فى الحركة الجثمانية راحة وشفاء ، ولكنها راحة مكذوبة ، وشفاء موقوت . أية غاية أنشد،والى أية كعبة أقصد ؟ لقد انطمست من سمائى نجوم الهدى ، فلم أعد أبصر الا أفقا متجهما . بيد أنى لا أجد بدا من التقدم ، وكيف أجد لموطىء قدمىّ قرارا ، والأرض تحتى أحمى من الرمضاء ، فى الهجيرة النكراء ؟ وكنت وحيدا لاأطمئن الى سكن ، وغريبا لاآنس بأليف ، وكان مايعتلج في صدرى من النزاع الدخيل ، وما يتسعر فى قلبي من الجوى والغليل ، لاينى يصور لعين الضمير خيالات وأوهاما ، لاأنفك أهيم فى اثرها هياما ، حتى اذا حسرنى الضنى وانهكنى الكلال ، عدت أدراجى قانعا من الغنيمة بخيبة الآمال . وكنت لاأزال أشعر بأن هذا الغليل الذى يتحرق بين أضلاعي لابد أن يكون له ينبوع شفاء ينقع أواره ، ويطفىء ناره ، فكم كعبة حججت ، وكم مورد قصدت ، من رجال عظام ، ومدائن عظام ، وحوادث عظام ، التماس الدواء ، وابتغاء الشفاء ، فلا أجد مايمس الغليل أو يبرئ الداء . رحلت الى الأقطار المجهولة ، كما ظعنت الى البلاد المعروفة ، وأقمت في الفيافى الخلاء المتأبدة ، كما ثويت في الحواضر المكتظة الفاسدة ، فلم أجد على اختلاف الاحوال فرقا ، بل رأيت الأمر كله سواسية ، وكيف ينجو الهارب من ظله ، وابن الزمان من اجله ؟ وهكذا كنت أجدنى فى عجلة مرهقة ، يسوقنى حاد خفى يسرع بى ، الى أية غاية لاأدرى ! وانما كنت أسمع صوته من أعماق الفؤاد يصيح بى الى الامام ! الى الامام ! ! نعم ولقد يخيل الى أن الرياح والانهار ، والاشجار والاطيار ،

والطبيعة كلها تهتف بي الى الامام ! الى الامام ! فيالله ما كل هذا ؟ حقا انى ما زلت ابن الزمان ، ذلك الطائر العجلان !

«تسألنى كيف كنت أرزق ، وبم كنت أعيش ؟ فهل فاتك ياصاح أن تعتبر هذه الارض الخشناء ، المغذية لجميع الأشياء ، أتراها تطعم العصفور المتنقل بين الاغصان ، ثم تعجز عن اطعام ربيبها الانسان ؟ أبى الله أن تموت نفس جوعا ما دامت تعيش وتجيش . الرزق والمعاش ! انك لاتدرى أى كيمياء عجيبة ، وأية قدرة غريبة ، تكمن في النفس الآدمية المبتدعة ، وكيف تستطيع بأناملها الدقيقة أن تخلق مايكفى من الغذاء لجسمها خلقا ، ثم كيف تستطيع أن تخلق (لابمجرد أناملها بل بجمع كفيها) ضربا آخر من الغذاء : أشباحا وأغوالا ، توسعها تعذيبا ونكالا ! »

وارحمتاً لك أيها المسكين ، لقد كتب عليك أن تهيم على وجهك شريداً يلازمك من الجوع أبغض حليف ، ويطاردك من الهموم جيش كثيف ، فكأنما قضى عليك أن لا تنال نعمة الحرية الا بعد أن تكتب «قصة أحزانك» على وجه البسيطة بمواطىء الاقدام ، كما كتب غيرك من قبل قصة أحزانه على وجه القرطاس بمداد الاقلام . ولكن لا تيأس ، فلقد ولدت فى عصر راجت فيه سوق الأضاليل ، وتفشى فيه وباء الأباطيل ، فلا غرو أن تشعر روحك الفتية وقد شرعت تتنبه حوالى العشرين بأن الدنيا بؤرة غش وبهتان ، وبأن الحياة كلها خداع وبطلان ، لا يتاح فيها النجاح ، الا لكل كذاب وقاح . ومن ثم قضت الضرورة ، على كل ذى بصيرة ، بأن ينفث لوعته ، فى الصورة التى تلائم طبيعته . فهذا «جوتا» قد نفث فى «أحزان ورتر» همومه ، وهذا «بيرن» قد أفرغ فى دوان شعره سمومه ، وهذا «نابليون»

قد نفَّس من كربه الكارب ، بأسلوبه الهائل الصاخب ، فى رواية غنائية موسيقاها قصف المدافع الداوية ، وهدات القلاع المتداعية ، وأنوار مسرحها لمع البوارق ، ونيران الحرائق ، وأوزانها الموقعة أنين قتلى المعارك ، ووقع زحف السنابك — فطوبى لمن استطاع كصاحبنا الفيلسوف أن يكتب هذه المادة — اذ كان لا بد من كتابتها — على صحيفة الرغام ، بمواطىء الاقدام .

الفصل السابع

(استحكام اليأس)

وراء هذه الحجب الكثيفة التى تلفع بها الاستاذ كان كيانه الروحانى لا محالة فى حركة ونماء ، وهل فى هذا التيار الجموح — تيار الحياة — يستطيع ابن الزمن جمودا ؟ لقد أبصرناه يعانى فى ذلك العهد الغامض كربة حرجة ، ويكابد أزمة عسراء ، فهل كان اضطرابه فى الآفاق على غير هدى الا اختمارا شديدا ، بل غليانا عنيفا ، كلما كان أشد وأقوى ، كان ما يتمخض عنه من ثمرة وزبدة أنضج وأصفى ؟

بيد أن أمثال هذه الازمات ، تكون أبدا مفعمة بالالم المضيض ، فالنسر اذ ينسلخ من ريشه يبيت هزيلا مدنفا ، ولا يستحدث منقارا جديدا حتى يحطم على الصخر منقاره القديم . فمهما رأينا على ظاهر صاحبنا من تجلد واصطبار ، فلا نزاع فى أن جوفه كان يتهزم كالمرجل بسورة الالم وحمى الشقاء . أو لم ير كل آماله فى الحياة تصاب بالخيبة والاخفاق ؟ أو لم ير الدهر الحقود قد أولع بالكيد له والسخرية منه ، وأبى الا أن يحرمه كل ما تشتهيه القلوب الصبية ، ويمنعه كل ما تتلهف عليه الأفئدة الفتية ؟ بل لقد فعل به فى

حادث الغرام ماهو شر وأدهى ، اذ قدم له كاس النعيم ، حتى اذا صارت فى يديه ، وأدناها من شفتيه ، لم يرعه الا أن خطفهـا منه فى لمح البصر . واذا كانت الحياة كما يقول الاستاذ قد بنيت على الامل ، واذا كانت الدنيا انما هى دار الامل ، واذا لم يكن للانسان فيهـا من قنية غير الامل ، فماذا بقى لصاحبنا بعد أن انكدرت من أفقه كوا كب الآمال ، وتكاثفت حوله دياجير اليأس منذرة بكل مبيد من الصواعق ومبير من الانواء ؟

ويلاه! ليت يأسه وقف عندا نقطاع الامل من هذه الحياة الدنيا، ولم يتمدها الى الحياة الاخري ! ليته وقد تداعي ايمانه بالعاجلة ، بات سليم الايمان بالآجلة! ولكن الامر كان على غير ذلك ، فانه لما راح يتخبط في هذه الحياة الفانية ، أمسى وكأنه لم يسمع قط نبأ عن الحياة الباقية ، وذلك حيث يقول: « وجعلت ظلمات الشك تترا كم حولى طبقة على طبقة ، وتترا كب حجابا وراء حجاب، حتى ألفيت نفسي في غيهب من الالحاد طامس الاعـلام والصوى ، يكاد ظلامه يقطع بالمدى » فمن كان من القراء قد فكر مليا فى أسرار الحيـاة ، وتبين لحسن حظه أن الروح ليست لفظا مرادفا للمعدة كما يدعي فلاسفة المادة ، وأنه لن يستقيم للانسان عيش،ولن تنصلح له حال، الا بفضيلة الايمان ، تلك التى بها يستطيع الشهداء أن يتحملوا آلام الصلب والفضيحة والعار ، وبغيرها لا يسع ابناء الدنيا ، وهم يتقلبون فى احضان الخفض، الا أن يتقيئوا حياتهم الخبيثة بالانتحار — أقول من كان هذا شأنه من القراء فهو خليق بان يرى فى انهيار العقيدة الدينية انهيار الحياة من أساسها.

وارحمتا لك أيها المسكين ! لقد كان كل ما أصاب فؤادك الكريم ، من جراح وكلوم ، خليقا بان يندمل ويبرأ، لولم ينضب من قلبك بنضوب

ايمانك معين الحيـاة ، فلا جرم أن ترفع عقيرتك صارخاً وتقول: « أفليس اذن فى العالم آله ؟ أو كل ما هنالك على أكثر تقدير إله غائب ، قد جلس خارج الكون منذ فرغ من ابداعه ، لا يعمل قط شيئاً سوى أن ينظر اليه ويشاهد دوران أفلاكه على البعد ؟ أو ليس لكلمة الواجب من معنى ؟ أو ليس الواجب رسولا آلهياً ، ودليلا سماوياً ، بل وهما كاذباً مزعوماً تصوره الحواس البهيمية من رغبة ورهبة ، من وجل وأمل ؟ إيه أيها المتحدث عن ضميرك المطمئن : ألم يبلغـك أن بولص صاحب طرسوس ، وهو الذي رفعه الناس الى مراتب القديسين ، كان يشعر بانه رأس الخاطئين ، وكبير المذنبين ، أولم يبلغك أن نيرون صاحب رومه كان لايزال مرحاً طروباً ، يقضي أكثر أوقاته في استماع الألحان ، ومغازلة الحسان ؟ عبثاً ما تحاول ياصاحب المنطق أن تستخرج بعناصر منطقك لباب الفضيلة من قشور اللذة ! ثم ويل للانسان اذا بات يشعر بانه من أهل الحق والفضيلة ، وبل له اذا بات يشعر بأنه ليس فريسة الألم فقط ، بل أيضاً فريسة الظلم . ماذا تقول ؟ أهذا الالهام النبيل الذى ندعوه الفضيـلة إن هو الا شهوة حيوانية ، إن هو الا قوة دموية ؟ لست أدرى ، ولـكن الذى أدريه أنه اذا كان ما ندعوه السعادة هو الغرض الحقيقي فى هذه الحياة ، فكلنا إذن ضالون . وانتا اليوم لفى عصر مادى أهوال الضمير فيه لا تعد شيئاً مذكوراً بجانب أمراض الـكبد ، وجدير بالانسان فيه أن يتمكن بفضل البلادة وجودة الهضم من مصادمة كثير من الصعاب ، وتذليل كثير من العقاب . فلنبن معقلنا الحصين لا على دعائم الاخلاق والمكارم ، بل على قدور المطابخ ، ولنتخذ من المقالى مجامر نحرق فيها البخور للشيطان ، وليهنتا ما يقدم لنا من شهى

الأطعمة ودسم الألوان ! »

وكذلك نرى هذا الهائم الحيران ماثلاً بين يدى كهف الاقدار يستنطقها عما أعجمت، ويستخبرها عما أضمرت، فلايتلقى من الجواب الاصدى مردداً، حتى كاد يسلم لليأس قياده ،ويمنح للكفر فؤاده . ولكن حذار أيها القارئ أن تحسب صاحبنا ، على ما كان يفوه به من هذه الملافظ الهوجاء ، قد عاد خبيثاً شريراً ، فلعله ما كان في فترة من فترات حياته أشد رغبة فى الخير وأصدق ولاء للحق ، منه فى تلك اللحظة التى شهدت شكه فى كل شيء ، وارتيابه حتى فى خالق الكون. وحسبك دليلا على هذا قوله: « وأعجب ما في الأمر انى ، على ما كنت اعانى من برحاء الألم بسبب هذا البحث والتساؤل، لم أزل اتفانى فى محبة الحق تفانياً ،ولا غرو فلقد عقدت العزم على ان أنشد الحق وأنصره،ولو صعقتنى دونه صواعق السماء ، وأن أطارد الباطل وأهزمه، ولو حاول استمالتى بكل ما فى الارض من ونعماء»

ثم يستطرد الاستاذ فيقول فى معرض وصف حالته النفسية يومذاك :

« ان شر ماينتاب المرء من أليم الاحساسات احساسه بالضعف ،اوكما قال ملتون شاعر الانجليز (ماراًيت كالعجز شقاء) يدانه لاسبيل الى احساس المرء بقوته الا من طريق ما يباشر من عمل وما يفلح فيه من سعى ، فان بونا شاسعا بين القدرة الكامنة الغامضة و بين العمل البين الصريح . والواقع ان فى كل امرىء منا شعورا بنفسه ، ولكنه شعور مبهم أبكم ، لاسبيل الى ايضاحه وانطاقه الا بالاعمال . فالاعمال هى المرايا التى ينظر فيها المرء نفسه ويتعرف قدره . ومن ثم كان قول القائل (اعرف قدر نفسك) هو كلمة حمقاء ومطلب مستحيل ،مالم يؤول معناه بما هو ممكن نوعا أعنى (اعرف ما نستطيع

عمله) . غير انى لسوء حظى كنت حتى تلك الساعة لم اصادف فى كل ماباشرت من عمل ومسعي غير الخيبة والفشل ، وكنت اذا تأملت نتيجة اعمالى كلها وجدتها صفرا ، فكيف كان لى ان أومن بنفسي ، وليس فى يدى مرآة ترينيها . ولطالما كنت أسائل نفسي قائلا : اتراك قد أوتيت من الفضل والقدرة مالم يؤت احد سواك ، أم انت أغبي من اقلته الغبراء ، وأسخف من اظلته الخضراء ؟ ويلاه ان شر ضروب الكفر كفر المرء بنفسه ، وهل كان لى من سبيل الى الايمان بنفسي ؟ ألم أشاهد أول ايمانى بها — يوم تفتحت ابواب السماء بين يدى ، وتنزلت آية الحب بين جنبيّ — ألم أشاهد هذا الايمان الاول يتصوح ويذوى ، كما تجف الزهرة فى لفحة السموم ! ألم أجد نفسي محفوفاً من هذا الكون بسر لا تزداد على كر الايام الا إلغازا واستعجاما، واستخفاء واستبهاما ؟ هل كنت فى هذا العالم الهائل المخوف الا ذرة عاجزة لم ترزق من أسباب القوة الا أعيناً تبصر بها فاضح عجزها ، وفادح شقائها ؟ لقد كنت أشعر بان أسواراً منيعة ، ولكنها خفية ، تفصل بيني وبين الأحياء أجمعين ، وكنت أسائل نفسي : هل فى هذه الأرض ، ذات الطول والعرض ، صدر واحد حنون أضمه الى صدرى ؟ فيصعد الى الجواب من قرارة نفسي قائلاً : كلا ! وكذلك لبثت كئيباً واجماً ، واضعاً على شفتي قفلاً محكماً . وأية حاجة كانت بي الى التحدث لاولئك المتلونين المتذبذبين المتسمين بالاخوان، وهم لا يعرفون الصداقة الاحديث خرافة ، ولا يؤمنون بالوفاء ، الا كأ عانهم بأساطير القدماء ؟ تلك أيام أذكرها الآن فأعجب العجب كله للعزلة التى كنت فيها . كنت لا أرى فيمن يطيفون بى ، بل وفيمن يتحدثون الي، من رجال ونساء، الا مجرد صور وأشباح ، لا تجول فيها أرواح ، وانما هى

آلات متحركة أسير وسطها في الطرقات ، وأخالطها في المنتديات ، وحيداً فريداً ، قد تملكني نفور وحشي كالليث في غابه ، وكالنمر في شعابه .

« وكذلك مرت الأعوام المتطاولة وكأني احتضر احتضاراً بطيئاً . لا تنزل على قلبي من السماء قطرة ندى ، بل تتلظى بين جوانحي جمرات الجوى. وكأن شئون الدمع جفت في جفوني ، فلم أعد منذ عهود صباي أجد في مدامعي من العبرات ، ما عساه يطفئ بعض هذه الجمرات . وكما أقفر فؤادي من الامال جملة ، كذلك أقفر من المخاوف المعينة جملة . فلم أعد أرهب إنساناً أو شيطاناً ، بل كان يخيل الي اني قد أجد بعض العزاء لو أن كبير الأبالسة طلع على بأهواله حتى أبثه بعض همومي ، وأفضي اليه بحديث شجوني . ولكن المدهش العجيب اني مع تخلصي من كل خوف معين ، كنت لا أزال أشعر بخوف غامض مبهم ، يملأ روعي ، ويرجف ضلوعي ، لا أدري من أي شيء بعينه . بل كان يوهم الي أن كل شيء فوقي في السماء ، وكل شيء تحتي في الارض ، يوشك أن يوقع بي مكروهاً ، كأن السماوات العلى والارض السفلى ، قد انقلبت كلها فكي وحش هائل يوشك أن ينشب في أنيابه المذروبة ، ويلتهمني في أحشائه الرغيبة .

« في ذات يوم وتلك حالتي وهذا شعوري كنت أجوب شوارع باريس في هجيرة مسجورة الرمضاء ، إذ خطر ببالي خاطر على حين غرة ، فانشأت أسائل نفسي : (ماهذا الخوف الذي يقض وسادك ، وماهذا الجبن الذي ينخب فؤادك ؟ أي شيء تخشى أيها الاحمق ، وماعسى ان يكون شرما يترقبك في هـذا الوجود ؟ أليس هو الموت وآلام الجحيم ، وكل ما يستطيع انسان أو شيطان أن ينزل بك من مكروه ؟ وأي شيء هذا ؟ أولم تؤت قلباً فيه صبر

وجلد ، وشجاعة وشمم ، أو ليس فى استطاعتك أن تصبر على البلوى وان عظمت ، وأن تحتمل المكاره وان فدحت ؟ أوليس فى مقدورك وأنت من أبناء الحرية أن تدوس الجحيم بقدميك ، وناره ترعى بين جنبيك ؟ ليأت القضاء بما قضي ، فها أنا ذا متأهب لتلقيه ، متحفز لتحديه ! »

« وبيناهذه الخواطر تدور فى خلدى شعرت كأن صيبا من النار قد غمر كيانى ، واذا بي قد نفضت عني الى الابد مقيت الخوف ، ورحت اشعر بقوة عجيبة ، بقوة مجهولة ، كأنى روح مطلق ، بل كأني إله قدير . ومن ذلك الحين تغير إحساسي بالشقاء عن سالف عهده ، فاستبدلت بخوف الرعديد الجبان ، وحزن المعول الانأن ، غضبا مقدسا ناريا ، وإباء اشم حيا ! »

« فى تلك اللحظة كان ميلادى الروحانى ، أو قل تعميدى النارى ، ومنذ تلك اللحظة بدأت أشعر بأني أصبحت رجلا ؟ »

الفصل الثامن

في سبيل الشفاء

لا يحسبن القارىء أن ما يدعوه الاستاذ ميلاده الروحانى أو تعميده النارى كان خاتمة مطافه . وكيف ذلك وقد أصبح حليفاه الغضب والاباء ، وما هما بحليفى راحة ولا بجليسى صفاء . بيد أن اضطرابه لم يعد ، كما كان ، إضطراب اليائس الحائر المذهول ، بل أصبح وله على الاقل قطب ثابت يدور عليه ، وأضحى الفتى يلمح فى الحياة معنى ظاهرا يرتاح اليه . أجل ان الروح

التى طالما لفحتها لوافح الألم وعصفت بها عواصف الشقاء قد اخذت تشعر بحريتها ، قد اقتحمت حصن مملكتها عنوة واقتداراً ، وستبقى معتصمة به لا يستطيع أحد اجلاءها عنه . وما دام الامر كذلك فلا نزاع فى أنها سوف توفق على التدريج — بالجهاد العنيف طبعاً — الى انتزاع ما بقي من الاستحكامات الخارجية ، والمخافر الامامية . أو قل بعبارة اخرى ان الشيطان الذى كان يسكن قلبه قد تلق حكما لا يقبل معارضة ولا استئنافا ولا نقضا باخلاء المسكن ، وائن لم يكن قد أخلاه بالفعل فقد بات اخلاؤه أمراً مقضياً ، ليس منه مفر مهما علت صرخاته ولعناته ، ومهما اشتدت تخبطاته واضطراباته .

والواقع أن صاحبنا قد شرع يفيق من غمرته ، وينصرف عن التحديق فى اعماقه الباطنية الى تأمل المرئيات الخارجية ، وبدأ يقلع عن التهام أجزاء نفسه وينتزع من الاشياء المحيطة به طعاما أصح وأشهى ، وذلك حيث يقول:

« وكان من أوقع المناظر فى نفسى وأشرحها لصدرى رؤية الحواضر والمدن ، لاسيما القديمة التالدة ، كأنها دهاليز طويلة تطلع العين من خلالها فى أعماق القدم ، بل كأنها قطع ملموسة من الماضي البعيد ، تأدت سليمة موفورة الى الحاضر القريب ، فوضعت بين أيدينا نتأمل فى روعتها ونملأ العيون من جلالها ! هنالك فى تلك المدينة القديمة أشعلت لاول مرة منذ الفي عام أو قبل ذلك نيران المطابخ ، فما برحت مشعلة متوقدة تحش بما يجلب لها من وقود حتى لترى الساعة بعيني رأسك دخانها المتصاعد . نعم وهنالك فى ذلك الوقت بعينه وضعت أيضاً تلك الجمرة المتوقدة العجيبة : جمرة الحياة ، فما برحت حتى اليوم متوهجة متأججة ، يتصاعد دخانها (من قاعات المحاكم) ويترا كم رمادها (فى قبور المدافن) وتذكيها منافيخها (من المعابد

والـكنائس) ، أجل ولايزال لهيبها يطالعك من كل وجه كريم ، وكل وجه كريه ، فيدفئك صلاه ، أو يلحفك لظاه !

« إن أجل الثمرات التي يجنيها الانسان من سعيه ونجاحه إن هى إلا أشياء هوائية ، روحانية معنوية ، محفوظة فى التقاليد المتوارثة دون سواها . فمن ذلك أشكال حكوماته وما ترتكز عليه من سلطان ، ومن ذلك عاداته ومواضعاته ، وشرائعه وقوانينه ، ومن ذلك مجموع ذخيرته التى استفادها من معالجة الطبيعة والتى يدعوها الحرف والصنائع . كل هذه الاشياء ، على نفاسة قيمتها وشدة ضرورتها ، هي مما لا يستطاع حفظه فى الاحراز ، وصونه وراء الاغلاق والاقفال ، بل لا بد أن تسري كالطيف على أجنحة الهواء ، من الآباء للابناء . فاذا حاولت أن تنظرها بطرفك ، أو تلمسها بكفك ، لم تجد لها اثراً في مكان . صحيح أنك واجد من شئت من زراع ومعدنين وصناع ، وكلهم يلمسونباليد لمساً ، ويرونبالعين رأيا ، ولـكن أين مستودع المهارة المتراكمة منذ أقدم القدم ، من زراعية ومعدنية وصناعية ؟ انها شيء لا يحصر في مكان ، انها شيء مشاع ، ينتقل على متن الهواء والشعاع ، بواسطة الابصار والاسماع ، انها شيء هوائى معنوى روحانى . كذلك لا تسألنى أين القانون ؟ أين الحـكومة ؟ فعبثاً ما تذهب الى (دوننج ستريت)[1] والى (سراى بوربون)[2] فما أنت واجد هنالك إلا ابنية من الطوب والحجر ، والا اضابير من الورق . اذن أين ما يحدثوننا عنه من تلك الحـكومات الدقيقة التركيب المتقنة الوضع ؟ هى في كل مكان وهى ليست فى أي مكان ،

(١) مقر الحـكومة الانجليزية في لندن (٢) مقر الحـكومة الفرنسية فى باريس

هي لا ترى الا باعمالها وآثارها ـ انها أيضا شيء هوائي روحاني . ألم أقل لك ان حياتنا العادية اليومية هي كلها شيء روحاني ، وان كل ما تفعله يخرج من أعماق الروح الباطنية ، وأغوار القوة الخفية ، وان هذا الواقع المشهود ان هو إلا سحابة ضئيلة تنشأ من محيط الغيب العظيم .

« على أن مايلمس ويحس من نتائج الماضي لا يتعدى في نظري ثلاثة أضرب (أولا) المدن بقصورها ومصانعها (ثانيا) الحقول المزروعة وإلي هذه أو تلك أو إلى كليهما معا تنتمي الطرق والجسور ، (ثالثا) الكتب . بيد أن هذا الضرب الأخير وهو أحدث الثلاثة عهدا ، يمتاز عن الاولين بميزة ترفعه عنهما جدا . ولعمر الحق ما أبدع وما أعجب شأن الكتاب القيم ، الكتاب الذي يستحق أن يسمى كتابا ! فما هو كالمدنية الجامدة المبنية من حجر وطوب لايزال البلى يلح عليها كل عام ، ولاتزال تحتاج إلى الترميم في كل عام ، بل هو أشبه بحقل مزروع ، ولكنه حقل روحاني ، أو قل هو أشبه بشجرة روحانية ، ماثلة في جلالها عاما بعد عام ، بل جيلا بعد جيل ، أو ليس عندنا من الكتب مايعد عمره بالآلاف من السنين ؟ ولا تزال تؤتيك في كل حول محصولها من الورق الجديد (مابين شروح وتعليقات وحواش وتفسيرات ورسائل ومقالات) وكل ورقة منها لها فضيلتها السحرية وقوتها الخفية لأنها تستطيع اقناع الانسان . ايه يامن تستطيع أن تكتب كتابا ـ وذلك مالا يتأتى إلا لبعض النوابغ كل قرن أو قرنين ـ لاتحسدن الذي يدعونه باني المدن ومعمرها ، وارحمن من صميم قلبك ذلك الذي يدعونه فاتح المدن أو مدمرها ، أنت أيضاً فاتح مظفر وغاز منتصر ، ولكنك من الغزاة الصادقين والفاتحين الفاضلين ، لان انتصارك ما كان على أخيك الانسان

بل على عدوك الشيطان ، أنت أيضا قد بنيت ما سوف يودى بمشيدات المرمر والصوان ، والحديد والصرفان ، وما سوف يبقى على الدهر مدينة للعقول عامرة ، وكعبة للاذهان طاهرة ، حافلة بالعجائب والمعجزات ، يحج اليها بنو البشر من كل عشيرة وقبيل ، فى كل عصر وجيل . — أيها الاحمق علام تعانى وعثاء السفر لمشاهدة اهرام الجيزة أو سقارة ؟ ماذا أنت مستفيد من رؤية اطلال ماثلة فى البيداء ذاهلة جامدة ، قد مضى عليها ثلاثة آلاف من الاعوام وهى ترنو إلى الصحراء سادرة سامدة ! أو ليس فى استطاعتك أن تفعل ماهو خير وأفضل : ان تفتح انجيلك المنزل ! »

وهاك مثالا آخر يدلك على أن تيوفلسدروخ شرع ينسى نفسه؛ ويذكر ماحوله ، وذلك حيث يقول فى وصف ميدان بعض المعارك ، ولعلها معركة « واجرام » التى انتصر فيها نابليون على امبراطور النمسا :—

« يالالشناعة والفظاعة ! ميدان واسع الاطراف ، متباعد الأكناف ، مكتظ الفناء بشظايا القنابل ، وخراطيش البنادق ، وحطام العربات ، ورفات الانسان والحيوان . ثم ماهذه الـكيمان المدمّنة القانية ؟ انها اصداف الابدان انتزعت منها درر الارواح ، والقيت هنالك كانها قيض منقاض ! هل كانت الطبيعة يوم أمرت هذا النهر المتدفق أن يحمل من شواهق الجبال أوساق الطميّ ، وينشرها هنا على بساط هذا السهل السوى — هل كانت الطبيعة أرادت بك ايها الميدان أن تكون حقلا يخرج لأبنائها من البشر الثمرات والخيرات ، أم مذبحا فى ساحته يجدلون ، فتهرق منهم الدماء ، وتمزق الاشلاء ؟ وهل كانت هذه المهايع الثلاثة التى تلتقى فيك من أطراف أوروبا قد جعلت لعربات الذخيرة ؟ وهل كان ما أراه منبثا فى أنحائك من القرى والعساكر

ماهى الا حصون لا آل هابسبرج ومعاقل ، يضربون منها ويضربون فيها بالمدافع ؛ لشد ماشوه وجهك أيها السهل الأنيق! زروع مقلّعة ذاوية ، وبيوت محرّقة خاوية ، وخمائل أصبحت قذى العيون بعد أن كانت قرتها ، وشجى النفوس بعد أن كانت بهجتها ، تملأ الخياشيم بروائح الجيف والبارود ، بعد أن كانت تحيي الانوف بنفحات الورود ، وحقول أصبحت مستودع الجماجم والأوصال، بعد أن كانت منابت الثمار والغلال — بيد ان الطبيعة لاتفتر لها همة ، وما كان الانسان مهما أسرف فى الشر يستطيع أن يفسد عليها خطة ، فكل هذه الجيف وكل هذه الدماء لاتلبث أن تختفي وتستحيل سمادا ، ولن يحول الحول حتى ترى هذا الميدان قد عاد كعهده بل أزهى ربى وأنضر وهادا ! إيه أيتها الطبيعة المجتهدة المقتصدة ، يامن لايدب اليك الملال ، ولا يفت فى ساعدك الكلال ، ويامن لا تزالين تخرجين من الشر خيراً ، ومن النكر عرفا — حدثيني كيف تستخلصين حتى من جيفة الميت ، حياة للحي ؟ »

« دعونا نتكلم باللغة غير الرسمية : ماهي النتيجة الصافية للحرب ؟ إنى أعرف مثلا أنه يسكن ويكدح فى قرية « دمبردج » الانجليزية حوالى خمسمائة نسمة فى العادة ، يختار منهم كل عام ، ما دامت الحرب الفرنسية مستمرة ، نحو ثلاثين رجلا أشداء الابدان . هؤلاء الثلاثون قد تولت « دمبردج » رضاعتهم وحضانتهم على نفقتها ، وما برحت تتحمل الآلام والمشاق فى سبيل تربيتهم وتغذيتهم حتى باتوا رجالا أصحاء اقوياء ، بل لقد تكفلت فوق ذلك بتدريبهم على مختلف الحرف والمهن ، فأصبح هذا نساجا وذاك حداداً وذلك بناء وهلم جرا . ولكن بالرغم من كل هذا يصدر الأمر بتعبئتهم ، فيؤخذون وسط العويل والبكاء ، ويلبسون اكسية حمراء ،

ثم يرحلون على نفقة الخزانة العامـة الى جنوب اسبانيـا ، وهنالك يظلون يطعمون حتى تمس الحاجة اليهم . في أثناء ذلك يكون ثلاثون صانعاً فرنسياً ممن اخذوا بنفس تلك الطريقة من بعض قرى فرنسا متجهين هم ايضا الى جنوب اسبانيا ، حتى يتلاقى الفريقان بعدالعناء المعنى والجهد الجهيد ، فيقف الثلاثون تلقاء الثلاثين وفى يد كل منهم بندقته . هنالك يصدر الامر بضرب النار ، فاذا بكل فريق يهدر ارواح الفريق الآخر ، واذا بنا نجد بين ايدينا بدل الستين من مهرة الصناع ، ستين جثة هامدة يتعين علينا ان نواريها ، وعلى أهلها ان تبكيها ! ليت شعرى هـل كان بين الفريقين عـداوة أو شحناء ؟ يعلم الله أنه ما كان بينهما قط شيئاً . لقد كان كلاهما يعيش على بعد شاسع من الآخر ، وكان كلاهما عن صاحبـه غريباً اجنبياً ، بل من يدرى فلعله فى هذا العالم الواسع العريض كان بينهما ـ من حيث لا يشعران ـ شيء من المعاونة المتبادلة عن طريق المتاجرة . اذن فعلام هـذا التناحر ؟ أيها الأبله ألا تدرى أن حكومتيهما قد تشاحنتا ، فبدلا من أن تتقاتلا احتالتا على هؤلاء الاغبياء المساكين فتقاتلوا عنهما . ويلاه تلك هى الحال فى جميع البلدان ، وكذلك كانت فى جميع الازمان ـ صحيح أن احـد كتاب الانجليز تنبأ فى بعض رواياته بزوال الحروب ، فصور لنـا صاحبى الشأن المباشر فى الشحناء ، ينزلان بنفسيهما الى ميدان اللقاء ، وقد امسك كل منهما متبغة مملوءة بالكبريت ، فيشعلها ويظـل ينفخ فى وجـه خصمه حتى يستسلم اضعفهما لقرنه . ولـكن الى ان يحين هذا العصر السلمى المتنبأ به اى قرون دموية لا بد ان تنقضى ، واى اجيال حربية لا بد ان تمر ؟ »

والظاهر ان هـذه الفترة من حيـاة الاستاذ كانت من حيث تهذيبه

روحانى من أبرك أيام عمره وأخصبها ، فاما باطناً فقد كانت عملية التفكير جارية مستمرة يساعده على اجرائها ميله الى السير على قدميه ، وأما ظاهراً فقد كان فى تطوافه يجد الكفاية من المناظر لعينه ، وان كان لا يجد الكفاية من السلوة لقلبه ، وذلك حيث يقول : —

« لقد قرأت فى أكثر المكاتب العمومية ، غير مستثن مكتبتى الاستانة وسمرقند . وكنت أتلقى اللغات الاجنبية من مستودعها الطبيعى — الهواء ، بواسطة حاسة السمع . كذلك كانت الاحصائيات والجغرافيات والطوبوغرافيات تأتى الى عفواً من خلال العين . فاساليب الانسان بمختلف البلدان فى تحصيل القوت والدفء والوقاية — كل هذا قد تعلمته بالمشاهدة . أما عما رأيته من المناظر الجليلة فحدث ولا حرج . لقد جلست تحت نخيل تدمر ، وقضيت يوما بين أطلال بابل ، وشاهدت بعينى رأسى سور المغول الاعظم .

« وأما عظماء الرجال فما زلت أشعر من صميم قلبي بانجذاب اليهم ، وانى لأفخر بان قليلا من المعاصرين لى منهم قد فاتتني محادثته أو مشاهدته . وما عظماء الرجال الا المتون الملهمة لذلك السفر المقدس الذى تكتب منه سورة فى كل حقبة والذى يدعوه بعضهم : التاريخ . أما من عدا اولئك العظماء ، من غمار الناس والدهماء ، فهم لتلك المتون الملهمة حواش وتعليقات ، وشروح وتفسيرات . وما كنت لاجعل موضع بحثي ودراستى الا المتون نفسها . أو لم أقف متنكراً فى زى خادم فندق بين يدى الشاعر العظيم « شيلر » والشاعر الاعظم منه « جوتا » مستمعاً من حديثهما ما لن أنساه آخر الدهر .... »

وهنا نحبس القلم عن ذكر الشيء الكثير مما يدعونا الحذر الى كتمانه

فما حسن بنا أن نهتك الستار ، عن أسرار الكبار . بيد أننا اذا رأينا فيما بعد أن الظروف قد تغيرت وأن الوقت قد حان للنشر فعندئذ لا نضن على القراء بهذه النظرات المختلسة في دخائل الكبراء . أما الآن فليعذرنا القارىء اذا نحن لم نذكر قط شيئاً عن علاقة الاستاذ باللورد بيرون والبابا بيوس والامبراطور تارا كوانج وغيرهم من مشاهير العصر . كذلك لن نذكر عن علاقته بنابليون إلا أنها كانت جد متقلبة . ففي أول الامر كاد الاستاذ المسكين يضرب بالرصاص على أنه جاسوس ، و بعدئذ أدنى مكانه وأدخل في حظيرة الانس ، حيث لقي شيئاً من الملاطفة وان لم ينفح بشيء من المال . وأخيراً طرد أشنع طردة على أنه خيالي متطرف. وهنا يقول الاستاذ « لله أبوه! وهل كان هو الآخر الاخيالياً من أذلى غلاة الخياليين؟ هل كان يعيش ويجيش ويناضل ويقاتل، الا في الفكرة ، الا في الخيال ؟ لقد كان هذا الرجل — من حيث لا يشعر — مبشراً آلهيا ، كان يعلن بحنجرة المدفع ذلك المبدأ الخطير الذي فيه يتلخص انجيلنا السياسي ، وعليه وحده يمكن أن يقوم صرح الحرية : أعني « القوس لباريها والدولة لحاميها » صحيح أنه كان يبشر بلسان غير مفصح ولا مبين ، وانه كان يخلط بتبشيره كثيرا من الهذر والهذاء، والتخبط والهراء شأن جميع المتحمسين المتعصبين، والمبشرين الاولين، بيد انه كان يبشر على كل حال بأقصى ما يحتمله موقفه من بيان ، أو قل أنه كان كاحد الامريكانيين الاول قطاع الغابات، يزيل عن وجه الثرى الغياض والادغال ، ويطارد الالوف من الوحوش والذئاب ، و يأتي الحين بعد الحين ماتسوّله له نفسه من سكر وعربدة وسرقة ، ولكنه يقوم بعمل لازم نافع سوف يباركه من يأتي بعده من الزراع وهم يجنون حصائد الحقول الواسعة ، وثمار الحدائق اليانعة . »

ولكن أعجب من كل ماتقدم ظهور تيو فلسدروخ على حين غرة في مجاهل الاقاليم الشمالية ، احدى ليالي يونية ، وذلك حيث يقول :

« سكون كسكون الموت فان نصف الليل لايعدم ، حتى في الأقاليم القطبية ، خاصيته من السكون الرهيب ، والجلال المهيب . ثم ترى الصخور العبلاء ، وردية حمراء ، وتسمع خريرا ناعما نديا لذلك المحيط الشمالى البطيء الخفقان ، وتلمح الشمس فى حاشية الأفق معلقة ، وطفاء مكسال مرنقة ، كأنها هى الأخري فى سنة الكرى مستغرقة ، ولكن على فراش وثير ، من الصبير ، مصبوغ بالأرجوان ، ومرصع بالعقيان ، وقد انصبت أنوارها على مرآة الماء ، كعمود من النار مرتعش اللالاء ، ينفذ الى قاع الهاوية ، ثم يختفى تحت قدمىّ فى أغوارها الداجية ! فى مثل هذه اللحظات تكون للوحدة قيمة لاتقوم ، فمن ذا الذى يستطيع احتمال تشويش المشوشين ، بل من ذا الذى يستطيع احتمال نظرات الناظرين ، حينما يكون وراءه سكان نصف الكرة الأرضية وكلهم ، ماعدا الحراس ، قد ركبهم شديد النعاس ، وامامه اللانهاية الصامتة وقصر الأزلية الجليل ، حيث شمسنا الباهرة إن هي الا قنديل كليل ؟

« بيدأنى فى هذه اللحظة الرهيبة أرى رجلا بل وحشا يطلع على من نجوات الصخور ، اغبر اشعث ، هائل الجثمان كأنه دب الشمال ، وأقبل يحييني بالروسية ، فلعله بعض المحترفين بتهريب البضائع فى تلكم الأنحاء . فاجبته فى رفق وايجاز بأنى رجل لاشأن لى بتهريب السلع ، وانى لاأقصد به سوءا ، ولاأنوى لاحد شرا . عبثا ماأقول ، فان الوحش لم يزل يتقدم الى ، معتمدا ولاشك على ضخامة جرمه ، ومصمما على أن يستفيد منى مطربا أومكسبا ، ولو تذرع بالقتل الى غايته . وكذلك مابرح يدنو الى ، هاجما على بانفاس تفوح

منها رائحة الشحم ، حتى صار كلانا على شفا الصخرة والبحر العميق يزخر تحتنا شره العباب ، تهم الحباب ! أية أدلة عقليه وبراهين منطقية تنفع مع هذا الهمجي الجافي، بل الوحش الضاري ؟ فلعمري لواني خاطبته بلسان الكرام المطهرين ، واستعطفته بكلام الملائكة المقربين ، لذهبت مقالتي أدراج الرياح. ولكني كنت أعددت لمثل هذا الموقف عدتي ، واتخذت له أهبتي ، فتنحيت قليلا بخفة وسرعة ، وأخرجت من حقيبتي مسدسا وجهت فوهته اليه قائلا «تفضل ياصاحبي بالانسحاب ولتسرع ! » ففهم الوحش هذه اللغة، ولم تكن الالحة الطرف حتى ولى ينحدر بين الصخور ، وكأنه يعتذر الى بهمهمته.

«هذه في نظري هي الفائدة الحقيقية للبارود ! اعنى أنه يسوى بين الناس جميعا في العرض والطول ، بل اذا كنت أنت أوسع مني حيلة وأربط جأشا ، اذا كان عقلك أرجح من عقلي ، فأنت الأطول والأعرض ، وأنت الأقدر على قتلي مني على قتلك ، ولوكان جسمك النهاية الصغرى في الضآلة. أجل بواسطة البارود أصبح جالوت موهون الأسر مفسوخ القوة ، وأصبح داود مرهوب البطش مخوف السطوة ، صارت الحيوانية المتوحشة لاشيء ، والروحانية المبدعة كل شيء ! »

ولننظر الآن بعدما أوردنا هذه التفاصيل والجزئيات الى غرضنا الكلي من هذا المبحث ، نعني ماذا كان يجرى في أعماق الاستاذ الباطنية تحت تلك التطورات الخارجية . لقد كانت كل الدلائل تبشر بالخير ،وكانت كل الاعراض تؤذن بالشفاء . ولا غرو فان التجارب هي الطبيب الروحاني الأعظم ، وقد لبث تيوفلسدورخ بين يدي هذا الطبيب أمدا مديدا يتعاطى مايتعاطى من العقاقير المرة ، ويبتلع مايبتلع من البلابيع الكريهة . فان لم يكن صاحبنا

المسكين أحد أولئك النفر المديدين الذين لاينفع فيهم دواء ، ولا يرجى لهم شفاء ـ وهو مانراه من المستبعد ـ فلا ريب في أنه سوف يتماثل ويشفى .
وحسبك أن تسمع مايقوله في هذا الصدد عن نفسه : —

«وأخيراً بعد طول الاحتراق أصبحت ، اذا صح التمثيل ، متكلسا لم تخب في شعلة الحياة ، ولكنها صفيت وبقية كامنة . لست أقول ان الشقاء لم يعد شقاء ، ولكني أصبحت استطيع النظر من خلاله وازدرائه . أى عظيم من العظماء ، في هذا الوجود الفناء ، الارأيته اما طارد وهو اما طريده ؟ لقد رفض القضاء كل رغبة من رغباتي ، ولكن ماذا كنت صانعا لوانه بلغني أقصى مرادي ؟ أولم أر الى الغلام المقدوني يبكي وينتحب لانه لم يعط نظاما شمسيا يفتحه ، بل عالما بحذافيره يدوخه ؟ رحماك اللهم ! انى لاحدق في كواكب السماء ، فكأنها ترنو الى من أعماق اجوائها الزرقاء ، بنظرات ملؤها الرحمة والرثاء ، حتى لأخالها أعينا تتلألأ في احداقها دموع الشفقة والحنان ، لضآلة حظ الانسان ! الوف من الاجيال ، لاتقل عن جيلنا هذا صخبا ولجبا ، قد ابتلعتها لجة الايام ، ولم يبق منها حتى الحطام ، وهذه النجوم الوديعة لاتزال تسبح في أفلاكها مشرقة سنية ، صافية فتية ، كما رآها الراعي لاول مرة في سهل شينار ! ضلة لك ! ماهذا الوجار الصغير الحقير الذي يدعونه الارض ؟ ومن أنت أيها الجالس فيه معولا باكيا ؟ انك لاشيء ! صحيح هذا ولكن من هو الشيء ؟ انك من آل آدم منبوذ ، انك عضو مبتور ! وليكن ذلك فطه خير لى وأبقى .»

وراحتا لك أيها المسكين ! لشد ماينقض العبء ظهرك ، ولكن الا ترى أنه قد شرع يفك قيوده ، ولن يلبث حتى يطرح العبء عن كاهله ويشب حرا طليقا مجدد الشباب .

الفصل التاسع

انبلاج الأمل

« المحنة فى البرية ! ومن ذا الذى منا لم يمتحن هـذا الامتحان ؟ إن آدم القديم ، المستقر بالوراثة من قلوب أبنائه فى الصميم ، لا يمكن ازعاجه بغير جهاد وجلاد . وحياتنا هذه محاطة بنطاق من الضرورة ، ولكنها في جوهرها نفحة من الحرية، من القوة الاختيارية ، ومن ثم لم يكن بد من أن نعيش فى صراع يكون فى مبدئه عنيفا قاسيا . ذلك بان الوصية الالهية (افعل الخير واصنع المعروف) مكتوبة بحروف من نار على صفحات قلوبنا لاتدع لنا راحة ولا قرارا ، ليلا أونهارا ، حتى نوفق إلى قراءتها واطاعتها وحتى تتجلى فى أفعالنا شريعة نافذة وناموسا مطاعا . وبما أن الوصية الارضية (اطعم نفسك واملأ بطنك) لاتزال فى الوقت عينه تنادينا من كل جوارحنا وتهيب بنا من جميع أعصابنا ، فلا مندوحة من احتدام النزاع حتى يتغلب النفوذ السماوى على النفوذ الارضى .

« واذ كان ذلك كذلك فأى شيء هو أليق بالانسان حينما يهتف به لاول مرة صوت الداعى السماوى ويتعين عليه أن يكافح الحمأ المسنون فاما أخضعه واما خضع له — أى شيء أليق حينئذ بالانسان من أن ينتبذ فى البيداء مكانا قصيا ، وهنالك يتحدى المضلل ويصارعه أشد صراع ، حتى ينهزم ويولى الادبار ؟ سم الامر كما تشاء ، فسواء أكان الذى يصارعنا شيطانا منظورا أم لم

يكن ، وسواء أكان الصراع يجرى فى الصحراء المقفرة ـ صحراء الصخور والرمال أم فى الصحراء الآهلة ـ صحراء اللؤم والسفال ، فالواقع الذي لانزاع فيه أنه ليس منا أحد الاويدعى الى اجتياز هذه المحنة . والويل لنا ان لم ندع الى ذلك ، الويل لنا ان لم نكن الا انصاف رجال لم تتوهج على صفحات قلوبنا تلك الوصية الالهية زاهرة زاهية ، بل ظلت تحت رماد الشواغل الدنيئة خابية خافية ! وكذلك أوتيت ـ لا أقول نعمة الفوز ـ ولكن نعمة الشعور بالجهاد والعزم على مواصلته ما بقيت فى حشاشة تتردد . وكذلك كتب لى بعد أن لبثت مالبثت حيران هائما في الغابة المسحورة اسمع عزيف الجان ، وأشاهد من المناظر مايشيب الولدان ـ كتب لى أن أجد مخرجا بعد لأى وعناء إلى السفح المشرق البهيج ـ سفح ذلك الجبل الذى يصافح بقمته السماء » .

أكان إذن ما عاناه تيوفلسدروخ من التطواف فى مناكب الارض والتجوال ، كأنه الروح الحائر أو طيف الخيال ، هومايدعوه المحنة في البرية ؟ وهل كانت تلك اللحظة الخطيرة ، التى مرت عليه بشوارع باريس فى تلك الهجيرة ـ ساعة قال له الشيطان « أعبدنى وإلا مزقتك اربا » فأجابه ثبت الجنان « اليك عنى فما أنا منك ولا أنت منى » أكانت هذه اللحظة هي نقطة الانقلاب فى سير المعركة ؟ عجبا لك أيها الاستاذ ! ما كان ضرك لو قصصت علينا قصتك الغريبة ، بأسلوب جلى وعبارة قريبة ؟ عبثاً مانحاول أن نجد فى هذه الاضابير التى بين أيدينا إلا طمحات خيال محلق فى الفضاء وثاب ، أو صوراً مبهمة كأنها ملفعة بالضباب ، ولعله قد أحس من نفسه هذا النقص حيث يقول « كيف أصور العين الجثمان ، مايجرى فى قدس الأقداس من

سريرة الانسان ؟ كيف يمكن التلميح ولو بأبعد إشارة إلى ما لا يحيط به وصف ولا يعبر عنه لسان ؟ » بيد أنا نؤدى إلى القارىء ما نستطيع أداءه من النبذ المقتطفة من هنا وهنا ، علّه يلمح فيها معنى متتابعا، وينظم منها حديثا مفهوما .

يقول الاستاذ « لقد سكنت سورة العاصفة ، وخفتت زماجرها القاصفة ، وأصبح فى استطاعة الروح بعد طول الصمم أن تسمع ما يجرى حولها ، فأمسكت عن المضي في تجولاتى الهوجاء ، وجلست فى مكانى أترقب وأتروى ، لانى أحسست أن ساعة الانقلاب قد حانت . وكان يخيل إلى أنى قد رحت أسلم بكل شىء ، وأنزل عن كل شىء ، وأقول « اليك عنى ياخيالات الامل الكاذبة فلن أطاردك بعد اليوم ، ولن أومن بك منذ الان . وأنت أيضاً يا أشباح الخوف المرعبة ، لن أحفل بك ولن أبالى ، أنت أيضاً خيالات كاذبة وأوهام باطلة ! لاجلسن هنا فقد أمسيت نضو سفر ونضو حياة ، لاجلسن هنا ولو لأجل أن أموت ، فقد أمسيت والحياة والموت عندى سيان ، كلاهما فى الحقارة صنوان »

ويقول الاستاذ فى موضع آخر « وبينا أنا راقد كذلك ، وقد التى على النفوذ السماوى غاشية من النعاس الشافى ، شرعت الاحلام الغليظة تنجاب عنى شيئاً فشيئا ، حتى إذا استيقظت وجدتني في أرض جديدة وسماء جديدة . لقد تم بحمد الله العمل التمهيدى الاول ، أعنى محق النفس ، فأصبحت أشعر بان العصابة قد حلت عن ناظرى ، والاغلال قد فكت عن ساعدى »

والظاهر أن الكلمة الآتية تشير إلى المكان الذى القى فيه الاستاذ عصا التسيار ، وجلس تلك الجلسة يترقب ويتروى فنزل عليه ذلك النعاس الشافى .

« ما كان أجمل الجلوس على تلك الهضبة الباذخة ، تلقاء الجبال الشامخة ، غارقا في خواطرى وتأملاتى، أحسبنى فى سرادق سماوى سقفه القبة الزرقاء ، وجدرانه أربع ستائر لازوردية فضفاضة ، ستارُه الرياح الاربع الخفاقة. هنالك استعرض فى الخيال ، صورة ما اكتن فى بطون الاودية وثنيات الجبال ، من قصور مشرقة ، فى خمائل مونقة، تزينها كل حورية حوراء ، ومليحة حسناء . أو اتخيل ماهو خير من ذلك واملح: صورة الاكواخ المسقفة بالقش، حيث تجلس الامهات بين أولادهن يخبزن الخبز. كل هذا وان توارى عن ناظرى بين أجزاع الوادى كائن هنالك لاشك فيه ، كأنى أراه رأى العين . ولربما رحت أتأمل تلك القرى المنبثة حول مقعدى الجبلى ، تخاطبني من أبراج نواقيسها بلسانها الحديدى ، وتعلن حيويتها آنا بعد آن ، بما تصعده من سحب الدخان ، تلك السحب التى كانت لى بمثابة مزولة أتعلم بها عدد الساعات والأوقات ، لأن هذا الدخان كان يتصاعد من المطابخ كلما عمدت الأزواج الكريمات فى الصبيحة أو الظهيرة أو المساء ، الى اغلاء القدور للبعولة والأبناء . فكلما حان وقت من هذه الأوقات الفيت عموداً من الدخان الازرق يتصاعد من كل قرية ، ويقول بعبارة جلية : «الآن يجهز الطعام للوجبة الفلانية» منظر لعمر الحق انيق ! فانك لترى كل قرية بما حوت من محبات وعداوات ، ومحادثات ووشايات ، وخلافات واتفاقات ، ململمة هنالك تحت عينيك كأنها لعبة صبي لو شئت لغطيتها بقبعتك — حقا لئن كنت أثناء تطوافى قد تعلمت ان أنظر الى تفاصيل الأمور والجزئيات ، فهنا موضع تجميعها الي كليات ، واستنباط ماشئت من الاستنتاجات .

« كذلك كم من مرة شاهدت الزوابع الهوجاء ، مقبلة غضبي من أقصى

الفضاء ، حتى اذا التقت ببعض القمم الشماء ، فوجدتها مربدة غبراء ، جعلت تدور حولها وتدوّم ، وتغلى وتهزّم ، ثم تنتشر فى منفرج الاجواء ، كالغول ناشرة شعورها السحماء ، وما هي الابرهة حتى تسكن العاصفة ، وتبدو القمة فى لألاء الشمس ضاحكة ناصعة ، لأن الزوبعة قد كستها حلة من الجليد لامعة. ايه ايتها الطبيعة العجيبة! كيف تختمرين وتغلين فى تلك الخابية الهائلة التى ندعوها الفضاء ؟ بل حدثيني ما انت ؟ لماذا لا أدعوك باسم الله ؟ الست أنت رداءه الحي ؟ الست أرى جلال الحق يسطع من خلالك ويتكلم بلسانك ويعيش فيك ويجيش ، كما يعيش فى ويجيش ؟

«وجعلت تباشير هذه الحقيقة تلوح لبصيرتى ، كما يلوح سنا الفجر لخابط الظلماء ، فكان وقعها فى نفسى أحلى من صوت الأم فى مسمع طفلها التائه الحيران ، وأعذب من نغم المشوق فى اذن العاشق الولهان . ولاغرو فقد أنشأت اتبين أن العالم ليس مجزرة تعزف فيها الابالسة وترقص الاشباح ، وانما هو بيت الله ورداؤه ، ومظهر الحق ورواؤه .

«وتعلمت أيضاً أن أنظر الى اخوانى فى الانسانية بعين أخرى ، بحب لايعرف نهايته ، ورحمة لاتحدها غاية . لهفى عليك أيها الانسان البائس ، المضلل الطائش ، الاتقاسى ماقاسى من الوان الشقاء ، وضروب البلاء ؟ الست سواء أتخايلت فى حلل الملوك ، ام تضاءلت فى اطمار صعلوك ، ذلك العاجز الضعيف ذا العبء الثقيل والجناح المهيض ؟ هل لك على كل حال راحة أومستقر ، الافى جوف القبر ؟ ايه ياأخى! لماذا لا آويك بين جوانحى ، وأمسح عن مقلتيك دموع الاسى ؟ أجل ان ضوضاء الحياة تلك التى مازلت اسمعها باذن مخيلتى وانا معتكف فى عزلتى لم تعد لجباً يصم الآذان ويشوش الاذهان ،

بل صخبا شجيا ، وهتافا نديا ، كانه انين مبهم رخيم ، يصدر من مخلوق اعجم بهيم ، ويصعد الى مسامع السماوات ، فاذا هو دعوات وصلوات . واصبحت أرى أن هذه الارض الفقيرة ، وما حوت من المطايب الزهيدة المنزورة ، هي امي المدقعة المسكينة ، لا امرأة ابي القاسية الضنينة . وصار الانسان على حقارة مآربه وخرق مساعيه ، احب الي منزلة واعز في قلبي مكانة . بل لقد أصبحت من اجل آلامه وآثامه ادعوه أخي وشقيقي . وكذلك الفيت نفسي ماثلا بين يدي «هيكل الاحزان» لا أدري من أي طريق وعر ومسلك موحش ارشدتني اليه خطاي ، فاذا هي الاهنيهة حتى تنفتح لي اعماق الحزن الالهية ، واسراره المصونة الربانية »

وهنا يقول الاستاذ انه ابصر لاول مرة تلك العقدة التي كانت قابضة على عنقه ، آخذة بكظمه ، فبادر الى فكها عن مقلده ، وراح في الحال حراً طليقاً . وذلك حيث يقول « لايزال ينشأ في كل نفس منذ بدء الخليقة الى اليوم جدال عقيم لاطائل تحته ولا نهاية له فيما يدعونه «اصل الشقاء» . ولابد لكل نفس تريد الانتقال من حال التألم العاطل الى حال الجهاد العامل من حل هذه العقدة . بيد ان اكثر الناس في عصرنا هذا يكتفون بحسمها حسما غير مبنى على الاقناع ، وقليل هم الذين لا يهدؤون او يهتدون الى حل يرضيهم . ومازال هذا الحل يختلف باختلاف الاجيال والعصور . فكلما جاء عصر جديد اصبح الحل المقبول في سالفه عتيقاً باليا لا يصلح للاستعمال ، ولا يطابق مقتضيات الحال ، لان الانسان مدفوع بطبعه الى تغيير لهجته واسلوبه من عصر الى آخر ، لامندوحة له عن ذلك مهما اراد وحاول . ولقد عالجت هذه المسئلة فاهتديت الى الحل التالي : ان شقاء الانسان نتيجة عظمته .

الانسان يشقى لان الطبيعة اودعته مطامع غير محدودة، لايستطيع مهما احتال وتصرف اشباعها بما يملك من الوسائل المحدودة . أفلو تألفت شركة متضامنة تضم جميع من في العالم من الماليين والمعجدين والحلوانيين افترام يستطيعون أن يجعلوا شخصا واحدا ، ولو من مساحي الأحذية ، سعيدا سعادة حقة؟ كلا انهم لن يستطيعوا ذلك الا مدي ساعة أوساعتين ، لان مساح الاحذية قد أوتي فضلا عن معدته نفسا نهمة لاسبيل الى أشباعها وارضائها الا اذا استولت على ملكوت الله باجمعه ، لاأقل ولا أكثر ، تمرح فيه كما تشاء ، وتستمتع به كيفما تشاء . افتحسبه لو اعطى نصف الكون بلا شريك ولا منازع يبيت قانعا بقسمته ؟ كلا ! فانه لن يلبث حتى ينازع مالك النصف الآخر نصيبه ، ويجاهر بانه أشقي خلق الله واسوؤهم حظا . ان ضياء الشمس الذي نسير فيه لايزال مشوبا ببقعة سوداء ، تلك البقعة هي ظل أنفسنا ، وهل ينجو المرء من ظله؟

« بيد ان هذا الوهم المتسلط علينا من حيث السعادة انما ينشأ كما يأتي : نفترض من تلقاء أنفسنا افتراضات ، ونقدر تقديرات ، نستخلص منها متوسطاً معلوما لما يجب فى حسباننا أن يكون حظنا فى الحياة ، ثم نتوهم ان هذا الحظ المتوسط هو من حقنا بحكم الطبيعة ومقتضى العدالة ، وانه لايعدو أن يكون الاجر الذى نستحقه باستعدادنا ونستأهله بمواهبنا ، اذا استوفيناه كاملا فلامحل لشكر ولاموضع لشكوى ، أما إذا اختلف حظنا عن ذلك المتوسط فالزيادة نعدها سعادة والنقص نعتبره شقاء . فاذا لاحظت أننا نحن الذين نقدر استحقاقنا لانفسنا بأنفسنا ، واذا ذكرت أى مقدار وفير ، من الزهو والغرور ، قد أودع كل ابن أم منا هل يكون من العجب أن نذهب

بعيداً فى المغالاة بأقدارنا ، فيختل التوازن أيما اختلال بين ماندعيه لنا حقاً وبين ما نؤتاه من الحظ فعلا ، حتى ترى كل غبي أحمق يصيح متململا : « أنظروا أى أجر بخس أعطى ، تالله ماعومل انسان هذهالمعاملة السوأى ! » أيها الاحمق ماهذا كله إلا من غرورك ، إلا مما يقوم فى وهمك عن جدارتك واستحقاقك . توهم أنك تستحق الشنق (وهو الاصح فى الغالب) تجد من السعادة أن تضرب بالرصاص ، توهم أنك تستحق الشنق بحبل فى دقة الشعرة تجد من السعادة أن تشنق بمرس من الكتان .

« حقاً ان كسر الحياة ليزداد بخفض مقامه أكثر مما يزداد برفع بسطه. بل ألم يحدثك علم الجبر أن الواحد الصحيح مقسوما على صفر ينتج لا نهاية ؟ إذن فلتجعل ماتدعيه لنفسك من الاجر صفراً ، تجد أن الدنيا بحذافيرها تحت قدميك . لقد أصاب أحكم حكماء هذا العصر حيث قال « انما تبدأ الحياة حيث يتم انكار الذات »

« في ذات يوم سألت نفسى قائلا : اخبرنى أيها الانسان لأمر ما أراك من عهد بعيد ثائراً غضباناً ، آسفاً أسياناً ؟ قل وأوجز ! أليس لانك غير سعيد ؟ أليس لان نفسك (أيها السيد اللطيف الظريف) لاتلقى ما يكفيها من الحفاوة والتعظيم ، واللذة والنعيم ، والمطعم الشهى ، والمهاد الوطى ؟ ضلة لك من أحمق مغرور ! أى قانون من القوانين ضمن لك صفاء العيش وخولك حق الهناء ؟ منذ قليل من الزمن لم يكن لك حق حتى فى الوجود ، ومن يدريك فلعلك ولدت وقد كتب عليك أن لا تكون سعيداً ، بل أن تكون شقياً تعيساً ؟ ما أراك إذاً الا عقاباً شرها منهوما ، تحلق فى هذا الوجود باحثاً عن طعمة تلتهمها ، وصارخاً بأعلى صوتك ، لانك لاتجد من

ارم ما يملأ فراغ بطنك . اغلق يا صاحبي ديوان بيرن [١] وافتح ديوان جوتي [٢] ! »

ثم يصيح الاستاذ في موضع آخر « هاقد لاح لى وميض الحق ! فاني لأرى في الانسان شيئاً أرق وجوهراً أعلى من شغفه بالسعادة . فى قدرة الانسان أن يستغنى عن السعادة ، وتكفيه مكانها البركة والقناعة . أليس من أجل التنويه بذلك الشيء الارقى ، والتنبيه الى ذلك الجوهر الاعلى ، أن الحكماء والشهداء ، والائمة والشعراء ، فى كل زمان ومكان مازالوا يرفعون عقائرهم بالدعاء ، ويكابدون ألوان العذاب والبلاء ، مقيمين الدليل بحياتهم ومماتهم على أن الانسان لايخلو من نفحة الهية ، وعلى انه بغير هذه لايكون له حول ولا حرية ؟ وهذه العقيدة المنزلة من رب السماء قد تشرفت أنت الآخر بتعلمها ، وابتليت بصنوف العذاب الشاق ، وأنواع البلاء الذى باطنه رحمة ونعمة ، حتى تصير نفسك الى الخشوع والانكسار ، وحتى تدرك الحكمة اللدنية حق الادراك . فاحمد ربك على ما أصابك ، وتحمل ما بقي لك بقلب صابر ، ولسان شاكر ، لانك بحاجة اليه ، ولان النفس التى بين جنبيك يجب أن تمحق وتسحق . وكذلك لن تلبث فى تقلب وتململ بينما عناصر الحياة تستأصل من قرارة نفسك شأفة المرض المسكين ، وتنزع من أعماق صدرك أصل الداء الدفين، حتى تفوز على الموت فوزها المبين. هنالك

---

(١) الشاعر الانجليزى المعروف وكان لايزال متبرما بالحياة ساخطا عليها نادبا حظ الانسان فيها داعيا الى اليأس منها

(٢) كبير شعراء الالمان وهو ينظر الى الحياة نظرة هادئة وديعة يقبلها على علاتها مستمتعاً بما فيها من خير .

تروح وقد أمنتك العناية من الزمن ، لايطويك تياره الطامى ، ولايغمرك غماره الطاغى ، بل تظل محمولا على مناكب لججه ، مرفوعا على ذرى ثبجه ، حتى يؤديك الى صفاء الابدية وملكوت الخلود . ايه يانفس لاترغبى فى اللهو وارغبى فى الله ! هذه هى الحكمة السرمدية بفضلها تنحل المشكلات ، وتتسق المتنافضات . فأخلق بمن سار عليها وسعى ، أن لايزل فى خير وهدى »

ثم يقول الأستاذ فى موضع آخر « احقر بهذا الذي تفخر به من انك تستطيع أن تدوس الارض ومظالمها بالاقدام كما علمك زينو حكيم اليونان . إن فى وسعك أن تصنع ماهو خير وأبقى — فى وسعك أن تحب الارض بالرغم مما تسومك من الظلم ، بلى من أجل ماتسومك من الظلم — إن بث هذه الروح السامية السمحاء كان يحتاج إلى من هو أعظم من زينو ولقد بعث الينا فى دوره . هل أتاك حديث « عبادة الحزن » ؟ ان معبدها ذلك الذى أسس منذ ثمانية عشر قرنا خلت ، قد أصبح اليوم أنقاضا واطلالا تملوها الاعشاب الوحشية ، وتسكنها الحشرات المزعجة ، ولكن لاتجفل بل أقدم ، فهناك فى قبو تحت الانقاض المتداعية لا يزال المذبح قائما سليما ، والمصباح المقدس متوقداً وهاجا . »

وهنا يطلق الاستاذ لقلمه العنان فى مباحث الدين والوحى والنبوة والكرامة بكلام غامض مبهم نؤثر أن نضرب عنه صفحا ، ونكتفى بايراد النبذة المفهومة التالية :

« فى هذه الحياة الدنيا ، حيث لانزال مع الوقت فى حرب مهلكة ضروس يتراءى لى أن كل حرب أخرى لاموجب لها ولا مبرر . أيها الانسان هل بينك وبين أخيك الانسان خلاف أو نزاع ؟ إذن فنصيحتى اليك أن تفكر

فى الامر ملياً ! أليس معنى هذا الخلاف اذا أنت سبرت غوره ، انما هو ما يأتى «صاحبى تأمل ! انك تأخذ من السعادة أكثر من نصيبك ـ انك تأخذ جزءاً من نصيبى أنا ، وذلك لعمر الحق مالن اسلم به ، بل أولى بي أن أحاربك دونه »ويلاه! كل هذا والغنيمة التى عليها يتكالبون ، ومن أجلها يتحاربون ، هى شىء حقير سفساف ، هى مجموعة من القشور والاصداف ، لالب فيها ولاشحمة ، ولاتكاد تشفي من ملايين النهمات نهمة . أفما كان أجدر بنا وأحجى أن نقول فى مثل هذه الاحوال « خذ أيها المنهوم الشره ! خذ هذا الجزء الاضافى الحقير الذى اعتده من نصيبى ولكنك تريده لنفسك . خذه بارك الله لك فيه ، ليتنى كنت أملك مايكفيك ويشفيك » لاأقول ان هذا هو كل واجب الانسان ، وانما هو نصف واجبه ، هو الشطر السلبي منه ، لواستطاع الي أدائه سبيلا .

« على أن العقيدة ، مهما صحت وقويت ، فهى شىء عديم القيمة أن لم تصبح جزءاً من السلوك والخلق ، بل هى فى الواقع لا وجود لها قبل ذلك ، لأن الآراء والنظريات لا تزال بطبيعتها شيئاً عديم النهاية عديم الصورة ، كالدوامة بين الدوامات ، حتى يتهيأ لها من اليقين المؤسس على الخبرة الحسية محور تدور حوله ، عندئذ تصير الى نظام معين. ولقد صدق من قال (لايزول الشك مهما كان إلا بالعمل) لذلك انصح لمن يقاسي التخبط فى الظلام البهيم ، أو يعانى التعيث فى الضياء الكليل ، ولايزال يتضرع الى ربه، ويرجو من صميم قلبه،أن يسفر الفجر الملتبس عن صبح مبين ـ أن يضع فى سويداء فؤاده هذه الحكمة الغالية : «ابدأ قبل كل شىء بالواجب الذى بين يديك، بالعمل الذى تعرف أنه واجب ، فانك ان فعلت اتضح لك الواجب التالي »

« بل ألا يصح القول بأن ساعة انعتاق الروح إنما تكون حينما يتبين لعينيك المدهوشة ان هذا العالم الذى مازلت تجاهد فيه جهاد المتم الحيران ، وتتحسر تحسر العاجز اللهفان ، هو بذاته عالم الكمال المطلق الذي تصبو اليه وتتلهف عليه — حينما يتضح لك بين التعجب والاستغراب ان دنياك الجديدة هي فى هذا المكان ، وإلا فستحيلة الامكان ؟ والحق انك لن تجد فى مقامات الحياة مقاما إلا وله واجبه الاسمى ، ومثله الاعلى ، فهنا فى هذه الحالة القائمة والظروف الراهنة ، على بؤسها ومهانتها ، ونكدها وحقارتها ، نعم هنا فى الموقف الذى أنت فيه ، يوجد المثل الاعلى الذى أنت به هائم كلف ، فاكدح لتحصيله ، واعمل لتحقيقه ، وكن حيا مؤمنا ، حراً مطلقاً ! أجل أيها الاحمق ! إن المثل الأعلى هو فى ذات نفسك ، والعقبة أيضاً فى ذات نفسك ، وما حالتك فى الدنيا إلا المادة الأولى ، التى يصور منها ذلك المثل الاعلى ، وما عليك أن تكون المادة من هذا النوع أو ذاك مادامت الصورة التى أنت ملبسها إياها ، ومفرغها فيها ، كريمة جميلة ، ورائعة جليلة . فيامن تنوح فى سجن حياتك الراهنة ، وتجأر بالدعاء الى الآلهة ، طالباً اليهم أن يمنحوك عالماً تنفرد فيه بالحكم والانشاء ، تعلم هذه الحقيقة وهي ان ضالتك المنشودة هى فى حوزتك ، ورهن قبضتك ، هي فى هذا المكان ، وإلا فستحيلة الامكان ، لو كان لك عينان تبصران !

« والواقع أن مثل الروح كمثل الطبيعة ، مبدأ الخلق فى كليهما النور . فحتى تصبح العين بصيرة لابد لسائر الاعضاء أن تظل مقيدة مغلولة . فيالها تلك من لحظة مقدسة اذ يقال للروح الجائشة المضطربة ، كما قيل مرة للسديم

المصطفق « ليكن نور ! » . هنالك تنقطع زماجر الخلاف الداوية ، وتأتلف العناصر المصطرعة المتمادية ، فاذا أجواء منفتقة ، وأفلاك منفهقة ، واذاجبال تبنى فى الحضيض كالأوتاد الراسيات ، واذارقيم يرفع فى السماك مزينا بالكواكب الثاقبات ، حتى تجد بين يديك مكان السديم المظلم الجوانب ، المائج الغياهب ، دنيا تشرح الصدور بهجة وبهاء ، ونضرة ورواء !

« وكذلك أصبحت وفى استطاعتى أن أقول لنفسى « لا تكن بعد اليوم سديماً ، بل كن عالماً نظيما ! انتج ، انتج مافى قدرتك انتاجه ، بالغاًمابلغ من الزهادة والضآلة ! إنه قصارى مجهودك فلتخرجه . هيا بك لاتقعد عاجزاً عاطلاً ! بل مهما تناولت يدك من عمل فاعمله بأقصى قوتك وأبعد همتك ! اعمل مادام الوقت نهاراً ، قبل أن يدركك الليل فلا تستطيع الى العمل سبيلا »

الفصل العاشر

الختام

لقد تتبعنا تيوفلسدورخ فى مختلف أطوار حياته حتى بلغ رشده الروحانى. وسنراه منذ اليوم « ساعيا فى عمل الخير » راميا الى الغاية الجديرة بالانسان . نعم لقد استكشف أن المصنع الخيالى الكامل ، ذلك الذى مافتىء يتشوف اليه ويتلهف عليه ، هو بعينه هذا المصنع الفعلى الناقص العدة والاستعداد ، حيث مابرح يتعيث ويتعثر . وأما الآلات فقد وجد منها كفايته ، وذلك حيث يقول : « آلات ! اليس ذلك عندك منها مايكفيك ! كيف ذلك وأنىّ يكون وما من انسان ، بل مامن شىء ، يعيش فى هذا الوجود الا وقد أوتى

مايعوزه من الآلات ؟ ان احقر المخلوقات ـ ذلك المنكبوت الذى تقتحمه العين ـ قد أوتى مغزلا ومنسجا ومنولا ، كلها مركب فى رأسه الصغير ، وان ابلد الطيارات قد اوتيت آلة هاضمة يصونها بيت من الحجر والجير ، وكذلك مامن شيء حى الاوفى قدرته أن يعمل عملا . آلات ! أليس لك ذهن منار ، أوقابل للانارة ، بوميض من العلم ؟ أليس لك ثلاث انامل تمسك بها القلم ؟ لله در القلم أى عصا سحر هو وأى خاتم ملك ! من عهد موسى وعصاه ، أو من قبل ذلك ، لم ير الناس أعجوبة هى أبرع وأبدع من القلم . والواقع ان هذه الاداة الدقيقة قد أظهرت من الآيات البينات ، والمعجزات الباهرات ، ماهو أعظم وأفضل من كل خارقة مذكورة ، ومعجزة مشهورة . وانه لمن عجائب هذه الدنيا ، التى ظاهر شأنها الصلابة والجمود والثبات وان تكن على الدوام فى قلق ومرج واضطراب ، ان الصوت ، وهو فى الظاهر أهون الاشياء خطرا وأوشكها فناء ، يكون فى الباطن أدومها أثرا وأطولها بقاء . ولقد صدق من قال إن الكلمة هى صاحبة الصولة والسلطان فى هذه الدنيا ، وانه بقوة الكلمة يصبح الانسان الحيآ يقول للشيء كن فيكون . فانهض أيها الانسان من رقدتك ، وانتبه من غفلتك ، وانفث مايجيش فى قلبك ، وبلغ ما أوحاه اليك ربك ـ فما قدر لابن آدم عمل هو أشرف وأسمى من الدعوة الى الحق . ولئن أعطيت ولو أدنى مرتبة في ديوان هذه الدعوة فلحسبك من الشرف النبيل ، والمجد الاثيل ، ان تنفق عمرك وتفنى قواك فى هذه السبيل ! »

« وكذلك اتيح لى أن احترف هذا الفن الرفيع الذى كثيراً ماأراه مع الأسف ينحط فى بعض الأيدى الى حرفة وضيعة . فكم من كتاباتلى ،

وان لم تكن منسوبة اليّ (ومن هو أنا حتى أحفل بان ينسب شيء اليّ؟)قد القيتها في ذلك الحقل العظيم الخصيب : حقل الآراء،وكم رأيت مع الارتياح ثمرات غراسي تطالعني من هنا وهناك ! فالحمد لله الذى هداني الى مهنتي، لتسفر مجهوداتي فيها عن نتيجة أو عن غير نتيجة ، لقد صممت على المضي فيها بكل قواي . »

وهنا يقف الناشر أخيرا ، غير واجد بدا من الأعراب عن شبهة الهمة، مابرحت تجول في خاطره خلال الفصول الأخيرة من هذه الترجمة وتغض مما في قلبه من بقية حماسة كانت لاتزال تجعل واجبه الشائك عملا محبوبا . تلك الشبهة هي أن محتويات هذه الوثائق جلها أوكلها ان هي الاتعمية.وهل بعيد أن يكون كثير من الأمور الموصوفة هنا بأنها وقائع ان هي في الحقيقة الا خيالات ؟ هل بعيد أن يكون كل ماتضمنته هذه الأضابير ليس صورة شمسية لحياة الفيلسوف ، بل مجرد صورة رمزية تشير الى الحقيقة تلميحا لاتصريحا ، وتورية لاتوضيحا ؟ ان الذى نرجحه أن الهر هفرات اذ حسب الصورة الرمزية صورةحقيقية كانمخدوعا في أمره ، كما كان مسلطاعلى خدع غيره. والا ناشدتك الله كيف يعقل أن رجلا معروفا بفرط الاجتحاز وشدة التكتم كصاحبنا الاستاذ يتطوع دفعة واحدة وبكل صراحة فيفتح اغلاق قلعته الحصينة لناشر انجليزى ولهفرات الماني ؟ اليس الاقرب الى المعقول أن يكون غرضه استدراجهماحتى اذاحبسهما في دهاليزها الملتوية وسراديبها لمظلمة أنشأ يتأمل كيف يكون منظر الاغرار المغفلين ؟

ولكن فليعلم الاستاذ أنه مهماخدع فثمة واحد على الأقل لن ينخدع تمويهه . لقد قرأنا أخيراً على احدى القصاصات ، التي كنا قد القيناها جانبا

أول الامر بسبب عدم وضوح الخط ، العبارة الآتية : « ماهذه التى تسميها وقائع تاريخية ؟ أتحسب فى مقدورك أن تكتنه انسانا ، بله نوعا بشريا ، بمجرد نظمك عقداً من هذه الخرزات التى تسميها وقائع ؟ انما الانسان بما نوى ، بالروح التي تحدوه ، لابالعمل الذى يؤديه . وما الواقع الا رموز منقوشة ، لايهتدى الى سرها الاالأقلون ، أماالغبياؤك فلا يتفهمون أسرارها ولا يتفحصون معانيها ، بل همهم أن ينظروا الى حسن نقشها أورداءته ، الى موافقتها أومخالفتها للآداب . وشر من ذلك أجلافك فلقد رأيت بعضهم يقرأ « روسو » مدعيا فهمه متكلفا تفسيره فاذا هو يخطيء افمى الأبدية حاسبا اياها زاحفة عادية . » أ كان الأستاذ اذن يوجس خيفة لئلايخطيءفهم أفماه ناشر كالناشر الراهن يعد نفسه من صفوة الناشرين ، فعمد من أجل ذلك الى تغيير شكلها وابرازها فى صورة رمز أوضح وأبسط ؟ أم هل هذه أيضاً احدى انصاف حقائقه وأنصاف أضاليله ، تلك التى لاينفك يرسلها كالسهام الشاردة لايعنيه أين وقعت ولاماذا اصابت ؟ لسنا ندري على التحقيق ، ومن المحال ، وهذا شأن الاستاذ في غريب أطواره ، أن ندرى . فاذا كان اشتباهنا قائما على غير أساس فليرجع باللائمة على أساليبه المريبة ، لاعلى احتراسنا الواجب .

بيد أنه كيفما كان الامر فقد عول الناشر ، وقد بلغ منه الاين والضجر ، على أن يلقي من يده مؤقتاً هذه الاضابير . وحسبنا أننا عرفنا من الاستاذ حتى الآن « الروح الذى تملكه وحداه ، وان لم نعرف العمل الذى أداه » لاسيما وان كيانه الروحانى ، قد أفرغ الآن فى قالبه النهائى ، فلم يعدمن المنتظر استكشاف شيء جديد ذى خطر . لقد صارت الشرنقة المحبوسة فراشة مجنحة ، ولسوف تظل كذلك حيثما كان مطارها . فلئن تتبعنا الاستاذ في

حركاته وتقلباته خلال أحوال الحيـاة الظاهرية حتى يصل أخيراً الى كرسى الاستاذية ، لما أسفر عملنا عن نتيجة جديرة بهذا المجهود . لقدرأينا تيار حياته الخارجية يتحول عنـد « مصرع الغرام » الى رشاش بخار ، فلنتركه حائماً فى الجو كما رأيناه ، وحسبنا اننا قد وقفنا على اتجاه مجراه العام ؛ ممـا تبيناه هنا وهناك من برك وجمام . بل ألم نعرف فوق ذلك ان هذا الرشاش البخار قد تكاثف من عهد بعيد فنزل مطراً وسال غديراً وانه الآن فى مدينة وسنتشتو يجرى عميقاً هادئاً بحيث تراه عيون الناظرين ؟ اذن فلنكف مؤقتاً عن التنقيب فى هذه الاضابير — عن الحفر فى هذه المناجم ، وان كان هذا لايمنعنا من العودة اليها الفينة بعد الفينة والقاء نظرة على ما احتوته من مادة نفيسة مبعثرة هناك كالجوهر بين الاخباث .

والآن وقد اعتزمنا أن نعود الى كتاب الملابس فقد يحق لنـا أن نتساءل عن مبلغ التقدم الذى تقدمناه خلال هذه الفصول العشر من ترجمة الاستاذ نحو ادراك فلسفة الملابس على حقها . وما نحسب أن الجواب على هذا السؤال يكون كله سلباً . فلقد وفقنا — على حد التشبيه الآنف بيانه : تشبيه الجسر الممتد من باب الجحيم الى حافة الارض ـ الى اضافة بضع صنادل عائمة ، وان لم تكن قد ثبتت بعد فى مواضعها ، بل لاتزال مضطربة على متن الفيضان . أما الى أين ينتهى هذا الجسر متى شدت بالسلاسل ارماثه وربطت اجزاؤه فتلك مسألة لاتزال حتى الآن فى حيز التخمين .

والحق اننا قد استطعنا أن ننظر فى سريرة الفيلسوف من خلال خصاص صغيرة جمة حتى أصبحت معالم تلك الصور الغريبة التى يتصورها عن الوجود الكيفية التى ارتسمت بها فى ذهنه ، غير خافية علينا ، فآرؤه العجيبة عن

الوقت ـ تلك الآراء التي هي جديرة بكل اعتبار والتي لايستعصى فهمها على المتأمل ـ خليقة أن تتكشف عن معان جليلة ـ وأخلق منها بذلك رأيه في الطبيعة وانها وحدة مبينة . ألا يلمح القارىء في قوله عن الطبيعة وعن الحياة انها رداء ـ رداء حي نسج ولايزال ينسج على نول الوقت ـ الايلمح القارىء في هذا الخاطر الهيكل الخارجي لفلسفة الملابس بحذافيرها ؟ اضف الى ذلك أن اخلاق الرجل لم تعد سرا ملغزا ، ألا ترى أن نوعا من الاباء الحق مقترنا بنوع من الخشوع الفياض يبرزان من وسط الكثيف من الغموض ويبزغان خلال المظلم من الابهام كانهما الدعامتان الخليقتان بأن يؤسس فوقهما ويشاد عليهما كل ماعداهما ؟

بل ألا يصح القول بان ترجمة تيوفلسدورخ ـ وان لم تكن فيما نرجح الا صورة رمزية ـ تعرض علينا مع ذلك صورة رجل كأنما أعدته المقادير لفلسفة الملابس؛ لقد كان في جميع أطواره مسوقا سوقا ومدفوعاً دفعا للنظر خلال مظاهر الاشياء الى ذات الاشياء ، وكان كل ماجرى له من تقلبات الحظ وتصرفات الايام من شأنه أنه يقوى في نفسه تلك النزعة السلبية التي انطبعت فيه منذ نعومة اظفاره ، وكان مثله في المجتمع كالزيت في الماء محرما عليه أن يمتزج بافراده في عمل أو في اجتماع ، فلا غرو أن يكون نصيبه العزلة والاستغراق في التأمل . والواقع أن جميع قواه ظلت طوال السنين عدة منحصرة في عمل واحد : تحمل الألم ان لم يجد إلى شفائه سبيلا . وكذلك ظلت مظاهر الاشياء أينما راح وحيثما اغتدي تضغطه وتكربه وتهدده بالعطب الذريع والهلاك الفظيع ، فلم يكن يجد الى السلام والراحة سبيلا الا بانفاذ نظره خلال مظاهر الاشياء الى الاشياء ذاتها . ولكن اليس مجرد النظر خلال

المظاهر - وهى بمثابة الملابس - الى الأشياء ذاتها هو المقدمة والتمهيد لفلسفة الملابس ؟ ألا تلمح فى كل هذا بوادر الغرض الحقيقي الاسمى من هذه الفلسفة والشكل الذى يجب أن تتخذه في يد رجل كهذا وفى عهد كعهدنا هذا ؟

ومانحسب القارىء الكريم ، وهو على أبواب الكتاب الثالث يجهل الآن كل الجهل أين يساق . ومانظن أنه سيعوزنا ، مع كل مالابد أن نخوضه من متاهات ومضال ، أن نلمح الحين بعد الحين وميض نجم قطبي ثابت .

الكتاب الثالث

الفصل الاول

أعظم حادثة فى التاريخ الحديث

لقد رأينا تيوفلسدروخ منذ الفصول الأولى من كتاب الملابس يتكشف شيئاً فشيئاً عن رجل محب للعجب ، منقب عن العجب . وكان من دواعى الدهش أن نراه ، بالرغم من غموضه واستغلاقه ، يخلص الى لباب الكائنات ببصر نافذ وبصيرة ثاقبة ، فلا يجد فى الظواهر الحسية مهما كانت رفيعة عالية ، الا أردية قشيبة أو بالية ، ولكنه من ناحية أخرى يري تحت هذا الظاهر جوهرا روحانيا ابرز للعيان ، بفضل هذه الأردية والخلقان . وبينا يطأ بقدميه خرق المادة بما حوت من زخرف وزبرج إذا به يرفع الروح الى أعلى المراتب ، ويضعها فوق هام الكواكب ، ويعبدها بخشوع واجلال ، وان تراءت له فى أحقر الاشكال . أما مايرمى اليه المؤلف من القاء ناره الاغريقية بهذه الكيفية فى خزانة ملابس الوجود ، أما ماسوف يؤدى اليه هذا الاحراق والتمزيق لكل مااشتملت عليه الحياة من مظاهر وظواهر فذلك ماسوف يستكشفه القراء الآن ، ذلك في الواقع هو الغرض الأسمى والمرمى الأقصى لفلسفة الملابس .

ولكن لايتوهمن القارىء أنه سيقع على هذا الغرض مكشوفا مستنبطا ، بل كل ما نرجى أن نرشده الى مكان وجوده لكي يستنبطه بنفسه . نعم ان مهمتنا تنحصر في ارشاد القراء إلى هذا الاقليم النهي الجديد ، وفى دلالتهم

على مواقع المناجم ، ولكن ليس علينا أن ننقب فيها بأنفسنا و نستخرج منها ماحوت من سبائك ، بل هذا واجب القراء ، فعليهم ان ينقبوا بأنفسهم ، ويحملوا من التبر ماوسعت حقائبهم .

ولا يحسبن القارىء مع ذلك أن مهمتنا الآن قد أصبحت أيسر مشقة وأهون عناء ، وانا حريون بان نسير الى غرضنا بخطو واسع حثيث فى طريق معبد ذلول . كلا ! فالمهمة لا تزال كما عهدنا عناء وشدة ، والطريق لاتنفك غامضة وعرة ، وكل املنا أن نلتقط الخطوات التقاطا وثبة وثبة ، وإن نختار لمواطىء أقدامنا المواقع المناسبة ، علنا بربط هذه المواقع بعضها الى بعض نستطيع أن نهيىء للقارىء (على حد التشبيه القديم) وسط هذا الخضم المضطرب جسرا صالحا للعبور . ولنبدأ الآن بالتقاط النبذة الآتية فانها جديرة بالاختيار : —

« ربما كانت أعظم حادثة فى التاريخ الحديث لامجمع ورمس [١] ولا واقعة « اوسترلتز » ولا معركة « ووترلو » ولا ملحمة « بيترلو » [٢] ولا اية واقعة أو معركة سواها ، وانما هي حادثة أهمل ذكرها أكثر المؤرخين ، والمع اليها بعضهم مع الاستخفاف والتحقير — واعنى بها خصف « جورج فوكس » ثوبا من الجلد ليتخذه لنفسه رداء !

وكان هذا الفتى اسكافا ، وكان أحد الذين يصطفيهم الله فيميط عن بصائرهم حجب الجهالة ، ويهتك عن افئدتهم غشاوة الغرور ، فيبصرون

(١) مجمع عقده البابا فى سنة ١٥٢١ ودعا اليه ملوك أوروبا وامراءها للنظر فى أمر « لوثر » مبتدع المذهب البروتستانتى

(٢) كل هذه اسماء معارك حربية لنابليون الاكبر

الحقيقة وجه الوجه، ويرونها ساطعة رائعة في بهجة الجمال، وبهاء الجلال، فيدعوهم تارة أنبياء الله ومهابط وحيه، ويرفعهم تارة الى مراتب الآلهة.

«وكان هذا الإسكاف يجلس في حانوته الحقير، مكبا على رقعة الاديم يقدها ويفريها بين ركام مركوم من المخارز والاشافي، والخيوط والغراء وما اليها من مختلف الادوات والآلات. ولكن كان بين جنبيه نفس جياشة كبيرة، وكان تحت عينيه كتاب منزل قديم، تطلع روحه من خلال آياته، كما تطلع العين من خلال النافذة، فتلمح اعلام وطنها البعيد، وتشيم بشائر سمائها المقدسية. وكانت هذه النفس الشريفة أكبر مطمحا من ان يقنعها صنع ازواج الأحذية وحذق صناعة النعال واحراز مسكة الحوباء بل ما زالت تسمع من خلال الطرق على الاديم والقرع بالشراك اصواتا وافدة من ذلك الوطن البعيد، وتلمح روائق وروائع تلوح في حاشية السماء المقدسة. ولا غرو فان هذا الاسكاف كان – كما قدمنا – انسانا، وكان يرى هيكل الوجود – ذلك الذي ارسل اليه ليكون من سدنته – قد اقيم بمقدس الاسرار ومطهر المعاني.

فولّى الفتى وجهه شطر قساوسة الحي المنوطين بشرح هذه الاسرار والمعاني، ولكن القساوسة كانوا كلما جاء يلتمس منهم الرشد يصيخون اليه وعلى وجوههم ملل ظاهر وضجر مبين ثم ينصحونه آخر الامر بان ينفي عن نفسه هذه الوساوس، ويطرد من ساحة صدره تلك الهواجس، بمعاقرة بنت الحان، والرقص مع الحسان. فيالهم من عمي يقودون عميا! الا مر بالفن تجمع القشور لهم وتحيي، وتخاط لهم تلك الملابس والقلانس، وتستوي، وتشيد المعابد والكنائس وتبنى، اذا كان الانسان مجرد آلة ماشية وكانت البطن وملحقاتها هي الحقيقة العظمى؟ فأعرض عنهم وعكس بالزجر اشرف

ودموع هاملة ، واقبل على نعاله وتمسك بانجيله . ولبثت هذه النفس مقبورة تحت هضاب وجبال ، من الهموم والاثقال ، ولكنها نفس أبية قوية لن تمكث دهرها فى ذلك السجن المطبق ، والرمس المرهق . فكم من نهار أفنت بياضه ، وكم من ليل امضت سواده ، وهى تجاهد فى طلب الحرية جهادا صامتا ، وتكافح فى سبيل الخلاص كفاحا عنيفا . وبالله كيف كان ذلك السجن الهائل يرتج بنيانه ، وتميد أركانه ، وهو فى يدى تلك النفس الجبارة تهز منه ذات اليمين وذات اليسار حتى تفسخ وتداعى ، فاذا هى قد خرجت من دجى الظلماء الى نور السماء ! ولو كشف الله عن بصائر الناس لوجدوا ذلك الحانوت الحقير حيث كان يجلس ذلك الاسكاف المسكين اشرف من «فاتكان» البابا[1] وأقدس من معبد «لورتو»[2]. وقد كان مما تحدث به نفسه «انى اذا لبثت هكذا مشدود العينين ، مغلول اليدين ، مقيد الرجلين ، بانواع التكاليف والالتزامات ، وضروب الهموم والحاجات ، فلن استطيع حراكا ولن أبلغ مراما ، بل أعيش ما أعيش أسيرا مذللا ، واموت اذ أموت جاهلا مضللا ، على حين أن الاجل طائر عجلان ، والجنة عالية ، والنار هاوية ! ايها الانسان أجل فى مآلك الفكرة ، ان كان فى رأسك من العقل ذرة ! أى مانع يمنعك من الخلاص ، أى حائل يحول بينك وبين النجاة ؟ الحاجة ! الحاجة الى ماذا ؟ اتحسب كل ما فى الارض من اثمان الاحذية مستطيعا اجازتك الى دار البقاء ؟ كلا فلن يستطيع ذلك الا التأمل والاعتبار ، والخلوص لوجه الله والادكار ! فالى الغابات ! الى الغابات ! حيث تأوينى بطون الاشجار ، وتغذينى الفواكه البرية والثمار ، وتكفينى

---

(١) قصر البابا فى روما ويعد من مفاخر العالم

(٢) «لورتو» مدينة فى أيطاليا مشهورة بمعبدها الذى يزوره سنويا كثير من الحجاج

من الثياب أن أخصف لنفسي ثوبا أبديا من الجلد يرافقني مدى العمر ويكون لي نعم الكفن متى حم القضاء »

ثم يستمر الاستاذ قائلا « ما كان فن التصوير بالزيت من الفنون التي مارستها قط ، لذلك لاأدري إن كان ذلك الموقف الذي وقفه جورج فوكس يوم أمسك قطعة الاديم وجعل يخصف منها ذلك الثوب العجيب هو من المواقف التي يسهل على المصور تصويرها . بيد انى مازلت أحسب أن انبثاق فجر الحرية والهمة في قلب الإنسان، واستفاضته في شعاب نفسه شيئا فشيئا وانتشاره في أنحاء كيانه رويداً رويداً ، حتى يرد ظلمة الضلال التي كادت تبتلعه في جوفها الرغيب ، وتلتقي عليه بهولها الرهيب ، ضياء لامعا ، ونهارا ساطعا — مازلت أحسب أن هذا الانقلاب هو أحق شيء في تاريخ الانسان بالتمجيد والتعظيم ، لأنه مظهر الرفعة الصادقة وبرهان المجد الصميم . إذن فلينهض أبرع المصورين وليرسم لنا بنظر نافذ وفهم ثاقب صورة جورج فوكس وقد بسط بين يديه رقعة الأديم لآخر مرة ، وشرع يفريها على مثال لم يسبق له نظير ثم جعل يخصفها ويهيء منها رداء شاملا هو خاتمة مصنوعاته الجلدية ، وآخر مجهوداته الدنيوية . الا بوركت أيها الرجل النبيل ! صمدا في عملك صمداً ! ان كل وخزة من وخزات مخصفك الصغير لتشك فؤاد الذل والعبودية ، وتصبي كبد المطامع الدنيوية ، وتصيب مقتل الفتنة الذهبية ، وان ساعديك إذ يتحركان ، لأشبه بساعدين مفتولين يسبحان ، وإن كل حركة لهما لتحملك عبر خندق السجن حيث الذلة والغرور والغواية ، وتدنو بك خطوة الى ملكوت الحرية والنور والهداية ! أما والله لوتم عملك هذا لكان في أوربا كلها رجل واحد حر ، ولكنته أنت !

«وكذلك لايزال الانسان واجداً من الحضيض الاسفل ، مرتقى الى السماك الاعزل ، ولايزال الفقراء واجدين كتابا منزلا فيه للناس هداية وارشاد. ولئن كان سمى الشهير دياجونيز (١) هو أعظم الاقدمين ، على ما كان ينقصه من رقة ولين ، فأحر بجورج فوكس أن يكون أعظم الأولين والآخرين. لقد كان يشاطر سلفه دياجونيز فضل الوقوف على صخرة الحقيقة ، مستقلا عن كل عون وساعد ، مستغنياً عن كل رافد وساند ، ثم يمتاز عنه بانه لايقتحم الارض بنظرة الكبرياء ، ولا يلحظها لحظة شزراء ، بل يقدر ماتسدى اليه فى المأكل والمشرب والملبس من نعمة ، ويرفع بصره إلى السماء وقلبه يفيض عطفا ورحمة . لله در ذلك الرداء الجلدى ! فلئن كان برميل دياجونيز منبراً شريفا تلقى عليه خطبة تمجيد الانسان بلهجة التهكم والازدراء ، فلقد كان ذلك الرداء منبراً أشرف وأعلى إذ كانت تسمع منه تلك الخطبة ولكن فى غير تهكم وازدراء وقسوة ، بل فى حنان ومحبة ورقة »

لقد مضى الآن نيف وقرنان وذلك الرداء الابدى كما يدعوه الاستاذ قد بلى واندثر ، ولم يبق له فى الوجود أثر ، فليت شعرى ماذا تراه يبغى اليوم من استثارة ذكراه بهذه العبارة الرنانة ، وبعد التمهيد لها بتلك المقدمة الطنانة ؟ أيريد الأستاذ أن يحمل الناس على الاقتداء بجورج فوكس ، وهل يرى من المستطاع فى هذا العصر ، عصر التأنق والرفاهية ، أن جانبا كبيرا من الناس يقدمون على التجلبب برداء شامل من الجلد ، وذلك كما يقول «اصابة لمقتل الفتنة الذهبية ، وفرارا من سجن الذل والعبودية» ؟ إنها وايم الله لفكرة مضحكة.

---

(١) الحكيم الاغريقى الشهير ، صاحب القصة المعروفة مع الاسكندر ، وهو الملقب بصاحب البرميل ، لأنه كان يعيش فيه احتقارا منه للعالم وزهادة فى الدنيا .

هل يرضى صاحب الجلالة بان يخلع رداء الملك وحلته ، وهل ترضى ربة الجمال بان تنبذ وشى الحسن وحليته ، لكي يتخذا لنفسيهما اهابا ثانيا من الادم المدبوغ فوق إهابهما الطبيعي؟ وهل تحسب هذا التبدل إذا تم يكون له من أثر سوى بوار المغازل ومعامل النسيج ورواج المدابغ ومصانع الجلود؟ لقد يتوهم الأستاذ أن هذا الانقلاب جدير بان يؤدى إلى التسوية بين مختلف الطبقات ، وإزالة ماينها من الفوارق والميزات ، وبذلك تجني الانسانية فوائد مذهب « التجرد » السياسية دون تعرض لآفاته الصحية وغير الصحية . ولكن غاب عنه أن الداء أشد تغلغلا من أن ينجح فيه هذا العلاج السطحي ، وان الفوارق التي يخشاها لن تلبث بالرغم من ذلك العلاج أن تنجم واضحة جلية ، إذ يرى السراة والاغنياء ، يختالون فى أحاسن الجلود والفراء ، وربات الحسن والجمال يتبخترن في المصبغات الزاهيات من الجلد المراكشي البديع ، مبطنة بالشمواة الفاخر الصنيع ، ولا يبقى للفعلة والاجراء ، غير جلود البقر السوداء .

أم هل ترى فيلسوفنا يرمى إلى غرض أبعد وأعمق ، فهو يتضاحك فى سره من هذه التعليقات والانتقادات ؟

الفصل الثانى

الملابس الدينية

يمتاز هذا الفصل الذى عقده الاستاذ عن الملابس الدينيـة بانه أقصر فصول الكتاب فنحن ننقله هنا برمته : —

« لست أعنى بالملابس الدينية برانس القسس ومسوح الرهبان ، كلا

ولا أقصد بها الثياب القشيبة التي يرتديها القوم في أيام الآحاد ، وانما أريد بها تلك الصور والاوضاع التي مازال الناس في كل عصر ومصر يلبسونها الفكرة الدينية فيظهرونها بها — أي انهم يمدون الى السر المصون المحرك لهذا الوجود فيلبسونه جسما محسوساً ملموسا ، يظهر بفضله بينهم ، فيكون هو الكلمة العليا : مصدر الحياة ومنار الهدى .

« هذه ولاشك أهم أردية الحياة البشرية . واول من يغزل هذا النوع من الملابس وينسجه هي ام العجائب : الهيئة الاجتماعية . فان الدين ، وان كان مركباً في اصل الخلقة متصلا بجوهر النفس بحيث لا يمكن انعدامه البتة ، الا انه يظل كامنا خفيا لا يظهر ولا يتجلى الا باجتماع اثنين فأ كثر من ابناء آدم . عند ذلك يظهر الشعور الديني مجسما في الحفلات المقدسة . عجيب والله ، بل معجز وأ كثر من المعجز ، أمر هذه المفاوضة بين الروح والروح وكلاهما يتطلعان الى السماء ! هذا حقا مقام تناجي النفوس ، فليس الا في النظر نحو السماء (على اي وجه اولت هـذا القول) لا في النظر الى الارض ، يستطيع الناس أن يحققوا معنى الاتحاد والتآلف ، والاجتماع والتعاطف . وما أصدق نوفاليز حيث يقول : « في اللحظة التي استطيع فيها اقناع غيري بما اعتقد يزداد تمسكي باعتقادي ازدياداً لا حد له » بل انظر انت الى وجه اخيك وتأمل في عينيه المتلألئتين بأنوار الحب المشرقة ، او الملتهبتين بنيران الغضب المحرقة ، واعتبر كيف تسرع اليك عدواه ، فاذا بنفسك الهادئة قد انتقل اليها على غير اختيارك قبس مما تراه ، فلا يزال كلا كما تتقدان ، ويعكس كل منكما على اخيه ناره أو نوره ، حتى يصير ما بينكما شعلة مشتركة من الحنان والود ، أو من الكراهة والبغض الألد ! فقل لي اذن أي تأثير خفي عجيب هذا الذي ينفذ

من العين الى العين ، ويسري من النفس الى النفس ؟ واذا كان الامر كذلك من خلال الاغلفة الكثيفة المحيطة بهذه الحياة الارضية ، فما بالك اذا كان موضوع الحديث بين النفس والنفس هو الحياة اللدنية والاسرار الالهية وقد تصافح القلبان ، وتلامس الروحان !

« وكذلك ترى ان اول من غزل الملابس الدينية وحاكها هو المجتمع . فالديانة الظاهرة نشأت بفضل المجتمع، و بفضلها صار من الممكن وجود المجتمع ، بل ما من مجتمع يستطاع تصوره فى غابر أو حاضر الا و يمكن اعتباره من جميع الوجوه كنيسة حقيقية تلتحق بأحد الأقسام الآتية : — أولا كنيسة منطلقة اللسان بالدعوة والنبوة وهي افضلهن ، ثانيا كنيسة تجاهد كي ينطلق لسانها بالدعوة والنبوة ولكنها لا تستطيع ذلك بعد حتى يحل عيد موقفها[١] ، ثالثا كنيسة اصبحت من فرط الهرم خرساء أو هى تهذى وتخرف عما هو نذير الانحلال . فمن توهم أنى فى هذا المقام أقصد بالكنيسة مجرد الصوامع والكاتدرائيات وبالدعوة والنبوة مجرد الكلام والترتيل فدعه يقرأ فارغ القلب خلى البال .

« أما عن الديانة الصحيحة والملابس الدينية فأقول ولا أخشى فى الحق لومة لائم انه بغير هذه الملابس والنسائج المقدسة ماوجد المجتمع ولن يوجد . فلئن كانت الحكومة للمجتمع بمثابة جلده الظاهر الذى يضم اجزاءه ويقيه ، ولئن كانت طوائف العمال و نقابات الصناع سواء أكانوا يعملون بايديهم

---

(١) عيد الموقف هو عند اليهود العيد التذكارى لنزول الشريعة على موسى ، وهو عند النصارى العيد التذكاري للنهضة الكبرى وهى الحفلة التى تبين فيها رسل المسيح ان سيدهم حي لم يمت وانه فى غيبته اقرب اليهم منه فى مشهده .

أم بادمغتهم هي بمثابة النسائج العضلية والعظمية (الكائنة تحت ظاهر البشرة) والتي بفضلها يستطيع المجتمع أن يقف على قدميه ويعمل بيديه ، فان الديانة فهي بمثابة النسيج العصبي المخيل والجهاز الدموي الباطن يبث الحياة في جميع الاعضاء ، ويبعث الدم جاريا في كل الاجزاء . فبغير هذا النسيج العصبي والجهاز الدموي تصير العظام والعضلات (واعني متنوع الصناعات) الى الجمود والشلل ، فان تحركت فانما يكون ذلك بفضل تيار كهربائي لا بدافع روح حقيقي ، ويصبح الجلد قشرة ذابلة ذاوية أو اهابا عفناً خبيث الرائحة ويعود المجتمع جثة هامدة أحق شيء بها الدفن — حينئذ يكون اجتماع الناس لابداعي التعاطف والتآسي ولكن كما تجتمع البهائم ، وهذه الحال لا يمكن مع ذلك أن تدوم ، بل لا بد أن تنتهي تدريجاً الى تباغض فتقاطع فتفرق ، وبذلك يقضى العفاء حتى على رمة المجتمع . ذلك بعض ما للملابس الدينية على المجتمع من فضل ، فهي اذا تأملت ملاك حياته . وقوام نظامه .

« ولكن من المحزن ان هذه الملابس الدينية قد أصبحت في عصرنا الراهن اسمالا بالية ، بل أصبحت شراً من ذلك ، فان كثيراً منها قد صار مجرد اشكال جوفاء ، ووجوه مستعارة ، لا تجول فيها حياة ولا تسكنها روح ، بل يغص جوفها بجيوش من العناكب البشعة والخنافس القذرة ، بينما الوجه المستعار يحدق اليك باعينه الزجاجية ، محاولا بشكل مرعب أن يحكي الحياة بعد ان انسحبت منه الروح الدينية ، واعتكفت في زاوية منعزلة ، تنسج لنفسها أردية جديدة سوف تظهر فيها مرة أخرى ، فتباركنا نحن أو أولادنا أو أحفادنا . وكما ان الامام الصادق هو افضل الرجال واعلام ، فان الامام الكاذب أحط الرجال وأدناهم ، ومهما راكم على جسده من طيالس وبرانس وقلانس

فلسوف تنزع عنه يوماً من الايام ، لكي تتخذ منها ضمادات لجراحات الانسانية ، أو لكي تحرق وتذرى رماداً للاغراض العلمية أو المطبخية . »

الفصل الثالث

في الرموز

قد يكون في بيان نظرية الاستاذ عن الرموز ايضاح لمغزى ما تقدم من اقوال غامضة ، بيد انا لا نطمع في ايراد نظريته هذه كاملة جلية ، فانك لن تراه اشد استغلاقاً واستبهاماً منه عند الكلام على الوهم ، وأثره في حياة الانسان ، وكيف « ان الانسان وان كان في الظاهر يقوم في نطاق المنظور المحدود يضرب بمزوقه ، بفضل الوهم ، في اعماق غير المنظور ذلك الذي لا قرار له ولا غاية ، والذي ما الحياة نفسها إلا رمز له واشارة » فلندع اذن هذه التأملات العالية على منالنا ، ولنقصر عملنا على ان نلتقط (سواء من الاضابير المخطوطة أو من الكتاب المطبوع) ما قد نعثر عليه من عبارات منطقية ، محاولين بكل جهدنا ان ننظم منها كلاماً منسقاً مفهوماً : —

« من ذا الذي يتحدث عن مزايا الاخفاء أو يتغنى بفضائله ! الصمت والكتمان ! لا جرم ان تبنى الهياكل لتمجيدهما ، لو كان هذا عصر بناء الهياكل . الصمت هو العنصر الذي تنشأ فيه جلائل الامور ، حتى اذا استكملت صورتها ، واستتمت روعتها ، برزت الى ميدان الحياة تصرف زمامه ، وتدبر احكامه . ولیس ویلم[1] الصامت بالرجل الوحيد الذي كان يحتجن فضل منطقه

---

(١) ملك هولانده الذي حررها من النفوذ الاسباني ، كان مشهوراً بصمته (١٥٣٣ — ١٥٨٤) .

ويربأ بنفسه عن التحدث بما يصنع والتشدق بما يفعل ، بل كل من اعرف من عظماء الرجال ، حتى الذين هم ابعد الناس عن فنون السياسة واجهلهم بأبواب المكر والخداع ، كانوا كذلك اكثر دهرهم صامتين .

« بل انظر الى نفسك ، وانت تتخبط فى مشاكك التافهة ، واخزن لسانك ولو يوماً واحداً ، تعلم فى الغد كيف استنارت اغراضك واستبانت واجباتك وكم اكتسح اعوان نفسك الصامتون من القذورات والنفايات ، حينما انقطعت عنهم متطفلات الاصوات والهوشات .

« ليس الكلام كما يزعم الفرنسيون صناعة اخفاء الفكر وستره ، وانما هو صناعة اخماده وبتره ، حتى لا يعود هناك فكر يستوجب الاخفاء . الكلام جليل عظيم ، ولكنه ليس الاجل الاعظم . وكذلك يقول المثل الالمانى : الكلام من فضة والصمت من ذهب ، أو كما اقول انا : الكلام وقتى فان ، والصمت أبدى باق .

« لا يعمل النحل إلا في الظلام ، ولا يثمر الفكر إلا فى السكون ، كذلك الفضيلة لا تحيا الا فى الخفاء . وقد جاء فى التنزيل : لا تطلعن يسراك على ما تصنع يمناك ، ولا تبح لقلبك الذى بين جنبيك بتلك الاسرار التى يعلمها كل انسان . أليس الحياء تربة كل فضيلة ، وأصل كل مكرمة وخلة حميدة ؟ الفضيلة كالنبات لا تنمو ولا تزكو الا اذا اختفى اصلها تحت الثرى ، واحتجب عن عين الضحى ، لا يكاد الضوء يطل عليه ، بل لا تكاد انت تنظر خفية ليه ، الا جف وذوى ، فلا بهجة ولا زهرة ، ولا رونق ولا نضرة ! ايه ياإخوانى ذا نظرتم الى روضة الزواج مزدانة بعقود الازهار واكاليل الريحان ، تحيط لحياة بهالة من الوان السماء وعبق الجنان ، ثم رأيتم من جاء يقتلعها من اصولها

وربكم ، وهو ضاحك السن سخرية وهزؤا ، اللمنة التى منها نشأت ، وفوقها ربت واهتزت ، أيكم يأبى إذن ان يضرب على يدى ذلك الفاتك الخبيث ؟ ؟ فما بال الناس — لا أبالهم — يكثرون التحدث بمنافع الصحف والمطابع ، فأين هذه من فوائد الملابس وابرة الخياط ؟

« وثم شيء آخر اجتمعت له مزايا الاخفاء الكثيرة مع مرافق اسمى وفضائل اسنى : الا وهو الرمز . فالرمز هو مجمع الاعلان والكتمان ، وملتقى الصمت والبيان ، يجل فيه بالاقتران شأنهما ، ويتضاعف بالاتفاق خطرهما ، واذا كان البيان سديداً عاليا ، والصمت شريفا مناسبا ،فقل فى اجتماعهماًمعاً !

« ذلك بأنه فى الرمز ترى الخيال بملكوته العجيب متجليا فى نطاق المحسوس الضيق الحقير، بحيث يمتزج به امتزاجاً، ويندمج فيه اندماجا. والواقع ان كل رمز صحيح ، يتضمن على درجات مختلفة من الغموض والوضوح ، شيئا من تجلى الابدية وتجسم اللانهاية — فالمطلق يمتزج فيه بالمحدود حتى تراه امامك منظوراً ، بل يكاد يكون ملموساً . و بفضل الرموز يهتدى الانسان وينوى ، ويسعد ويشقى . وهو اينما اجال بصره الفى نفسه محاطا برموز بعضها معروف و بعضها مجهول : وما العالم اجمع إلا رمز واسع كبير يشير الى بارئه ، بل ما الانسان نفسه ، إلا رمز يدل على خالقه . وما كل مسعى يبذله ، وكل عمل يعمله ، الا رمز يبرز فيه للمشاعر الظاهرة ،فضل مواهبه الباطنة . وما كل كوخ يبنيه ، فضلا على كل قصر يعليه ، الا وهو جسم ملموس لفكرة معنوية ، واعلان مذاع لإسرار خفية، أو كما يقول الربانيون : دلالة رمزية كما انها حقيقية »

ثم يقول الاستاذ فى موضع آخر بلهجة منافية كل المنافاة لهذه اللهجة

العالية المحلقة فى عنان السماء : «الانسان بطبعه يشبه البوم من بعض نواحيه ، ولعل اقرب مافيه من وجوه الشبه الى البوم تلك الفكرة التى تتملكه اليوم : فكرة المادية وارجاع كل شيء الى اصلين اوباعثين من ألم ولذة . لطالما لعب الانسان الاعيب جمة وحيلا غريبة فى كل زمان ومكان ، فلقد توهم نفسه كل شيء حتى لقد توهم نفسه فى وقت ما كتلة حية من الزجاج ، ولكن ان يتوهم نفسه ميزانا ميتا من الحديد لوزن الآلام واللذات : هذه وأيم الله هى البدعة التى كان القدر يخبئها لهذا الزمن الاخير . هنالك يقف الانسان وهو لايرى فى العالم بحذافيره الامخروطا هائلا قد شحن علفا وشوكا يوازن بينهما ، وإنه لمسترخى الأذنين طويلهما ! وارحمتاه لك أيها المسكين ! لقد كتب عليك ان لاتنفك ابداً مطية الاشباح والاوهام ، ففى ذلك العصر تركبك العجائز والساحرات ، وفى ذلك العصر يركبك القسوس والرهبان ، وفى جميع العصور لايزال يركبك الشيطان . والآن هاهو مارد المادية قد جثم على صدرك اشد وطأة من الكابوس الكارب ، حتى لقد اوشكت روحك ان تزهق ولم يبق فيك من الحياة الاقوة هاضمة آلية . فاصبحت لاترى فى الارض وفى السماء إلا آلة كبرى لاتخشى سواها ولاترجو سواها .

« آه لهفى على رقية افك بها عن الانسان عقدة السحر فاهو الآن أقول له افتح عينيك وانظر حتى يعود بصيرا ! بالله حدثنى فى اى عصر وفى اى مصر رأيت الانسان يعيش بمجرد هذه البواعث من الم ولذة ؟ أين اذن عصور الديانات ، والفروسيات والاصلاحات [1] ، والاناشيد الالرسيزات ،

---

(١) الحركة التى تؤرخ لها الاصلاح الدينى فى سويسرا وألمانيا .

وعهود الارهابيات [١] ؟ بل انظر الى هذا المبشر الملحد نفسه اولم يزر قلبه طائف الحب ؟ دعه ياصاحبي للوقت انه كفيل بشفائه »

ويقول الاستاذ فى مكان آخر : « نعم ياخواني ! انما الانسان خاضع للملكته المخيلة ، وليس لملكته المنطقية الحاسبة . وانما الخيال فى الانسان نبي صادق يسمو به الى جنة النعيم ، أوساحر دجال يهوى به الى قرارة الجحيم . وما المادة — حتى عند ألد الماديين — الا آلة يستخدمها الخيال وكأس يشرب فيها . ولايزال فى حياة الانسان ، مهما بلغت من الخمول ، لمعة الالهام أومن الجنون (وانك لمخير بينهما الى حد محدود) تنفذ اليها من محيط الابدية ، وتنفض الوانها على جزيرة الوقت الصغيرة . واذا كان الفهم هو نافذتك — ولايمكن ان يكون زجاجها شفافا اتم الشفوف — فان الخيال هو عينك التي تصطبغ بنورها الاشياء ، والتى قد تكون صحيحة أورمداء . اولم اشاهد بعيني رأسي خمسمائة جندى يمزقون اربا ، ويقطعون للغربان لقما ، من اجل قطعة من القماش يسمونها « العلم » لوعرضت فى السوق لما زاد ثمنها على دريهمات ثلاثة ؟ الم تنهض الأمة المجرية بأسرها ، كما تزخر امواج البحر تحت الحائط القمر ، لأن القيصر يوسف [٢] وضع فى جيبه تاجهم الحديدى ، وهو على رأى أهل النظر لايربو على نعل الفرس حجما وقيمة . وكذلك دأب الانسان يعيش بفضل الرموز ويحيا ، ويعمل ويسعى ، شعر بذلك أم لم يشعر . وان اشرف العصور تلك التى تدرك فضل الرموز ، وتجليها من القيمة اسماها ،

---

(١) اشارة الى حكم الارهاب فى عهد الثورة الفرنسية .

(٢) هو القيصر فرنسوا جوزيف امبراطور النمسا والمجر الذى نشبت الحرب العظمى فى اواخر ايامه .

ومن المكانة اسناها. فان العين البصيرة لتجد في كل رمز قبسا من الانوار اللدنية اما ساطعا باهراً ، واما كليلا فاترا .

« بيد انه قد يكون للرموز فضيلتان : عرضية وجوهرية ، وان كان الغالب أن لا يكون لها الا فضيلة عرضية ، مثال ذلك الاعلام الحربية والملابس العسكرية وما ينضم اليها من صنوف الشارات والدلالات التى تتخذها الشعوب والطوائف . فجميع هذه وما شاكلها ليس لها فضيلة ذاتية بل احرزت فضيلة مكتسبة بأنها صارت لواء يجتمع فى ظله الجماهير لأغراض شتى تتفاوت نزاهة وطهارة . على ان في هذا الاجتماع بذاته معنى من الفضل السماوى . والواقع ان جميع الرموز ذات القيمة العرضية، لا تزال منطوية على وميض من الفكرة الآلهية ، كما هو الشأن فى الاعلام الحربية ، فانها تدل على فكرة الواجب المقدس والاقدام الشريف وتشير فى بعض الأحيان الي الحق والي الحرية .

« ولكن الأمر يكون بخلاف ذلك اذا كان للرمز فضيلة جوهرية ، وكان هو فى ذاته جديرا بأن يجتمع الناس حوله . دع النور اللدنى يتجلى للحواس البشرية ، دع الابدية تطل فى وضوح او غموض من خلال الصورة الوقتية ، فخليق بالناس ان يجتمعوا حول ذلك المظهر ، ويعبدوا الله امام ذلك الرمز ، ويضيفوا اليه على كر الايام ومر الليالى شرفا جديداً وفضلا طريفا .

« فى سلك هذا النوع الأخير من الرموز تنخرط بدائع الفنون والصناعة ، فمن خلال هذه يلمح الانسان (ان كان ممن يميز الغث من الثمين والمتكلف من المطبوع) بهاء الأبدية مطلا من الزمن ، ويرى نور الحقيقة مكشوفا للبصر . وربما انضاف الى هذا الصنف من الرموز أيضاً قيمة عرضية كما وأيته

كثيرا من الالياذات [١] وما ماثلها يستفيد خطرا على خطر في مدى ثلاثة آلاف من الاعوام. واشرف ماقي هذا النوع من الرموز حياة الأبطال الملهمين: ولاغرو فأية بديعة من البدائع هي أشرف من حياتهم واقدس؟ وكذلك موتهم الذى هو تاج حياتهم واكليل مجدهم، ألاتلحظ فيه معني عميقا ورمزا جليلا؟ ألا إن في ذلك السكون الرائع ـ سكون الفوز المبين ـ السائد على المحيا المحبوب ـ يتبين الانسان (ان امكنته من ذلك سوابق الدموع) التقاء الوقت بالابدية.

« وارقى انواع الرموز تلك التى يرتفع بها صاحبها وصانعها الى عليا مراتب النبوة، فيخرج للناس هدى ونورا، يخرون له سجدا وركوعا: أعنى الرموز الدينية. وكثير ماهي هذه الرموز التى نسميها الاديان، وهي تختلف باختلاف درجات الانسان في الرقى وبحسب مقدرته على تفهم الاسرار اللدنية، وتصوير المعانى الربانية. فبعض هذا الصنف من الرموز يكون له فضيلة جوهرية ولكنها سريعة الزوال، وبعضها لاتكون له الافضيلة عرضية.

« واعلم ان الرموز ان كانت تزداد على مضى الوقت شرفا وتقديسا، فهي اذا تمادى بها القدم عرضة للبلى والفناء. لانها كسائر الظواهر الارضية غير مصونة من الهرم، ولا معصومة من العدم. فالياذة هو ميروس مثلا، وان كانت لا تزال صادقة، قد صارت نائية عن قلوبنا، غريبة عن شؤوننا، وامست منا على مسافة قصوى، كأنها نجم غائر يزداد شعاعه كلالة، وان كان يتضاعف صفاء، حتى ليتعذر على المرء ان يتبين انها كانت ذات يوم

(١) جمع الياذة، وهي القصيدة الشهيرة المنسوبة للشاعر اليونانى هوميروس، واطلقها المؤلف هنا علما على كل قصيدة قديمة لها شأن كبير ولذلك ساغ جمعها.

شمساً عظيمة باهرة ، مالم يستعن على ذلك بمجهر علمى يقرب معانيها البعيدة ويوضح اسرارها الغامضــة . وكذلك ترى انه ما من رمز من الرموز إلا وله اجله المحدود ، ويومه الموعود ، حين يدرج فى طى الــكتمان ، ويهمل فى زاوية النسيان . ولا عجب فجميع الاشياء حتى الــكواكب السماوية ، ومن باب أولى النيازك الجوية ، لها شروق ومتوع وافول »

ثم يقول الاستاذ بعد ذلك « وخلاصــة القول انك اذا أردت الآباد والآزال فابحث عنها فى ملــكات الانسان العميقة المطلقة : فى القلب والوهم. واذا أردت الايام والاعوام فابحث عنها فى ملــكاته السطحية المحدودة : في العقل والفهم . لهذا كان من حق الملهمين من الشعراء والفنانين ن ندعوهم سلاطين هذا العالم وامراءه ،لانهم يصورون للناس رموزاً جديدةويقتبسون لهم من السماء نوراً يهتدون بهديه . ولن تخلو الدنيا من أمثال هؤلاء فى عصر من العصور ، ولعل عصرنا هذا لم يخل منهم . بيد انا جديرون بأن نمنح لقب المشرع أو الحــكيم لمن يستطيع أن يثبت للناس أن هذا الرمز أو ذاك صار بالياً فأصبح غير صالح للاعتداد به ، والاعتماد عليه ، ثم يزيله من امامهم فى لطف ورفق . »

الفصل الرابع

مجد العمل

« اثنان لا ثالث لهما جديران عندى بالاكرام ، حقيقان بالاعظام : أولهما ذلك العامل المكدود ، يكدح بما أوتى من قواه الجسدية وآلاته الارضيــة فى فتح مغالق الارض واخضاعها لحكم الانسان ، فما أشرف عندى تلك

اليد المجلة ، المموجة الخشنة ، فان فيها من صادق الرفعة و بارع الفضل مايليق بصولجان هذا الكوكب السيار ، وكذلك ما أشرف وما أنبل ذلك الوجه الاشعث الأغبر ، قد دبغت أديمه الاجواء ، واشرقت من خلال شحوبه لمحات ساذج الذكاء ، فما هو الا وجه الرجل يعيش عيشة الرجل ، بل ما أجلك وما أشرفك من اجل خشونتك وسذاجتك و عالا تزال تقتضينا الرحمة كما تقتضينا المحبة ! أيها الأخ المعرض لبأساء الحياة ! لأجلنا ما قوست قناتك المعتدلة ، ولاجلنا ما شوهت اعضاؤك المنتظمة ، انت الذي وقعت عليه القرعة ، فراح يحارب دون نناء قائم الدهر ، ويعطي عنا حقوق الكريهة ، فنابك من الكدوح ما نابك ، وأصابك من الجروح ما أصابك . ان فيك لبذرة الهية لو استطاعت الى النماء سبيلا ، وأصابت الى التفتح مساغا ! ولكن قضى عليها ان تبقى دفينة تحت متراكم أطباق العمل واثقال الهموم ، وكتب على روحك ، كما كتب على جسمك ، ان لا تذوق طعم الحرية . ومع ذلك صبراً يا اخي صبراً ! وصمداً الى غرضك صمدا ! انما انت قائم بواجبك المفروض ، ليعدل عنه من يعدل ، انما تكدح لما لا منه بد ، ولا عنه محيد : لاحراز قوت اليوم .

« أما ثاني الرجلين ، وهو عندي أشرف منزلة وأرفع مقاما ، فالذي يكدح لتحصيل مالا غناء للروح عنه : لاحراز قوت العمر ، لا قوت اليوم . اليس هو أيضاً قائما بواجبه ، عاملا في سبيل الوفاق الباطني ، ساعيا بما أوتي من قوة روحانية وعدة سماوية في فتح مغالق السماء واخضاعها لحكم الانسان ؟ أئذا وجب على الفقير الوضيع أن يكدح لكي نحصل على حاجتنا من القوت ، أفلا يجب على السري الرفيع أن يكدح أيضاً لكي يحصل الفقير على حاجته

من نور وهداية وحرية وخلود ؟ ـ هذا نعلى اختلاف المراتب والدرجات أجلها من صميم قلبي ، أما من عداها فخثالة وهباء ، دع الريح تذروه أينما تشاء .

« بيد أن الروعة كل الروعة ، والرفعة كل الرفعة ، فى أن يلتقي الجدان ، ويجتمع السؤددان ، فترى الذى يكدح ليكفى الانسان من حاجاته أدناها ، يكدح أيضاً ليكفيه من مطالبه أسماها . وهل فى الدنيا شىء هو أرفع وأسمى من قديس فلاح ؟ إنه ليرجع بنا إلى عهود الوحي والالهام ، فترى جمال السماء ينبثق من أعماق الارض ، كالنور الضاحك فى الظلام الحالك . »

ثم يقول الاستاذ في موضوع آخر . « لا من أجل كده ونصبه أرثى للفقير وأحزن له ، فكلنا قد كتب علينا ، أما أن نكد وننصب ، وأما أن نسرق وننصب ، وذلك شر وأدهى . وما كان المخلص من العاملين ليجد عمله ملهى وملعبا . وإذا كان الفقير يمسى جائعا عطشانا فالله قد أعد له طعاما وشرابا ، وإذا كان يبيت متعباً حسيراً فالله يرسل عليه من النوم سباتا ، فاذا هو فى كوخه الحقير قد حوته سماء من الراحة ندية صافية ، تلوح فيها بوارق الاحلام بديعة زاهية . وانما الذى من أجله أحزن وأرثى أن يطفأ فى الفقير سراج روحه وأن يعيش ما يعيش فى ظلمة داجية لا يأنس فيها شعاعا من العلم السماوى كلا ولا الأرضى ، يقضى حياته وقد اكتنفه من الخوف والحنق شبحان مرعبان ، لا يفارقانه لحظة من الزمان . وآسفاه ! أبينما ينمو الجسم هذا النمو العظيم ، فيروح مجدول المرائر والعصب ، وافى الألواح والقصب ، تبقى الروح قئة ضئيلة مضغوطة مكروبة ، تكاد من الضيق تزهق ؟ أهذه أيضاً نفحة من روح الله أطلقت من السماء ولكن كتب عليها أن تظل فى الارض حبيسة لا تنطلق ، ومطوية لا تنتشر ؟ أما إنى لأعد موت

كل إنسان يموت على الجهل مع استطاعته استيعاب العلم مأساة كبرى وفاجعة عظمى ولو تكرر وقوعها فى الدقيقة الواحدة عشرين مرة كما تؤكد بعض الاحصاءات ».

الفصل الخامس

(المنقاء)

لقد يظهر مما تقدم فى هذه الفصول الاربعة العجيبة وفى كثير سواها من التلميحات والتصريحات المنثورة نثراً فى تضاعيف هذا التيه الواسع من الكتاب أن الاستاذ هو أحد الذين يرون المجتمع قد أصبح جثة هامدة أو يكاد ، وأنه لولا ماركب في طباعنا من غرائز التعاشر ، وماورثناه عن أسلافنا من عادات المخالطة ، لقضى على هذه الهيئة الاجتماعية بالانحلال فالزوال ، وذلك حيث يقول :

« أتدعو ذلك مجتمعاً حيث لايوجد للروح الاجتماعية أدنى أثر وحيث الفكرة السائدة ليست فكرة الاقامة فى بيت واحد مشترك ، بل فكرة المبيت فى خان مزدحم ، حيث ترى كل إنسان فى عزلة أيما عزلة ، معرضاً عن صاحبه معاديا لأخيه ، يختطف كل ماتناله يداه ثم يصيح (متاعى وملكي) ويدعي أنه عائش فى سلام وأمان ، لأن المكالبة والمهارشة التي فيها تشق الأكياس وتحز الاعناق لاتقع بواسطة الخناجر والمدي ، بل بأسلحة هى أذرع فتكا ، حيث المؤاخاة والصداقة قد صارت أضغاث أحلام وحديث خرافة ، حيث أقدس عشاء ربانى ، هو أكلة فى مطعم شهى ، يكون فيه

الطباخ هو المبشر الانجيلي ، حيث الواعظ لم يخلق له لسان، إلا لـكي يلعق الصحان ، حيث مرشدوك وحكامك لا يستطيعون إرشادك بل يصيحون من جميع الارجاء ملء أشداقهم (دع الناس وشأنهم) ؟ ناشدتـكم الله أيها القوم أن تريحو نا من هدايتـكم وتعافونا من إرشادكم ، فمثل هذا النور أشد ظلمة من حالك الظلام، في الليل الطامس الاعلام . وأما أنتم فـكلوا أجوركم وغطوا في سباتـكم »

ثم يستمر قائلا : « وكـذلك تلاحظ العين البصيرة في كل مكان هذا المنظر المهيج للاشجان : فقراء كالانعام المهملة يهلـكون جوعا وهزالا وتعبا ، وأغنياء أسوأ حالا وأشد بؤسا يهلـكون كسلا وكظة وبشما ، يمضى أرفع الناس مرتبة لاينال من أوضعهم أقل احترام ولا أدنى تـكرمة ، اللهم إلا كلمات من التزلف والملق تصدر عن الالسنة دون الافئدة ، كـتلك التي يجود بها خادم النزل على ثقة بأنه سيضيف قيمتها إلى قائمة الحساب » .

ولقد يحق لنا ان نتساءل هنا : ايوجد بيننا معشر الانجليز أو بين غيرنا من الاقوام كثير من هذه « العيون البصيرة » التي تتجلى لها تلك الظواهر الاسيفة ؟ أم تلك مناظر لايتاح لاحد أن يراها الا من ذلك المرقب الالماني الرفيع ؟ إن الاستاذ يزعم انه يرى في كل مكان ، أعراض انحلال المجتمع بادية للعيان، ويقول فيما يقول : « انظر مثلا أليست فضيلة الفضائل الآن، ومحل المفاخرة والمباهاة في هذا الزمان ، ذلك الشيء الذي يدعونه الاستقلال ؟ ألا ترى الى احقر حقير كيف يرفع عقيرته بالتبرؤ من كل شبهة للخضوع للـكبراء ، والاجلال للرؤساء ؟ ويحكم أيها الحمق المغفلين ! أما والله لو كان كبراؤكم أهلا لأن يحكموا ، ولو أنكم انتم كـنتم أهلا لان تطيعوا ،

كان في اجلالكم لهم واحترامكم اياهم سبيلكم الوحيد الي الحرية . »

ثم يقول الاستاذ في موضع آخر « اما وقد فارقت الروح جسم المجتمع فهل بقي الا أن يعنى بحرق الجثة صونا لها من التعفن ؟ اني لأنظر طوائف الاحرار والاقتصاديين والنفعيين يحملون نعشها وهم يرتلون الادعية والاناشيد ميممين كومة الحطب حيث يوقد على الجثة الموقرة بين عويل القليلين وهتاف الاكثرين . أو قل بعبارة أخرى انه لم يبق اليوم شك فى أن أولئك القوم الذى يتسمون بالاحرار وبالنفعيين وما الى ذلك سوف يبلغون مرامهم من تفكيك أوصال المجتمع وتدمير معظم انظمته وهدم أكثر مؤسساته .

« الا ترى الى جمهور العمال والصناع تلك الطوائف المنتشرة فى كل مكان ، الممتلئة من همة وتعاون ونشاط ، كيف تفشى بينها هذه المبادىء المادية والمذاهب النفعية كانها نوع من الكلب ذريع لايزال تنتشر عدواه ، وتعم بلواه ، حتى يعود وجار الدنيا وقد شمله الوباء ؟ فالويل اذن للصيادين ! لقد كان واجبا عليهم أن يسعفوا هذه العجماوات بالماء — ماء العلم والحياة — قبل أن تضيع الفرصة وتنشب الغصة .

« والواقع ان الدنيا تكابد الآن عملية اتلاف وتدمير . وسواء أمرت هذه العملية بأدوار التآكل الصامت الملح البطيء ، أم بادوار الاحتراق الصاخب المفاجيء السريع ، فلابد أن تنتهي بابادة أوضاع المجتمع القديمة واقامته منها أوضاعا جديدة . هذا حكم القضاء ومن يستطيع أن يعارضه ؟ من ذا الذى يستطيع أن يقبض بيده على عجلة القدر ، فيقول لروح الزمن « ارجعى القهقرى ! » خير لنا وأولى أن نستسلم لما لا منه بد ، ولاعنه محيص ، بل خير لنا وأولى أن نرى الخيرة كلها فيه . »

والظاهر أن تيوفلسدروخ قد آثر لنفسه هذا الاستسلام عن طيب خاطر . فلقد رأيناه يقول ان العالم كله قد اصبح « سوقاً هائلة للاسمال البالية» وان « خرق الرموز القديمة » كانت تتهافت في كل مكان ، كالمطر الهتان ، حتى لكادت تغمره وتخنقه . فلا عجب أن ينظر بعين الرضى الى عملية اكتساحها واتلافها مادامت تحصل في رفق ولطف . نعم لقد كان يسره أن يشاهد ، وهو آمن فى مرقبه ، وحش المادية والنفعية ينطلق — وانما بعد أن يزم ويخطم ، ويقيد ويلجم — لكى يطأ بسنابكه المريضة الثقيلة ما هنالك من قصور متخربة وهيا كل متهدمة حتى يسويها بالتراب ، تمهيداً لتشييد غيرها مما هو خير وابقى . وبهذه المناسبة يقول الاستاذ : —

« ليس المجتمع بميت ، فان هذه الجثة الهامدة التى تسميها المجتمع الميت ان هى إلا رداؤه البالى ، نزعه عن نفسه ليرتدى ما هو اشرف وأسنى . أما المجتمع ذاته فلن يزال فى تطور مستمر وارتقاء مستديم ، من حسن الى أحسن ، ومن رفيع الى أرفع ، حتى ينغمس الوقت فى الابدية . فأينما اجتمع اثنان فأكثر من بنى آدم فهنالك يكون المجتمع ، أو هنالك سيكون ، بمعداته الدقيقة ومنشآته الجليلة ، منتشراً على أديم هذا الكوكب الصغير ، ومتصلا بأعالى السماء وقرارة السعير . فانك لن تراه يد الدهر خالياً من ظاهرتين خطيرتين : احداهما تشير الى الله والاخرى الى الشيطان : المنبر والمشنقة . »

ألم يحدثنا الاستاذ فى غير هذا الموضوع عن « الروح الدينية منعكفة فى بعض الزوايا المنعزلة ودائبة فى نسج اردية جديدة لنفسها ؟ . لعل تيوفلسدروخ نفسه كان أحد أنوالها .

وهنا يشير الاستاذ الى تلك الحكمة المأثورة عن القديس سيمون ، حيث

قال « ان العصر الذهبي ، ذلك الذي وضعته الاساطير العمياء في الزمن الماضي، هو في الحقيقة أمامنا في الزمن الآتي ! »

ولكن دع ذا واستمع الى ما يقوله في موضع آخر حيث يشبه المجتمع بعنقاء الاساطير ، تلك التي كانت تقدم نفسها قربانا للنار في كل حقبة ، ثم لا تكاد تحترق حتى تنهض من الرماد مجددة الشباب : —

« وهل عجب أن يتطاير الشرر حينما ترفرف العنقاء بأجنحتها على الحطب الملتهب ؟ ويلاه لقد رأيت بضعة ملايين من الرجال ، وفيهم امثال نابليون ، يحترقون كالفراش المتهافت في ذلك اللهيب المندلع . وانى ما زلت اخشى ان يلفح شواظ تلك النار بعض الذقون غير المحترسة .

« أما متى ينتهي هذا الاحتراق والتجديد فعلمه عند ربي . لان الانسان يكره التغيير بفطرته ، ومن أرسخ الغرائز فيه التشبث بالقديم ، فهو قلما يغادر بيته العتيق حتى يتداعى فوق رأسه . ولقد رأيت من الجلالات مايتلوم كرسميات ، ومن الرموز المقدسة ما يتلوم كمظاهر فارغة ، الى مدى نيف وثلثمائة من الاعوام بعد ان تلاشى منها كل أثر للقداسة والحياة . فليت شعري أفلو عرضت علينا المقادير ان تنجز لنا هذا الاحتراق والتجديد في ظرف قرنين مثلا ، بحيث نجد انفسنا بعد انقضاء هذه المدة عائشين في مجتمع حي وقد فرغنا من الحرب والنضال وأقبلنا على العمل والانتاج ، أفلا يحسن بنا أن نقبل هذا العرض ونمضي الصفقة ؟ »

الفصل السادس

الملابس القديمة

لقد ذكرنا آنفاً ان الاستاذ تيوفلسدروخ ، على ما فى ظاهره من خشونة وعجرفية ، هو في الحقيقة من أرق الناس حاشية واوفرهم أدبا ، يفيض صدره بعواطف الاحترام ، و يذوب قلبه لينا ودماثة . والواقع أنه قد أوتى من حسن الأدب المطبوع ما يعد حلية لغريب اطواره وشواذ خصاله ، كما يتحلى بسنا الفجر مدلهم السحاب ، فيصير ابهى رونقا من وشى الربيع وآنق بهجة من وشاح السماء ، وكما يصطبغ باشعة الشمس دخان لندن ، فيعود من فرط اللألاء ، كالذهب الوضاء . وحسبك على هذا دليلا ما يقوله عن فضيلة التأدب والاحترام : —

« ترى هل سيبقى واجب الاحترام أخرى الدهور لا يؤديه الا الاغنياء ولا يؤدى لغير الاغنياء ؟ لست أرى اى تلازم بين الحسب والنشب ، و بين التربية الصحيحة وحسن الأدب ، بل عندى ان التربية الصحيحة والآداب الفاضلة هى شىء كامن فى الفطرة ، وان واجب الاحترام مفروض على جميع الناس لجميع الناس ، لا فرق في ذلك بين فقيرهم وغنيهم ، بدويهم وحضريهم . والواقع أنه لو كان القائمون بأمر تهذيبنا يؤدون واجبهم بنصح واخلاص ، لو كانوا هم اهلا لتأدية هذا الواجب الشريف ، لأصلح هذا الفساد مع كثير سواه من المفاسد والاغلاط . نعم ولصار كل انسان لأخيه معلما ناصحا ، ومثالا صالحا ، حتى لا يبقى فى العالم قروى جافى الآداب غليظ الطباع ولا قروى جاهل باسرار علم النبات و بأن الارض التى يفلحها كان بدء خلقها في السماء .

« أو لست يا صاحبي سواء أكنت تقبض على صولجان الملك ، أم عَلَى محراث الارض ، انسانا حيا ، ومخلوقا آلهيا » يقول نوفالنز « ليس فى الدنيا الا هيكل مقدس واحد ، هو جسم الانسان ، لا شيء فى الارض اطهر منه طهراً واقدس قدساً . وعندى أن من ينحنى بين يدى هـذا الهيكل الرفيع فانما ينحنى بين يدى الروح الالهية ، متجلية فى هذه البنية الآدمية . وأنك إذ تضع يدك على جسم انسان فانما تلمس بها عنان السماء . »

« لهذه الاعتبارات كان بودى أن افعل ما لم يفعل احد سواى ، فلا اقتصر على الانحناء للرؤساء الروحانيين ، ومن يلبس قلانس اصحاب الدين ، كما كان يفعل الدكتور جونسون الانجليزى ، ولـكني اتعـدي أولئك الى كل انسان يلبس اية قلنسوة ، أو لا يلبس قلنسوة ما . ولا غرو افلا نزال — وان لم ينتسب الى زمرة الروحانيين — هيكلا مقدساً ، تتجلى فيه القدرة الآلهية ، وتسطع الآية السماوية ؟ ولـكنى وآسفاه اجد هذا الانحناء لجميع الناس بلا تمييز ليس يجدى نفعا . لأن فى قلب الانسان شيطانا كما ان فيه ملاكا ، والشيطان وحده هو الذى يفوز بالانحناءة فى أكثر الاحيان ، اذ يضرب الغرور بها فى جيبه ، والغرور اجلى مظاهر الشيطان ، فى هذه الازمان . لهذا السبب وجب علينا أن نحتفظ بانحنائنا وأن لا نجود به البتة .

« بيد أنى اذا كنت امسك عن اداء واجب الاحترام للانسان ، فلشد ما اغتبط بان أؤدى هذا الواجب لتلك القشور والاصـداف التى تنزع عن جسم الانسان ، فتعرض على العين هيئته خالصة نقية ، غير مشوبة بشيء من شهواته الشيطانية : تلك القشور هى الملابس العتيقة أو الثياب المطروحة . بل ألا ترى فى الواقع ان اكثر الناس انما يؤدون واجب الاحترام للملابس

بعينها ، وليس للحيوان ذى القائمتين الذي يختال فى أذيالها : من ذا الـذي رأى منكم أحداً من اللوردات يحييه الناس بتحيته وهو فى اسمال رثة واطمار بالية ؟ غير ان عبادة الثياب وهى على اجسام لابسيها لا تكون خالصة لوجه الثياب ، بل ممذوقة بشيء من النفاق والخديعة ، لان الجسم يتعدى فى كثير من الاحوال على حقوق الثياب فيغتصبها ما كان موجها اليها . فمن اراد ان يجتنب الـكذب ـ وهو ام الخبائث ـ فليعدل بعبادته الى سبيل آخر، وليعلم انه سيجد فى الثياب المنزوعة وجها صحيحاً لتلك العبادة التى تظل ملتوية معكوسة ، مادامت موجهة الى الثياب الملبوسة . وكما ان العابد الهندى يعتقد ان بيت الآله لا يقل عن الآله شرفا وجلالا ، فكذلك انا اعطى الثياب وهى منزوعة من خالص الاعظام وصادق الاجلال ، مثلما ابذل لها وهى على ابدان لابسيها ـ بل ازيد لها واربى ، لانى فى هذه الحالة لا أخشى على نفسى غرورا ، ولا على غيرى خداعا .

« لله در الملابس العتيقة ! أية عظمة فيها وأى جلال ، وأية مهابة وأى وقار ! تتواضع فى شرفها ، وتتجمل فى مجدها ، بحيث لا نظر شزر ، ولا همز ولا لمز . تقابل الدنيا برزانة وسكينة ، وترقب الحوادث فى هدوء وطمأنينة ، لا تقتضى الناس شعائر الاعظام ، ولا ترهب ان تفوتها منهم مراسم الاحترام . تحفظ القبعة صورة الرأس وهيئتها ، ولكن الغرور والغباء ، وما ينم عنهما من هذر وهذاء ، قد فات وتولى . ويمتد كم الثوب ، ولكن لا للاذى والضرب . ويتدلى السروال ، فى ارتياح وانسدال ، غير مشدود ، ولا مجهود ، ولكنه يتملق تملقا رخيا ، ويتدرج تدرجا نديا . وينبسط الصدار ، فى سكون ووقار ، غير خافق بالشهوات الجائحة ، والاطماع الجامحة ، لا يأنس للجوع سعارا ، ولا

للعطش اوارا . وهكذا تجد الثياب نقية مطهرة، لا تعلق بها ادران الشهوات، ولا تشوشها خوالج النزغات ، فكأنها وهي راكبة على مشجبها ملاك روحانى، أو خيال نقى ، هبط الى الأرض على صهوة براق سماوى !

« ولقد كان من عادتى — وأنا مقيم فى مركز الحياة المتحضرة — عاصمة بلاد الانجليز — أتأمل فى أحوال البشر ، وأسائل القضاء والقدر ، تحت سماء ذلك الضباب القاتم ، والدخان الكثيف المتراكم ، كانه بحر حالك من المداد ، — اقول كان من عادتى يومئذ أن أيمم سوق الملابس القديمة ولا قصد لى الا التذكر والعبادة . فأطوف بالحوانيت المملوءة بالثياب اللبيسة ، وكأني لفرط الخشوع أطوف بمما كف الارواح الطاهرة . وأظل أتأمل تلك الملابس في سكوتها الفصيح واتذكر كم شاهدت وكم باشرت من افراح واتراح ، وشهوات ونزعات ، وفضائل ورذائل ، وكل ما ينطوى عليه سجن الحياة من خير وشر ، وحسنات وسيئات . ايه ياخوانى ! اياكم وذلك الانسان التى لا يذوب قلبه خشوعاً فى حضرة الملابس البالية . وانظروا بعين الاجلال الى ذلك الاملم الاكبر [1] الذى يدعوها اليه بصوته المبحوح ، من كل فج طموح ، كانه اسرافيل ينفخ فى الصور ، ليبعث من فى القبور . انظروا اليه وعلى رأسه ثلاث قبعات كانه « البابا » ، وعلى ذراعيه الممدوتين أمثال الاجنحة الخفاقة ، ينشرها فتجثم عليها الملابس المدعوة ، وكلما رفع ذراعه فى الهواء ارتفع صوته العميق الرهيب كانه ينبعث من جوف بوق ويصيح : « هلمى الىّ ياخيالات الحياة فقد حانت الساعة وجاء يوم الحساب! » تعالى اليه أيتها الخيالات المرفرفة ، واعلمى أنه سيغمسك في مطهره ، ويزيل عنك الادناس

(١) يعنى دلال الملابس القديمة .

والادران، بالمياه والنيران ، وابشرى بيوم تخرجين فيه إلى الحياة مرة أخرى نقية الجيب طاهرة ! وأنت أيها الانسان الذى يوشك لهيب الورع أن ينطفىء بين جنبيك والذي لم تشعر قط فى حياتك بصبابة التعبد ورقة الخشوع ، إذهب يوما إلى سوق الملابس القديمة ، وطف فى أنحائه ، وجل فى أرجائه، وتأمل واعتبر ، وتبصر وادكر ، ثم خبرنى ألا يزال قلبك خليا وعيناك جامدتين؟ »

لاريب فى أن أكثر القراء ، ونحن معهم ، سيرون فى هذا الكلام ضربا من المبالغة ، فكثيراً ماتجولنا نحن أيضاً فى سوق الملابس القديمة هذه ، فما كنا نشعر بشىء من صبابة التعبد ولا رقة الخشوع ، ولعل بعض السبب فى ذلك يرجع إلى أن عملية التفكير والادكار كانت لاتزال تعطل عندنا بفعل أولئك الدلالين والسماسرة الذين يقطنون فى تلك الكنيسة [1] ولايبرحون يتطفلون على المتعبد بإفتراحات كلها دنيوية . أما تيوفلسدروخ فالظاهر أنه كانت تستولى عليه حالة من تلكم الحالات التى لاتدع لدلال أملا فى بيع أو شراء ، فكان يترك هناك يتلوم ما شاء ، لا يعطل تفكيره معطل ، ولا يتطفل عليه متطفل. لشد والله ما كنا نشتهى أن نرى ذلك الشخص الفلسفى الضئيل بقبعته المسنمة و« بنطلونه » الفضفاض ، وقد اشتعل لهيب الصبابة فى عينيه وراح يجوب تلك السوق الهوجاء ، ذهابا وإيابا ، منغمسا فى أعمق التأملات، شارد اللب فى رائع الاحلام والتصورات! الله الله أيها الفيلسوف لقد كنت تنصت بينما غيرك يصخب ويلغو ، وكنت تسمع بآذانك المرهفة حتى نمو العشب وهو ينمو !

---

(١) يعنى سوق الملابس.

الفصل السابع

النسائج العضوية

لقد يظهر لنا نحن الذين كان من نصيبنا أن نعيش فى الدنيا وعنقاء المجتمع تحترق ، وتحترق في بطء شديد ، حتى ليكون من نعم الله علينا لو تم هذا الاحتراق فى ظرف قرنين كما يزعم تيوفلسدروخ — تقول لقد يظهر لنا وهذا شأننا أنه ليس امامنا الا مستقبل رمادي ، وانه لن يتاح لنا أن نشاهد فى مدى حياتنا غير مظاهر التخريب والتدمير . ولكن هوّن عليك فالاستاذ يرى غير هذا الرأى ، وذلك حيث يقول :

«ما كان التغيير ليتم عادة فى أى شىء حى الا على التدريج ، فالأفعى مثلا لا تكاد تسلخ رداءها القديم حتى يكون قد حيك تحته رداؤها الجديد . ولشدما تخطىء اذا كنت تحسب أن سبيل عنقاء المجتمع فى التبدل هى أن تحترق أولا حتى تصير ركاما من الرماد الخامد ، وعندئذ تثب العنقاء الجديدة وثوبا كأنها خلقت بأعجوبة فتطير محلقة في الفضاء . كلا ما هذه بسبيلها ! إن عمليتي الأنشاء والافناء يجريان سويا في تلك الزوبعة النارية ، فبينما يذرى فى الهواء رماد القديم تكون النسائج العضوية للجديد فى سبيل التكوين ، ومن خلال عصف الرياح وثوران الزعازع توافى اذنيك نغمات أنشودة المماة الرخيمة منتهية بنغمات أنشودة الميلاد التى هى ارخم وأعذب ، بل انظر بعينك فى الزوبعة تجد ما أنا واصفه»

اذن فهلم أيها القارىء ننظر بأعيننا فى الزوبعة . أنه لا أمل لنا معشر الضعاف المساكين أن نعمر قرنين حتى يتاح لنا أن نستمتع برؤية العنقاء

الجديد مكتملة الخلقة . اذن فلا أقل من أن تنظر اليها وهي في طور التكوين، ولنبدأ بهذه الملاحظات التي يوردها الأستاذ عن النوع البشري بوجه عام. —

« عبثاما تحاول انكار الحقيقة : انت اخي برضاك او رغمك . ان ما تستشمره لي من حقد أو حسد ، وان ماتفتريه عليّ في ساعات غضبك من اكاذيب سخيفة ما هو الا عطف معكوس . افلو كنت آلة بخارية ، أكنت تكترث بافتراء الاكاذيب علي ؟ كلا وربك ! بل كنت ادور وأطحن ، غير محتفل بي ولا ملتفت اليّ سواء أسأت الطحن أو أجدته

« عجيب والله امر تلك العلائق التي تربطنا بعضنا ببعض اما بعرى المودة الناعمة ، أو بسلاسل الضرورة اللازمة ! وكثيرا ما قلت في نفسي وقد صادفت شبحا من تلكم الاشباح المتبخترة الغريبة ، التي تبعث في ذهن رائيها كل ما شاكلها من الخواطر الغريبة ، « أيه يا أخي أفلو كفؤوا عليك بغتة أناء من الزجاج كأعظم ما يتصوره المتصور — أي حادث يكون ذلك لا بالنسبة اليك خاصة بل بالنسبة الى العالم كله عامة ؟ اذن لرأينا خطابات البريد ترد اليك بقلة أو كثرة ، من كل صوب وحدب ، فتصطدم بحيطان الزجاج ولكنها تسقط ولم يقرأ منها حرف . إذن لانقطعت رسائلك عن الناس اجمعين لا يصل اليهم منك سؤال ولا جواب . إذن لانحبست افكارك في خاطرك لا يتلقاها سمع محب ولا قلب ودود . إذن لحرم الناس ثمرات عملك ونتاج يديك . اذن لانقطعت عن أن تكون قلبا حيا ذا أوردة وشرايين يأخذ ويعطي ، ويبعث سياله جاريا في انحاء المكان ، وأثناء الزمان . نعم إذن لقد حدث فتق في رداء الوجود المظيم العميم ، فصار واجبا رفوه !

« إن دورة العروق والشرايين ، وأعنى تلك الخطابات والاشارات والرسائل الشفوية والطرود البريدية التى ترد اليه وتصدر منه ، إن هى الا كدورة دموية ظاهرة للعيان . أما الدورة العصبية ، ذات المسارب الخفية ، تلك التى بفضلها لا يذهب شيء من فعاله محادق ، الا ويترك فى جميع الناس أثره الأدق ، والتى بفضلها يُدخل بما يرتسم على سحنته ، المسرة أو الكآبة على كل من لمحه بنظرته ، بحيث لا يزال يولد كل جديد من المسرات والكآبات — هذه الدورة العصبية هى مما لا يرى بالعين ، بل يدرك بالوهم. أو لم يبلغك أنه ما من هندي من متوحشى أمريكا وصائدى كلابها البحرية يتشاحن مع امرأته الا أصاب العالم من مشاحنته بعض الاذى ، فأقل ما فى الامر ان ترتفع أسعار الفرو ؟ أليس من الحقائق العلمية ان هذه الحصاة اذا القيتها من يدى تغير لها مركز ثقل الكون ؟

« واذا كان الجيل الواحد يتواشج افراده بعضاً ببعض هذا التواشج العجيب ، فان ارتباط الاجيال المتعاقبة أحدها بالآخر لا يقل عن ذلك وثاقة ومتانة . ألم تفكر ملياً فى تلك الكلمة العميقة المغزى : الوارثة ؟ ألم تر أننا لا نرث عن أسلافنا مجرد الحياة ، بل نرث معها متاعها وحطامها ، قوالبها واشكالها ، وأننا نعمل ونتكلم ، بل نفكر ونشعر ، كما علمنا آباؤنا الاولون ؟ من الذى طبع لك مثلا هذا الكتاب المتواضع فى فلسفة الملابس؟ لا تلك الشركة التى تجد اسمها مرقوماً على غلافه، بل كادمس صاحب طيبة[1] ثم فوست صاحب منتز ، وآخرون لا يحصى لهم عدد ولا يعرف عنهم خبر. وكذلك لولم يوجد بولفيلا القوطى ماوجد شاكسبير الانجليزي. أيها الابله!

(١) أول من نقل الحروف الهجائية الى بلاد اليونان واخترع فن الكتابة .

ان الذى صنع ابرة خياطك ، وخاط لك رداءك ، ليس ذلك الصانع الذى تعرفه ، ولا الخياط الذى تعهده ، بل هو توبلكان ، أول من استخدم الحديد فى مرافق الانسان !

« حقائق كانت الطبيعة شيئاً واحداً ومجموعاً حياً لا يقبل التجزئة ، فالنوع البشرى ، وهو الصورة التى تمثل الطبيعة وتنشئها والذى لولاه ما كانت الطبيعة ، هو كذلك من باب اولى . وفى جسم هذا المجموع الآدمي العجيب يجرى ، بين الكثير من التيارات الخفية ، ذلك التيار الملموس المرئى : تيار الآراء ، متمثلا فى المعاهد العلمية والمنشآت الدينية وعلى الاخص فى الكتب . بديع والله ان تعلم ان الموت لا يعرف الى الفكرة سبيلا ، وان صاحب الفكرة كما يجنيها وينشئها من الماضي برمته ، يورثها ويهديها للمستقبل برمته ؛ وكذلك ترى ان الفؤاد الذكى والعين الجلية اللذين كانا فى القرون الاولى لم يذهبا ولم ينعدما ، بل هما باقيان فينا نحن أصحاب القرون الاخيرة ، فنحن بذلك القلب نشعر ، و بتلك العين نبصر .

« ومما هو جدير بالاعتبار ومفيد لتقدم هذا المجموع البشرى تقسيمه أجيالا . فالاجيال هى للبشرية المتعبة بمثابة الايام ، والوفاة والميلاد هما ناقوسا المساء والصباح اللذان يدعوانها الى النوم ثم الى الانتباه لاستئناف التقدم منتعشة الجوارح مجددة النشاط . والذى يستطيعه الآباء يستطيعه ويستمتع به الابناء ، ولكن لهم فضلا عنه عملا خاصاً بهم وواجباً مفروضاً عليهم . وكذلك ترى كل شيء في تقدم مستمر وارتقاء ، فالفنون والمذاهب والعلوم والآراء ، كل ذلك لم يبلغ كماله ولكنه لا يزال يتدرج اليه . لقد تعلم نيوتن ما استكشفه من قبله كبلر ، ولكن نيوتن قد أوتى قوة سماوية جديدة ،

فلا بد له من الصعود الى درجة أرقى في سلم العرفان . وهكذا أيضاً جاء الرسول المسيحي مكملاً للشرع الاسرائيلي . وإنك لتجد مثل هذا الترتيب والتؤوب فى اعمال النقض والهدم ، التى هى من آن لاخر فرض واجب وضربة لازب . فلوثر وجد من الدفء كفايته فى احراق تذاكر الغفران التى أصدرها البابا ولكن فولتير لم يجد فى ذلك الرماد الخابى صلاء كافياً ، فاحتاج الى وقود جديد . ذلك شأن الانسانية اينما وجدتها الفيتها فى حياة وحركة ، فى تقدم بطيء أو سريع ، كالعنقاء اما محلقة في كبد السماء ، ترفرف بأجنحة مبسوطة وتملأ الآفاق بالغناء ، واما — كما تفعل الآن — مسفة الى الثرى ، ملفعة باللهيب واللظى ، كى تعود فتحلق الى أفق اعلى ، وتغرد بصوت اصفى . »

وهنا يصرح الناشر بانه لا يلاقي في مبحث من مباحث هذا الفيلسوف من الدهش والحيرة ، بل من العنت والعناء ، مثل ما يلاقيه كلما تعرض به لموضوع السياسة . لذلك نضرب صفحاً عن الكثير من اقواله في هذا الصدد ونكتفى بايراد العبارة التالية عن عبادة الابطال ، ولعلها احدى النسائج العضوية التى خرجنا للبحث عنها فى هذا الفصل : —

« صحيح ان الانسان فى هذا الزمان أصبح قادراً على كل شيء تقريباً الا الطاعة ، وصحيح ان العاجز عن الطاعة عاجز لا محالة عن الحرية ، وعاجز من باب أولى عن الحكم ، وان الذى ليس هو أدنى من شيء لن يكون أعلى من شيء ، كلا ولا نظيراً مساوياً لشيء . ولكن اياك ان تحسب الانسان قد فقد مع هذا ملكة الخشوع والاجلال ، وانما هى فى رقدة لا تلبث ان تستفيق منها ، والحق انه ليس أبغض الى ابن آدم من هذا الاستقلال الثائر حينما يصبح ضرورة متحتمة . ذلك بأنه ليس الا فى معاشرة اخوانه على الصفاء

والمحبة يستطيع المرء ان يشعر بالطمأنينة ، وليس الا بالانحناء فى خشوع امام الذى هو أعلى منه يستطيع المرء ان يشعر بالرفعة .

« ومن ذا الذى يدرى فلعل الوصف الحقيقى لعصرنا هذا الثائر المتمرد ان الانسان قد تخلى بتاتا عن رذيلة الخوف ، وهى الاخس الادنى ، ولكنه لم يتحل بعد بفضيلة الخشوع وهو الارفع الاسمى ؟

« وإنه لمن عجائب صنع الله أنه حيثما وجد شيء جدير بالطاعة ، لم يكن فى وسع الانسان إلا أن يطيعه . وانه حيثما تجلى السر الالهى ولو فى أضعف لمحة ، كان من المحال على الانسان أن يقف أمامه جامداً غير خاشع ، لاسيما إذا كان هذا التجلي يتراءى له فى صورة أخيه الانسان . وكذلك لايزال يوجد فى القلب الآدمى طاعة دينية صادقة ، كامنة مستسرة ، بل ظاهرة جلية — حتى فى عصرنا هذا — بمظهر « عبادة البطولة » . عجيبة والله هذه الحقيقة القائمة وهي أن عبادة البطولة مازالت ولاتزال ولن تزال موجودة فى كل زمان ومكان ! ألا يرى القارىء فى هذه الحقيقة حجر الزاوية الذى يمكن أن تتوطد عليه دساتير الشعوب وأوضاع الحكومات على مدى الحقب ؟ »

وهنا يقول الاستاذ « أم هل نسيت باريس وفولتير ، وكيف كان ذلك الشيخ المتهدم الفانى ، مع أنه لم يكن إلا فيلسوفا ساخراً متشككا وشاعراً متملقا مستجديا ، قد أصبح معبود أهل زمانه ، لاسبب سوى أنهم كانوا يرونه أعقلهم وأفضلهم ، فكانوا جميعا يتشرفون بالاندماج في حاشيته ، ويتسابقون الى المشى فى ركابه ، حتى لكان الامراء منهم يرون الفخر كله فى الفوز بابتسامة من ابتساماته ، كما كان الحسان منهم يوددن لو يفرشن

شعورهن مداساً لخطواته ؟ نعم لقد كانت باريس كلها يومئذ هيكلا لعبادة البطولة ، وإن كان المعبود أشبه بالقرد منه بالانسان ! »

ثم يستطرد الاستاذ قائلا « فاذا كانت هذه الثمرة قد جنيت من الشجرة الذاوية فاي الثمرات تجني من الشجرة الناضرة ؟ إذا كانت أمثال هذه الفضائل تتجلى فى أمحل فترة من تاريخ الانسانية ، وفى أقحل بقعة من القارة الاوربية ، يوم كانت الحياة الباريسية لاتعدو أن تكون مجموعة من الاعشاب المجففة والازهار الصناعية ، فأى الفضائل يرجى ظهورها متى عادت الحياة رابية مورقة ، مهتزة مونقة ، وأصبح البطل المعبود آدميا بحتا ليس فيه من القرد أدنى شبه ؟ ألا فلتعلم أن فى الانسان نزعة لا تستأصل للخشوع أمام كل شيء يستمد القوة من السماء ، بل أمام كل شيء يوهم بانه يستمد هذه القوة . وان كنت فى شك مما أقول فما عليك إلا أن تقنع أى مغفل من أشد الناس غفلة وغباء ، أو أى مغرور من أشدهم تيها وكبرياء ، بأنه فى حضرة نفس أكبر من نفسه وأنا الزعيم لك بأنه لامحالة جاث على ركبتيه خشوعا ، وان تكن مفاصله من فرط التصلب تحكى الحديد الصلد . »

وهلا يلمح القارىء فيما يلى نسائج عضوية من نوع آخر (أقرب الى الحقيقة) تغزل وتحاك ؟

« أتقول انه لاتوجد الآن كنيسة ؟ أتقول ان صوت النبوة قد خرس ؟ إنى أنازعك حتى في هذا . ولـكن كيفما كان الامر ألا ترى أنه لانزال لدينا من التبشير ما فيه كفاية وغناء ؟ إنك لتجد في كل قرية راهباً مبشراً ، ابتنى لنفسه منبراً ، يسميه فى عرفه جريدة ، ويلقى من ذؤابته على الناس عقيدته التى بها يدين ، داعياً إياهم إلى الصراط المستقيم — ألست تلقى اليه سمعا صاغيا

وقلباً واعيا ؟ تأمل ملياً تجد في كل مكان طائفة جديدة من القساوسة والنساك يهيئون لانفسهم نظاما ، وينهمكون في الارشاد والتبشير بحماسة وحرارة ، اما فى نظير الصدقة واما لوجه الله . انهم دائبون فى تحطيم الاصنام القديمة ، ولئن كانوا هم أنفسهم فى الغالب من الآثمين ، شأن محطمى الاصنام فى العادة ، فانهم ليخططون مواقع الكنائس الجديدة لمن يأتى بعدهم من الابرار الصالحين ، حتى يجد هؤلاء السبيل معبداً ، والمكان لمستمعيهم ممهداً . أو لم أقل إنه قبل أن يسلخ الرداء القديم يكون قد حيك تحته الرداء الجديد ؟

« أتقول انه لايوجد الآن دين ؟ ضلة لك من أحمق ! إنى أقرر أن الدين موجود . ألم تفكر ملياً فى هذا السيل الزاخر المزبد الذى نسميه الادب ؟ إنه ليحوي قطعاً رائعة من صادق الادعية والاوراد سوف ينسقها الزمن . وهلا تدرى أن فى هذا العصر نبيا يلبس للعصر لبوسه ويتحدث بلهجته ؟ ألا تدرى انه يوجد فى هذا العصر انسان تجلى له السر الالهى ، فى كل رفيع وكل وضيع من مظاهر المألوف المادى ، فراح بدوره يجلوه على الناس فى اغان ملهمة تميد للحياة حتى فى هذا العصر — عصر الحرق والاهدام — ما كان لها من رفعة وقداسة ؟ ألا تعرف إنسانا هذه صفته ؟ إنى أعرفه وأسميه — جوتا »

الفصل الثامن

الحقيقة الباطنية

فى هذا القسم للدهش الخطير من الكتاب يصبح الاستاذ لاول مرة عارفا ربانيا يرفع عنه الحجاب ، ويبصر الحقيقة واللباب ، ويتمكن أخيرا بعد

طول الرياضة والجهاد ، من تذليل فلسفة الملابس العصية القياد ، فيقبض على ناصيتها ظافرا موفقا . لقد كان عليه قبل أن يصل الى غرضه أن يكافح ما يعترض دون الحقيقة من مختلف الاشباح ، وكان شر ما يلاقيه منها شبحان هائلان ، بالوجود كله محيطان ، اعنى شبحي الزمان والمكان . بيدأنه قد أخذ بتلابيبهما وما زال بهما حتى مزقهما تمزيقا . وصفوة القول أنه ما برح يحدق فى الوجود حتى ذاب وتلاشى كل مايغطيه من الاغشية الارضية ، والظواهر العرضية ، فاصبح وقد انكشف لعينه المبهورة السر المصون من قدس الاقداس.

نعم هنا تصل بنا فلسفة الملابس الى الحقيقة الباطنية ، فلو استطعنا أن نثب الوثبة الاخيرة الباقية علينا لالفينا انفسنا فى أرض الميعاد . إذن فالشجاعة الشجاعة أيها القارىء ! لقد أطلنا التأمل فى هذا الفصل من الكتاب فلم نجده غير مفهوم ، كلا ! بل رأيناه كلما زدناه تأملا زادنا إنارة وإيضاحا . فقم أنت بواجبك مصوبا اليه كل ما أوتيت من روية وتفكير ، كما نحن محاولون أن نقوم بواجبنا بحسن الاختيار والترتيب .

والآن اسمع كيف يبدأ الاستاذ قوله بكل هدوء : « ما أعمق مغزى المعجزات ، إنه لابعد غورا من كل ما تتصور ! بيد أن سؤال الاسئلة إنما هو : ما هى المعجزة ؟ لقد كان ملك صيام يرى فى قطعة الثلج معجزة ، فكل من تقدم اليه بمضخة هوائية وزجاجة من الأثير كان فى استطاعته أن يقوم لديه بمعجزة . كذلك جوادى الذى امتطيه والذى هو أقل معرفة من الملك الآنف الذكر أليس يرى أنى أقوم بمعجزة كلما شئت أن أبذل درهمين فافتح له حاجز المكس ؟ ولكني اسمع الكثيرين يتساءلون « أليست المعجزة الحقيقية إنما هي خرق للنواميس الطبيعية ؟ » وجوابي عليهم هوهذا

السؤال « وما هي ويحكم هذه النواميس ؟ » لقد يلوح لى أن قيام الميت من بين الاموات ما كان ليكون خرقا لها بل تأييدا لو اننا عرفنا منها بعض ماخفى عنا .

« وكأنى ببعض المتنورين يصيح قائلا .. « ولكن هل غاب عنك أن المعروف يقينا عن هذه النواميس أنها ثابتة لاتتغير ، وأن آلة الكون مقيدة في سيرها بقواعد لا تقبل التحوير والتبديل ؟ » لعل الامر كما تصفون يا أصحابي ؛ بل أنا أيضا لا يسعني غير الاعتقاد بان الله — الذي يؤكد الملهمون الاقدمون انه لايتقلب ولا يتحول — هو في الواقع لا يتغير البتة ، وأن الطبيعة ، التي لك أن تسميها آلة الكون ، إنما تتحرك طبقا لقواعد لاتقبل تبديلا أو تحويرا . ولكني ، مع التسليم بكل هذا ، أعود فأوجه اليكم هذا السؤال القديم . « ترى ماذا عسى أن تكون هذه القواعد التي لاتقبل التبديل والتحوير ؟ »

وأراكم ستجيبون « انها مدونة فى كتب العلوم ، ومقيدة فيما جمع الانسان من التجاريب » أوكان الانسان وتجاريبه إذن شاهدين يوم الخليقة حتى أحاطوا خبرا بكل ماجرى يومئذ ؟ أم هل استطاع علماؤكم أن يغوصوا فى أعماق الوجود حتى وصلوا إلى قراره ، وسبروا كل شيء فى أغواره ؟ أم هل كان الخالق جل شأنه قد أطلعهم على سره ، واستشارهم فى أمره ، فوقفوا على خطة تدبير الكون ، وصار فى طاقتهم أن يؤكدوا القول بان هذا الشيء مدون فيها وهذا غير مدون ؟ هيهات لاشيء من ذلك البتة . ان هؤلاء العلماء لم يذهبوا إلا حيث ذهبنا ، ولم يبلغوا إلاحيث بلغنا ، وكل ما

يمتازون به عنا أنهم يستشفون بضعة أشبار من أعماق ذلك الخضم الذى لاقرار له ولا ساحل ، ولا أول ولا آخر .

« إن كتاب لابلاس عن النجوم — الذي يشرح لنا كيف تدور بضع سيارات وتوابعها حول شمسنا الموقرة بسرعة معينة وفى مجرى مخصوص — هذا الكتاب له فى نظرى من القيمة ماله فى نظر أى إنسان سواى ، ولكن أهذا هو الذى تدعونه نظام الكون ؟

« نظام الكون وما ادراك ما نظام الكون ؛ ان أثقب الناس نظرا واكبرهم عقلا ، مهما اتسع نطاق بصره وامتد قاب فكره ، لا يزال يرى ان الطبيعة ذات عمق لا قرار له وانفساح لا غاية له ، وان كل ماحصله البشر من التجارب والعلوم ينحصر في دائرة قرون معدودة وفراسخ محدودة . لقد وقفنا بعض الشيء على مجرى تصرفات الطبيعة فى هذا الكوكب السيار ، ولكن من يدرى على اى مجار عميقة اخرى يترتب هذا المجرى ، واى تروس ودواليب (من الأسباب) مما هو اجل واكبر ، يدير هذا الترس الأدق الأصغر ؟ ان السمكة الصغيرة قد تعرف وتألف جميع ما احتواه جونها الصغير من ثقب وزاوية ، وحصاة وقوقعة ، وظاهرة وحادثة ، ولكن هل تدرك السمكة سر مد المحيط وجزره ، وهل تحيط علما بمجارى التيارات ومهاب العواصف ، وهل لها المام بأحوال الرياح الموسمية وشؤون الرياح التجارية وكسوف القمر وخسوفه ، هل تعرف السمكة جميع هذه الامور التى تتوقف عليها الحال فى جونها الصغير ، والتى يجوز لها من آن لآخر أن تقلب نظامه وتنكر أحواله من غير أن يكون في ذلك خرق للنواميس الثابتة ، ولا اتيان لمعجزة خارقة ؟ كذلك مثل ابن آدم فى هذا الوجود . فالسمكة الصغيرة هى

الانسان ، والجون الضيق هو هذا الكوكب السيار ، والمحيط الفسيح هو ذلك العالم الذى لانهاية لاتساعه ، والرياح الموسمية والتيارات الدورية هى النواميس الخفية التى تجرى عليها المقادير فى متعاقب الآباد .

« لانزال نتحدث عن كتاب الطبيعة . بلى انه لكتاب لاريب فيه خطه الله بقلمه . أتراك تحاول أن تقرأه ؟ هل فى طاقتك ، هل فى طاقة أى إنسان أن يتهجى حروفه ، ولا أقول أن يقرأ مفرداته وجمله وأن يتلو صحفه الواسعة المنشورة فى عرض السماوات والارض وعلى مدى الدهور والاجيال ، بما حوت من بدائع نثر وشعر ، وروائع فلسفة وحكمة ؟ بلى انه لكتاب مقدس مصون ، مسطور بحروف هيروغليفية سماوية ، فطوبى للانبياء أنفسهم اذا استطاعوا أن يفهموا منه سطرا هنا وسطرا هناك ؛ أما مجامع الفلاسفة ومحافل العلماء فاؤلئك يجاهدون جهاداً صادقا حتى يوفقوا الي التقاط بعض حروفه المكتوبة بالخط العادى ، لا الهيروغليفى ، يتصيدونها من بين سطوره المعقدة وجمله المتماطلة فيؤلفون منها ماالستطاعوا من الوصفات الاقتصادية ذات الفوائد الجزيلة فى الاغراض العملية . ولكن قليل هم الذين يتصورون أن الطبيعة شىء أجل وأعلى من مجلد منخم يحتوى مالايحصى من أمثال هذه الوصفات ، وقليل هم الذين يدركون أنها شىء أعظم وأسنى من كتاب هائل عن تدبير المنزل وصناعة الطهى سوف يتوصل الانسان يوما ما الى استظهار محتوياته واكتناه أسراره . »

ثم يستمر الاستاذ قائلا « إن العادة لتجعلنا جميعاً بإها مخرفين . تأمل مليا تجد أن العادة هى أعظم النساجين ، وأنها تنسج لكل مايعمر الكون من أرواح وجنيات غلائل من الهواء ، ترتديها فتظهر بها لاعيننا وتقيم بيننا

المصانع والبيوت خدمة امناء ، ومهنة نشطاء . ولـكن طبيعتها الروحانية تختفى يد الدهر عن جمهور الناس . ولطالما تشكت فلسفة من ان العادة قد عصبت ابصارنا من اول الامر ، ومن اننا نفعل كل شيء بالعادة : حتى لنؤمن بالعادة ، ومن ان سوائر أمثالنا وبدهياتنا ان هي الا عقائد تلقيناها بالعادة ولم نكاف أنفسنا الارتياب فى صحتها . بل حدثني : ماحقيقة الفلسفة ان لم تكن كفاحا مستمرا مع العادة ومجهودا متجددا للخروج من دائرتها العمياء ، وصدع قيودها السمراء ؟

« إن ما تأتية العادة من فنون الاضاليل وخدع الشعوذة شيء لا يحصى ، ولـكن ربما كان امهر حيلها اقناعنا بأن الامر المعجز يصير بفضل التكرار غير معجز . صحيح اننا بهذه الوسيلة نستطيع البقاء فى قيد الحياة ، لانه لا بد للانسان من ان يعمل كما لا بد له من أن يعجب . فالى هذا الحد تكون العادة للانسان مرضعة شفيقة ، تهديه الى مراشده الصحيحة . ولـكنها تنقلب مرضعة خرقاء أو بالحرى نصبح نحن رضعاء مغفلين اذا تمادينا فى تصديق هذه الخدعة اثناء ساعات الفراغ وأويقات التأمل والاعتبار . هل حتم علىّ ان انظر الى الظاهرة المعجزة بجمود وبلادة لانى شاهدتها مرتين أو مئتى مرة اومليون مرة ؟ لا أرى سببا يحملني على ذلك ، اللهم الا اذا كنت مجرد آلة صماء . ليست عندها موهبة الفكر السماوية الا كموهبة البخار الارضية بالنسبة للآلة البخارية : أعنى قوة بفضلها ينسج القطن ، وبفضلها يحرز المال وما يقوم بالمال .

« بيد ان اخدع المظاهر الخادعة وابلغها فى اخفاء العجب هما ذانك المظهران الرئيسيان ، المحيطان بالحياة من جميع الاركان ، اعنى الزمان والمكان . انهما رداءان ينزلان لنا قبل الميلاد وينسجان ، فلا تـكاد النفس ، تلك النفحة

الالهية ! تهبط إلى هـذا الوجود حتى يحيطا بها ، ويضماها ويسياها ، فيكونا لها كالرقعة الشاملة يتراءى عليها كل ماعداهما من التهاويل ، أوقل كاللحمة والسدى يحاك بهما كل ماسواهما من الاشباح . وعبثا نحاول ، ونحن في هذه الحياة الدنيا ، أن نخلعهما عن أنفسنا ، بل كل مانستطيعه أن نشقهما شقاً لا يلبث إلا ريثما نسترق من خلاله لمحة ثم يعود ملتئما في أسرع من خطف البرق .

« لقد زعموا أنه كان « لفور تيناتس » طاقية تدعى طاقية الاماني ، إذا لبسها وتمنى أن يكون في أي مكان لم تكن إلا لمحة الطرف حتى يجد نفسه فيه . بهذه الوسيلة تغلب فورتيناتس على المكان وأخضعه ، بل أفناه واعدمه . فلم يعد لديه شيء يدعى « هناك » بل أصبح كل شيء لديه « هنا » . فلو أن تاجر قبعات اتخذ لنفسه حانوتا في مدينتنا ، وأنشأ يبيع للناس قبعات كهذه على جميع الاشكال ، أي دنيا عجائب ومعجزات يصبح يومئذ هذا الوجود الذي نحن فيه ! ثم تصور أن تاجرا آخر اتخذ لنفسه في الصف المقابل من الشارع دكانا أخرى ، وجعل يبيع فيها قبعات لأفناء الزمان ، كما جعل زميله يبيع في حانوته قبعات لأفناء المكان ، أي غرائب وبدائع تصبح يومذاك في منالنا ! تالله لو تحقق ذلك ماترددت لحظة في شراء قبعتين من كلا النوعين ولو بآخر درهم معي . يالله ! أضع فوق رأسي أحدى القبعتين ثم اتصور مجرد التصور أني في أي مكان شئت من ملكوت الله ، فما هي إلا لمحة الطرف حتى أجدني هناك ! ثم أضع على رأسي قبعتي الاخرى واتصور كذلك أني في أي زمان شئت ، فما هي إلا لمحة الطرف حتى أجد نفسي قد انتقلت الى ذلك الزمان ! هـذا لعمر الحق هو العجب الافخم : هـذا

التنقل من مبدأ الخليقة الى منتهاها — فى هذه اللحظة أكون حاضرا فى القرن الاول من العهد الماضي أتحدث وجها لوجه الى سنيكا وبولص ، وفى اللحظة التالية أكون حاضرا فى القرن الواحد والثلاثين من الزمن الآتى أتحدث أيضا وجها لوجه الى سنيكا ذلك الزمان وبولصه ممن لا يزالون مختبئين في ضمير الغيب ، وسوف تتمخض عنهم الايام بلا ريب !

« أم هل تحسب هـذا أمرا محالا لا سبيل الى تصوره ؟ أفى ظنك أن الماضى قد تلاشى ولم يعد الا ماضيا ، وأن المستقبل لاينفك معدوما وليس إلا مستقبلا ؟ إن الجواب على ذلك ليخلص اليك مقدما من هاتين الملـكتين العجيبتين المركبتين في خلقتك : الذكرى والامل . فمن خلال هذين السريين الخفيين تستطيع أنت أيها الراسف فى القيود الارضية أن تستحضر الماضى والمستقبل ، وأن تناجيهما وان لم يكن إلا بالعبارات المبهمة والاشارات الصامتة . صحيح أن أستار الامس لاتنفك تنسدل ، وأن أستار الغد لاتنفك ترتفع ، ولكن هذا لا ينفى أن الامس والغد كلاهما كائن موجود . أنفذ ببصرك خلال هذا الغشاء الزمانى وأنظر فى الابدية ، نعم وصدق ماتراه مكتوبا فى قدس الاقداس من سريرة الانسان وما لم يزل المفـكرون يقرؤونه فى تأمل وخشوع على مدى الازمان : أعنى أن الزمان والمكان ليسا هما الله ، وإنما هما من صنعه ، وأن عند الله كل مكان قائم هنا ، وكل زمان راهن الآن .

« وبعد أفلا تدرك فى هذا لمحة من سر الخلود ؟ يا لله ! أهـذا القبر الذى أودعته شخص المحبوب بعـد أن فاضت روحه بين يدى ، والذى يرفع لى على البعد كأنه علم شاحب حزين من أعلام الطريق ، ينبئنى كم قطعت في وحدتى من الفراسخ الموحشة المتعبة — أهـذا القبر

ليس الا طيفا شاحبا ، وخيالا كاذبا ؟ أوليس في الحق ان الفقيد العزيز عليّ لايزال قائما مع الله هنا ، كما نحن قائمون واياه هنا ؟ ألا فلتعلم أنه لا يفنى ولا يمكن ان يفنى غير الاشباح الزمنية ، اما الروح الحقيقية لأي شيء كان او يكون اوسوف يكون فقائمة هنا ، الآن والى ابد الآبدين .

« لسنا ننكر ان من الامور المناسبة العادلة التي لا مناص منها ولامحيد ان تكون تصوراتنا وتخيلاتنا وافكارنا في جميع شئوننا العملية مكيفة محددة بتأثير الزمان والمكان ، وهما القالبان الذهنيان اللذان افرغنا فيهما لكي نطيق المعيشة في هذا الكوكب السيار . ولكن الذي لاندرك وجه الحكمة فيه ان يكون لهما مثل هذا التأثير والسلطان على تأملاتنا الروحانية المجردة ، بحيث يعميان ابصارنا عن رؤية العجائب المحدقة بنا من كل صوب وحدب . تأمل مليا في فعل الزمان والمكان ، وانظر كيف يحجبان عنا بغشائهما الرقيق ما يخطف الابصار من نور الرحمن . ألا يكون من المعجزات مثلا أن امد يدي فامسك بها قرص الشمس في كبد السماء ؟ ومع ذلك الا تراني يوميا امد يدي وامسك بها كثيرا من الاشياء ، ثم ارمي بها ذات اليمين وذات اليسار ؟ أفأنت إذن طفل مسن حتى تتوهم ان سر المعجزة انما ينحصر في كثرة الاميال ، او في عظم الاثقال ، ويغيب عنك ان المعجزة الحقيقية الباهرة انما تنحصر في استطاعتي مد يدي ، وفي أن لي قوة امسك بها أي شيء ؟ هذا مثل واحد من الامثلة التي لاتحصى على ما يفعله بنا المكان من صنوف الخدع وضروب التمويه .

« وأما من جهة الزمان فالامر أسوأ حالا وأضل سبيلا . فاذا سئلت عن الساحر الأكبر ومخفي العجب الاعظم ، فقل هو الزمان الخادع ، ولو كانت لدينا طاقية لاخفاء الزمان نلبسها ولو مرة في العمر ، لرأينا أنفسنا في عالم من

المعجزات لايقوم أمامه كل ماورد في أساطير الاولين من عجائب السحر وبدائع المخلوقات. ولكننا لسوء الحظ لا نملك مثل هذه الطقية، والانسان مخلوق عاجز لايستطيع رؤية شيء بدونها.

«أليس من العجب العجاب مثلا أن يشيد ارفيوس جدران طيبة لابشيء سوى نغمات القيثارة؟ إذن فحدثني عمن شيد هذه المدينة التي أسكنها، فوطد اساسها، ورفع سمكها، ودعم عمدانها، وهندس بيوتها، ونظم طرقها وأسواقها؟ أليس هو ارفيوسا آخر، أعلى من الاول كلمة وأرفع صوتا، أقام بين الناس في سالف الدهور، فهداهم إلى الحضارة والنور، بنغمات مواعظه البالغة، وموسيقى حكمته المنزلة؟ إن أرفيوسنا الاسمى كان يطوف في البقعة المقدسة منذ ثمانية عشر قرنا، وكانت الحانه العذبة السماوية تقرع آذان الناس فتأخذ بمجامع قلوبهم وألبابهم، ولا تزال حتى اليوم، بما فيها من الاخلاص والصدق، ترن في مسامعنا، وتفيض في قلوبنا، فتهدينا إلى الخير والحق. أيكون الامر عجبا إذا تم في ساعتين، ثم لايكون عجباً إذا تم في دهرين؟ ليست طيبة بالمدينة الوحيدة التي رفعت بنيانها موسيقى ارفيوس، بل مامن مدينة تبنى، ولا من عمل جليل يؤدى، إلا ويكون السر فيه، والموحى به موسيقى ارفيوس ملهم.

«امط عن بصرك غشاء الزمان، وتعقب بنظرك إن كنت ذا عينين السبب القريب الادنى، إلى سببه البعيد الاقصى. هل الدفعة التي يسري أثرها متنقلا في سلسلة طويلة من مرن الكرات، تختلف في جوهرها عن نفس هذه الدفعة لو أنها وجهت مباشرة إلى آخر كرة فارسلتها طائحة في الفضاء؟ لهفي على طقية لاخفاء الزمان انقلك بها من البدايات إلى النهايات! إذن

لا نكشف الغطاء عن بصيرتك ، ولنغرق فؤادك فى بحر من النور والعجب ، ولا تضح لك أن هـذا العالم البديع هو ، حتى فى أحقر مظاهره ، مدينة الله ذات القبه المزدانة بالكواكب والدرارى . إذن لرأيت مجد العلى القدير يسطع فى باهر ضيائه ، وبارع لألائه ، من كل نجم فى الخضراء ، وكل نجم فى الغبراء . ولـكن ما الحيلة ، والطبيعة التى هى رداء الله الزمانى لا تزال تخفيه عن أعين الجهلاء ، وإن كانت تجلوه لبصائر الحكماء ؟

« ثم هل فى الوجود شىء هو أدخل فى باب العجب المعجز ، من طيف حقيقى يرى بالعينين ، ويلمس باليدين ؟ لقد ظل الدكتور جونسون طول عمره يتوق إلى مشاهدة طيف كهذا ، فما استطاع الى بغيته سبيلا ، مع أنه طالما اختلف إلى ظلمات القبور ، وقرع توابيت الموتى . ضلة له من غبى احمق! هلاّ خطر بباله أن يجيل طرف القلب ، كما يجيل طرف العين ، فى تيار الحياة الزاخر الامداد ، الذى مازال يحجبه من صميم الفؤاد ؟ هلا خطر بباله أن ينظر مرة ، ولو إلى ذات نفسه ؟ أنت بعينك أيها الدكتور التقى ، طيف حقيقى ترى بالعين وتلمس باليد كما يشتهى قلبك ، وبالقرب منك ملايين من الاطياف تعبر الطريق على جانبيك . ها أنا ذا أعيدها مرة أخرى ، أمط عن البصر غشاء الزمان ، واختصر عمر الانسان إلى ثلاث ثوان : ثم قل لى ماذا كنت أنت ، وماذا نكون نحن ؟ ألسنا أرواحا ، أو أطيافا سربلتها كل الابدان ، فابرزت للعيان ، وما هى إلا طرفة العين حتى تتلاشى كالهباء ، وتدرج فى طى الخفاء ؟ حقيقة علمية ليست باستعارة ولا مجاز : أننا ننشأ من العدم ، ونظهر فى صورة البدن ، ونحن بعد أطياف تحيط بها الابدية ، والدقائق عند الابدية أجيال وآزال . أفلا تهبط الينا أغانى الحب والايمان كأنها تتناثر عن

أوتار عيدان سماوية ، أو كأنها نشيد المقربين في عليين ؟ ثم أفلا تسمع لنا، في لغط الخصومة والجدال ، صريراً وعزيفا كأصوات الجان ، وهلا ترانا طوراً ننساب في الخفاء ، ضعافا مشؤمين مخيفين ، وطوراً ندور في مراقصنا الهوجاء، صخابين متوثبين معربدين - حتى ينفحنا الصباح بنسيمه يدعونا الى دار القرار ، ويستيقظ الليل الهاجس مسفراً عن وجه النهار ؟ أين الاسكندر المقدوني ؟ أين الفوارس تهتف حوله في حمس الوغى ؟ أين الكتائب تلمع أسنتها في رونق الضحى ؟ هل أقامت بعده ، أم اقتفت أثره ، فتلاشت كلها واختفت ، كما تختفي العفاريت اذا أزعجت ؟ أين نابليون وجحافله ؛ أين الوقائع والملاحم ، أين الانتصارات والهزائم ؟ هل كان كل ذلك الا قنصا للأطياف وطرادا ، أوحش الليل بضجيجه المرعب ثم املّس املّاسا ؟ - أطياف ! ان منها في هذه اللحظة نيف وألف مليون يدبون على أديم الغبراء ، والشمس في كبد السماء، يختفي منها بضع خمسين ، ويظهر منها بضع خمسين ، قبل أن تدق ساعة جيبك دقة واحدة.

« يالله ! ما أعجب هـذا الامر وما أهوله ! أكلنا سيكون طيفا في المستقبل ، بل كلنا في الواقع ذلك الطيف المستوهل ؟ انى لنا بهذه الجوارح والاعضاء ، ماهذه القوة العاصفة ، والدماء الحامية ، والشهوات المتلهبة ؛ كل هذا غبار ، بل هباء : جهاز من الظل يحيط بالنفس ، ويكون من حين الى حين مهبطا للوحي . أنظر الى ذلك الفارس المستلئم ، ممتطيا جواده العتيق ونار الحمية تلتهب في عينيه ، والبأس والقوة يجيشـان في قلبه وساعديه : ولكن الفارس والجواد ليسا الا خيالا يتراءى ، وقدرة تتجلى . يطآن الارض في رزانة وثبات ، كأن الارض مهاد وثيق : ضلة له ! ان هي الاغشاء رقيق ،

ينشق فى لمح البصر ، فاذا الفارس وجواده فى قعر هاوية لا ينالها مسبار . مسبار؟ كلا ان الوهم نفسه ليكل دون تعقبهما . فيا للعجب منذ قليل من الزمن لم يكن لهما وجود ، وبعد قليل من الزمن لم يصر لهما وجود ، عفى عليهما الفناء ، ولم يترك منهما حتى العفاء.

« وكذلك سنة الله في خلقه من البداية الى النهاية . جيل بعد جيل يكتسي رداء الجسم ، ويخرج الى عالم الشهادة من ضمير الغيب ، حاملا رسالة الله بين يديه . يبذل كلٌ ما رزق من حول ومن أيد ، فواحد فى طاحون الصناعة ناصب ، وآخر على جبال العلم البواذخ صاعد ، وثالث على صخرة الشحناء يتحطم وأخاه فى كفاح ناشب — وما هى الا كرة الطرف حتى يدعى الرسول الى وطنه السماوى ، فيسقط عنه الرداء الدنيوى ، ويعلس عن العيون املاس الطيف الخفى . كذلك يمر موكب البشر برعودهم وبروقهم فى قطر تباع ، وصفوف سراع ، يخترقون أعماق الابدية كأنهم فيلق علوى يحمل صواعق السماء ونيرانها ! كذلك نطلع معشر البشر من ظلام الغيوب ، فنعبر الارض ، وهى مأخوذة ذاهلة ، مسرعين فى جلبة وقصيف ، ثم نغطس مرة أخرى فى ظلام الغيوب . فاذا جبال الارض من عبورنا قد نسفت ، واذا بحار الارض قد ردمت : ومن للارض بدفعنا ، وهى مادة فانية ، ونحن أرواح من الحق باقية . لنا أثر فى كل بقعة مجهل ، وطبع قدم فى كل صخرة جلمد ، تقرأ ساقتنا المستأخرة ، ما خلف الطلائع المستقدمة . ولكن ناشدتك الله ! من أين والى أين ؟ الشاعر لا تدرك ، القلب لا يعرف ، انما ننقل من الغيب الى الغيب ، من الرب الى الرب :

العيش نوم والمنية يقظة والمرء بينهما خيال سارى . »

الفصل التاسع

نظرة استعراض

هنا يعرض هذا السؤال الخطير : ترى هل أتيح لكثير من القراء أن يبلغوا معنا أرض الميعاد ، وهل شرعت فلسفة الملابس تتكشف أخيراً عن غوامضها ، وتفصح عن بواطنها ؟ لقد كانت الرحلة طويلة شاقة ، حيث ابتدأت من تلك الاغلفة الملموسة المبتذلة من قطنية وصوفية يضمها الانسان على ظاهر جسده ، ثم انتقلت الى أرديته اللحمية العجيبة وأجهزته الاجتماعية المدهشة ، حتى أوغلت الى أردية نفسه وغلائل روحه : الى الزمان والمكان ذاتهما . والآن وقد نزعت عن جوهر الانسان الابدى الروحانى تلك اللفائف والاغطية ، أتراه قد شرع يتكشف عن حقيقته ؟ هل في استطاعة كثير من القراء أن يلمحوا ، كما من خلال زجاجة كدرة ، عناصر الطبيعة الآدمية ، وأن يميزوا منها ما هو ثابت دائم ، وما هو قلّب حوّل ؟

ان ناشر هذه الصحف ما كان يتوقع توقعاً جديا ؛ بل كان يتمنى مجرد التمني ، ان يتمكن كثير من القراء من اجتياز ذلك الجسر المضطرب الذى لم يسمع بمثله لا فى الاولين ولا الآخرين ، والذى قد وفق الناشر بمعونة المولى الى انهائه ، ان لم يكن الى اتمامه . نعم ما كان فى استطاعتنا ان ننشيء فوق ذلك الخضم العجاج ، عقداً راسخ الدعائم معبد المنهاج ، بل كان كل ما فى طاقتنا ان نلقي على صدره الرجراج سلسلة متمعجة من الارماث العائمة ، متجشمين فى ذلك من المشاق ما تجشمنا ، ومكابدين من المخاطر ما كابدنا.

ولكن هل من المستبعد ان يوجد هنا وهناك فى الالف واحد من ذوى البصائر الثاقبة قد تمكن هو وأمثاله القليلون من اجتياز هـذا الجسر بالرغم من كل صعوبة ؟ ايه يا معشر الاخوان الموفقين ! أهلا بكم وسهلا ! وصمداً فى عملكم صمدا ! ان العين بالرغم من هذا الظلام الحالك لن تلبث حتى تألف ما يحيط بها ، وان اليد لن تلبث حتى تهتدى الى أغراضها ، ولن يمضى إلا القليل حتى يلحق بكم سواكم ، وحتى يبنى غير هذا الجسر جسور أخرى ، بل من يدرى فلعل جسرنا هذا الواهن المضطرب قد يصلح ويرم اثناء اجتيازكم اياه جيئة وذهابا ، فيصبح متيناً غاية المتانة ، وصالحاً للعبور حتى للعرج ؟

بيد انه لا يسعنا إلا ان نتساءل : أين ذهبت تلك البقية التى لا تحصى ممن بدأوا معنا هذه الرحلة، لوءين جذلا وأملا ولكننا لا نراهم الساعة بجانبنا؟ ان اكثرهم قد نكص على عقبيه ، ثم وقف يحدق الينا عن بعد ، مندهشا من أقدامنا على هذا المصير المجهول . وكثيرون غيرهم كانوا أوفر من هؤلاء شجاعة فأخذوا يتقدمون ولكن عثرت بهم اقدامهم ، فسقطوا فى غمار اليم تتقاذفهم أمواجه ، بعضهم نحو هذا الشاطىء ، وبعضهم نحو ذاك . وهؤلاء حقيقون بان نمد اليهم يد المساعدة ، أو بان نوجه اليهم على الاقل كلمة التشجيع.

أو دعنا نقول فى غير استعارة ولا مجاز — والحق ان الاستاذ قد عدانا بهذا الاسلوب — هل يمكن ان يخفى علينا ان كثيرين من القراء يقرؤون الآن هذا الكتاب مصدعى الرؤوس يتساءلون في حيرة : ما الغرض الذى اليه يرى ، وما الفائدة التى منه ترجى ؟

اما ان كان القصد تموين كيسك أو مساعدة أداتك الهاضمة من أى

طريق آخر فاعلم أيها القارىء ان هذا الكتاب لا يؤدي الى غرض ما ،ولا ترجى منه فائدة ما . بل هو على العكس من ذلك ،لانه يكلفك بعض الشيء. ولكن اذا كان الاستاذ ، ونحن عن طريقه ، قد سرنا بك الى وادي الاحلام ، فاستطعت أن تنظر ولو خلسة من خلال سجوف الملابس الى مملكة العجائب ، وان تشاهد وتحس ان حياتك اليومية محاطة بالعجب ، ومبنية على العجب ، وان كل ما يحدق بك ، حتى هذه الالحفة والسراويل ، هي معجزات وخوارق - اذن لكنت قد افدت فائدة لا تقوم بمال ولا تقدر بثمن .

وفوق هذا أولم يتبين لك الآن أن كل الرموز ان هي إلا ملابس ، وان كل المظاهر التي يتراءى فيها الروح للبصر أو للبصيرة ان هي إلا ملابس. ومن ثم كانت فلسفة الملابس هذه فلسفة عالية ، خليقة اذا انت درستها أعمق الدرس بان تؤتى ثماراً شهية ، وجديرة بان توضع فى صف واحد مع العلوم القانونية والاقتصادية ، بل بان تشرف عليها من عل باعتبارها مصدر وحيها ومبعث روحها ؟

واذا نحن تركنا جانباً هذه الناحية العالية من فلسفة الملابس فاننا لا نجد أية ناحية أخرى منها اتضحت الآن لها شأنها وخطرها ، الا وهي خليقة بان تؤدي لدى البحث الى نتائج عملية جمة . فلنصرف النظر عن تلك الخواطر الخصيبة من خلقية وسياسية ورمزية التي تزدحم على ذهن فيلسوف الملابس وهو لما يتجاوز عتبة مباحثه ، ولنغض الطرف عن تلك الفكر الفنية التي تنطوى تحت كل زي وطراز والتي سوف تتمخض متى أحسن ابرازها عن تطورات خطيرة - لنضرب صفحاً عن كل هذا ولنجل الطرف لحظة

فيما يمكن ان يدعى القسم اللباسى من ابناء آدم — فى تلك الطائفة التى يصح ان تسمى حيوانات الملابس ، تلك المخلوقات التى تعيش وتجيش في الملابس وتستمد مادة حياتها وغذاء روحها من الملابس : أعنى المتأنقين والخياطين .

والحق ان هذه الطائفة لاتزال تلقى من الرأى العام ، الذي لما يهتد بنور الفلسفة ، ظلما وعنتاً . ذلك بانه لا ينفك يسىء فهمها ، بل لا يبرح ينتهك حرمة الانسانية فى حقها ، كما سوف يتضح لك من كلام الاستاذ فى الفصلين التاليين .

الفصل العاشر

عشيرة المتأنقين

يحسن بنا بادىء بدء أن نأتى على تعريف المتأنق تعريفا علميا دقيقاً . فالمتأنق هو إنسان يلبس الملابس ، إنسان لاهم له ولا شاغل ، ولا غرض له ولا مأرب إلا لبس الملابس ، فكل ملكة من ملكات عقله وروحه وكل موهبة من مواهب كيسه وجسمه قد وقفت وكرست بشجاعة وبطولة على هذا المطلب الأوحد والغاية الفذة : لبس الملابس بحكمة ولباقة . فهو يعيش ليلبس اذا كان سواه يلبس ليعيش ، قد أدرك بالفطرة وعفو البديهة من خطير شأن الملابس ماتجرد لشرحه في مجلد ضخم فيلسوف من فلاسفة الالمان منقطع النظير فى سعة اطلاعه وتوقد قريحته ، حتى لتحسب ذلك الانسان قد نزل عليه من الملابس وحى والهام ، فهوشاعرها الفلق وصاحب

فكرته المبدع ، وهو شأن كل صاحب فكرة لايقر له قرار أو ينفث مايجيش في صدره من خلجاتها .

غير عجيب إذن أن يعمد المتأنق وهو ذلك المتحمس المبدع الى ابراز فكرته من حيز القوة الى حيز الفعل ، وان يخرج الملأ فى زى معين وأن يمشى بين الناس شاهداً وشهيداً لما للملابس من مزايا خالدة وفضل مبين . لقد دعوناه شاعرا وهل فى ذلك من بدع ؟ أولا تراه يتخذ من جسمه قرطاساً منشوراً يرقم عليه بمداد من بارع الاصباغ قصيدة غزلية لعشيقته ، بل ملحمة حماسية للناس أجمعين ! بل اذا سلمنا بما هو جائز وقلنا إن المتأنق لايعدم نصيبه من موهبة التفكير وانه ملم بعض الشيء بحقيقة الزمان والمكان ألا ترى حينئذ أن فى اخلاصه المتناهى للملابس وفى تطوعه لتضحية الابدى فى سبيل الوقتى والباقى فى سبيل الفانى - نقول ألا ترى في ذلك نوعا (وان كان معكوسا) من ذلك المزج والتوحيد بين الوقت والابدية ، ذلك المزج الذى رأيناه سر النبوة وجوهرها .

ثم انظر ماذا تراه يطلب من الجزاء على هذا الاستشهاد وعلى مايقدم للناس من آثار شعر وآيات نبوة . انه لايبتغى على ذلك أجراً غير الاعتراف بوجوده والتسليم بانه كائن حى ، شىء منظور ، أو جسم يعكس أشعة النور . هو لايبتغى منك فضة ولاذهبا ، ولا جاها ولا حسبا ، وانما يلتمس نظرة من نظراتك ، ويستوهب لفتة من لفتاتك . أنظر اليه وسواء عليه أفهمت أم لم تفهم معانيه الباطنيه ، وفطنت أم لم تفطن الى مغازيه الرمزية ، بل حسبه منك أن تنظر اليه وكفى . ألا بعداً لهذا العالم الجحود وبؤسا ! يمقر قواه البصرية ذات اليمين وذات اليسار طورا على التماسيح المصبرة وتارة على

الخاليق المشوهة ، ثم يضن ، ألا بلمحة عجلى أو بلحظة شزرا ، على أعجوبة العجائب وخارقة الخوارق : الانسان المتأنق.

عجبا والله ! يهمل المتأنق هذا الاهمال ، فلا يعنى علماء الحيوان بتعيين منزلته بين فصائل ذوات الثدى ، ولا يحفل علماء التشريح بتشريحه ، ولا تهتم الحكومات بوضع نماذج منه فى المتاحف ، ولا تعبأ المحافل العلمية بحفظ انواع منه فى معقم السوائل ؛ يبالغ المتأنق فى تزيين شخصه وتظريف هندامه ولكن عبثاً تذهب أتعابه ، فان الجمهور الاعمى مشغول عنه بمطالبه الحيوانية وحوائجه البهيمية ، قد أعرض عنه صفحا ، وطوى دونه كشحا .

حقا لقد مضى عصر التطلع كما مضى من قبل عصر الفروسية ، ولكننا نرجو أن تكون فترة نوم لا انقطاع ، فها هى فلسفة الملابس قد نهضت تبعث الاول من مرقده ، وتنشر الثانى من ملحده . ومتى فقه الناس أسرار هذه الفلسفة تكشف لبصائرهم حقيقة المتأنق ، فادركوا معانيه الخفية ، وحلوا رموزه الباطنية . ونحن رجاء ذلك نسوق لهم فيما يلى قطعة مقتطفة من كتاب الفيلسوف علهم يستعينون بها على تفهم الموضوع واستجلاء غوامضه :

« فى هذه الاوقات المضطربة التي طردت فيها الروح الدينية من أكثر الكنائس ، فهى اما قد قبعت مختبئة فى قلوب الصالحين تنطلع وتتشوف وتعمل للتجلى فى صورة جديدة ، واما قد خرجت هائمة فى انحاء الارض كأنها الروح الحائر يلتمس التقمص فى الجسم المناسب له — فى هذه الاوقات المضطربة غير عجيب ان تعمد الروح الدينية الى التقمص على سبيل التجربة فى كثير من المظاهر الغريبة — مظاهر التعصب والتحزبات . فترى البدعة

تخرج اثر البدعة ، والشيعة تظهر بعد الشيعة ، ولكنها لاتلبث ان تتلاشى متحولة الي مظهر جديد .

« واظهر ما يشاهد هذا فى بلاد الانجليز ، لأنها ، وهى اوسع البلدان ثروة واسوأها تعلما ، قد احتوت اصلح العناصر (واعنى عنصرى الحرارة والظلمة) لتوليد أمثال هذه الخزعبلات . ومن احدث ما نجم هنالك من هذا القبيل شيعة المتأنقين ، واذ كان لمذهب هذه الشيعة ارتباط وثيق بموضوع هذا الكتاب فقد رأينا من المناسب ان نثبت هنا ما جمعناه عنها من قليل المعلومات .

« صحيح ان بعض الصحفيين الانجليز ، وهم قوم لايفقهون من الروح الدينية شيئا ، يعتبرون هذه الطائفة أصحاب مذهب دنيوى لامذهب دينى . ولكن صاحب العين البصيرة لايلبث أن يتبين ما ينطوي عليه منهبهم من معانى الزهد والتقى بل من معانى التضحية والبذل . علي انى لست أدرى بعد الى أى فريق تنتمى هذه الشيعة : ألى عباد الاوثان ، أم الى عباد الابطال ، أم الى القائلين بتعدد الارباب . وأكبر ظنى ان منهب المتأنقين هذا هو صورة جديدة مطابقة لمقتضيات العصر من ذلك المذهب الفطرى العتيق : مذهب « عبادة النفس » . لهذه الاسباب وبحسب ما اتضح لى حتى الآن ، ليس لى اعتراض على من شاء أن يسمى هذا المذهب صورة جديدة من عبادة الشيطان .

« وكيفما دار الامر فأصحاب هذا المذهب — شأن أصحاب كل مذهب جديد — هم قوم متحمسون ، يظهرون كثيراً من الشجاعة والجلد ، ويتحاشون التدنس بمخالطة غيرهم ، ويميزون أنفسهم بنوع مخصوص من

اللباس وأسلوب مخصوص فى الكلام . وجملة القول انهم مخلصون لمذهبهم يحاولون أن يعيشوا عن الدنيا بعزل ، وأن لا يصيبهم من أرجاسها قذى .

« ولهؤلاء القوم معابدهم ، وتسمى فى عرفهم : معارض الازياء ، أو أبهاء الرقص ، وأكثر ما يقيمون مناسكهم فى جوف الليل ، ولهم كهانهم وكاهناتهم ، ولكن هؤلاء لا يتقلدون مناصبهم طول العمر . وهم يتكتمون شعائرهم كل التكتم . ولهم أيضاً كتبهم المقدسة وتسمى فى عرفهم الروايات الحديثة .

« ولقد وفقت ، بتكبد شىء من النفقة طبعا ، الى احراز طائفة من هذه الكتب ، فأكببت على قراءتها محاولا تفسيرها ودراستها بكل ما أوتيت من فهم وما عندى لموضوع الملابس من تحمس . ولكن تعبى ذهب ادراج الرياح ، ولاول مرة فى حياتى وجدت أن ملكة القراءة ، تلك التى مازلت اعتد بها ولا أحسب أحداً ينكرها علىّ ، قد عجزت ولم تغن عنى شيئا . فعبثاً ما كنت أستجمع كل قواى ، وعبثاً ما كنت أبذل أقصى مجهودى ، اذ كنت لا أكاد أتناول الواحدة من هذه الروايات وأقضى فى مطالعتها لحظة حتى أحس كأن دويا هائلا يملأ صماخ أذنى ، وكأن دمدمة مرعبة تمزق غشاء مخى ، ثم يعقب ذلك سبات مغناطيسى كأشد ما يكون السبات اجهاداً للاعصاب وازعاجا . فاذا حاولت أن أدافع هذا الكابوس عن نفسى ، وأن لا أستسلم له الاستسلام كله تولانى شعور لم يخالجنى أبداً من قبل مثله ، فأحس كأنى هابط فى منحدر الهذيان ، وكأنى أوشك أن يغمى علىّ اغماء يفقدنى كل احساس . وأخيراً بناء على أمر الطبيب ، وخشية أن تصاب كل قواى العقلية والبدنية بالتلف وأن يحل بينبوعها انحلال عام ، أقلعت كارها ، ولكن مصمما ، من هذه المحاولات المهلكة العقيمة . عجبا والله ! هل فى

الامر سر ؟ هل ههنا أمثال تلك الارصاد التي يزعمون انها تحرس هيا كل المؤمنين من تهجم الكفار ؟ بيد انه كيفما دار الامر فما نحسب القارىء ، بعد هذا الاخفاق بالرغم من هذه المجهودات ، الا مفسحا لنا ساحة العذر اذا جاءت الصورة التي نحن موردوها عن عشيرة المتأنقين مبتورة غير وافية

« واذ كنت غير مستغن لا عن حياتي ولا عن حواسي فليس في الارض قوة تستطيع حملي على ان افتح مرة أخرى رواية من هذه الروايات . ولكن من حسن الحظ ان تمتد الي ، واني لفي هذه الحيرة ، يد من السحاب جاءتني ، ان لم يكن بالفتح المبين ، فعلى الاقل بالخلاص . ذلك اني كنت ذات يوم أفض لفافة بها بعض المطبوعات الواردة من بلاد الانجليز ، فوجدت بين الطيات الداخلية من غلافها بعض الاوراق المطبوعة كما هي العادة ، فلم استنكف ان انظر فيها بنوع من الاحترام كالذي يستشعره المسلمون حتى للاوراق المنبوذة ، حيث يصادف أحيانا ان يقف الاستاذ على معلومات طريفة . فليتصور القارىء دهشتي اذ وجدت على بعض هذه الاوراق السائبة التي يخيل الي انها جزء من مجلة انجليزية ما يشبه ان يكون مقالا عن نفس هذا الموضوع : موضوع الروايات الحديثة . فسرعان ما أخذت في قراءته وبحثه ، فاذا به على غموضه يتضمن هنا وهنا لمحات نيرات في صميم مذهب المتأنقين ، وأهم ما عثرت عليه من هذا القبيل بيان بما يصح ان يسمى اركان ملة الاناقة أو وصاياها المقدسة . واذ لم يكن عندي ادنى شك في صحة المصدر المستقى منه هذا البيان فاني أثبته هنا بنصه ، ومبالغة في الحيطة من الوقوع في الخطأ ها أنا ذا أترجمه للقراء بحرفه : —

« أركان الملة »

(١) غير مباح ان يكون فى تفصيل الثياب شىء على هيئة المثلث ، وغير مباح كذلك ان يكون فيها شيء من التجعد من الخلف.

(٢) الياقة أمر مهم جداً ويجب ان تكون منخفضة من الوراء

(٣) لا شيء أدل على سلامة ذوق المرء من خواتمه

(٤) مباح للناس ، مع مراعاة بعض القيود ، ان يلبسوا صدارات بيضاء .

(٥) يجب ان يكون البنطلون ضيقاً جدا حول الفخذين.

« يناقض شيعة المتأنقين هذه على خط مستقيم شيعة بريطانية أخرى ، أصل منشئها فى ارلندة ولكنها آخذة فى الانتشار في كل مكان من الجزر البريطانية. واذلم يكن لهذه الشيعة كتب دينية تفسر ملتها وتوضح منهجها فانه يحيط بها من الغموض مثل ما يحيط بشيعة المتأنقين التى وان تكن لها كتب مقدسة الا أنها كتب كمدمها لا يستطيع العقل البشري ان يفقه من اسرارها شيئاً . واعضاء هذه الشيعة يتسمون باسماء مختلفة باختلاف أماكنهم، ولكن هنالك اسماً جامعاً يطلق على العشيرة كلها وهو الفقراء الارقاء ، فنكتفى به ونضرب عن سائر الاسماء صفحا .

« وانه ليكاد يكون من المتعذر ان نهتدى الى ما تعتقده هذه العشيرة من معتقدات نظرية ، وان نقف على آرائها فى الكون وفى الانسان وفى حياة الانسان ، وأن ندرك ما يخالج الفرد من اعضائها من العواطف وهو ينظر خلفه الى الماضى أو يتلفت حوله فى الحاضر أو يتطلع أمامه الى المستقبل . وانه ليلوح للمتأمل فى نظام هذه العشيرة انه مصطبغ بصبغة الرهبنة ، فانك تراهم مقيدين بنذرين من نذور الرهبان : نذر الفقر ونذر الطاعة . وهم

يتمسكون بهذين النذرين ، ولا سيما نذر الفقر ، أشد التمسك . بل لقد علمت انهم منذورون للفقر حتى قبل مولدهم . أما النذر الثالث من نذور الرهبنة وهو نذر العفاف فليس ثمة ما يحملني على الظن بأنهم يتقيدون به . ..

« والظاهر انهم يقلدون عشيرة المتأنقين فى مبدأهم الاعظم وهو اتخاذ لباس مخصوص . بيد انه لا أمل للقارىء في ان يجد هنا وصفا لهذا اللباس الذى لا سبيل الى وصفه بهذه الأداة العاجزة : أداة اللغة . والواقع انه ليس الا مجموعة لا تحصى من الخرق والمزق والرقع متخذة من جميع أصناف الأقمشة وجميع ضروب الالوان ، وهم يدرجون أجسامهم في طيات تعاريجه وتلافيفه بطريقة غريبة غير معروفة . واجزاء هذا اللباس مترابط بعضها ببعض بمجموعة من الازرة والاربطة يضاف اليها فى كثير من الاحيان حزام من الجلد أو من الكتان أو من القش يلف حول الخصر . والظاهر انهم يفضلون القش ، حتى لقد يتخذون منه نعالهم فى أكثر الاحيان .

« ولقد يخيل الى المتأمل أن هؤلاء القوم هم من عباد الارض ، فانهم لايخرجون عن أحد فريقين : فريق دائب على الحفر فيها مغرم بالعمل فى جوفها [١] ، وفريق محبوس فى خلوات خاصة لاعمل له الا التأمل فى المواد المستخرجة منها ومعالجتها [٢] ، ولذلك تراهم قلما يرفعون أبصارهم نحو الكواكب السماوية ، وان فعلوا ففى جمود لاتختلجه عاطفة . وهم يعيشون في مساكن مظلمة ، بل لقد تراهم يعمدون الي تكسير زجاج نوافذهم حيثما يجدون شيئا منه ، ثم يسدونها ببعض الخرق أو ماعداها من المواد الكثيفة حتى تعود الى المكان ظلمته المناسبة . وهم ، شأن كل عباد الطبيعة ، معرضون

(١) يقصد عمال المناجم (٢) يقصد عمال المصانع

لانفجارات من التحمس تبلغ حد التوحش ، فتراهم يحرقون الآدميين ، ان لم يكن فى كثبان الاوثان الخشبية ، فبين جدران الأكواخ الطينية .

« ولهؤلاء القوم من حيث الأكل قواعد يراعونها ، فهم جميعاً على مايظهر من أكلة الجذور ، وقليل منهم يأكلون السمك المملح ، أما ماعدا ذلك من أصناف اللحوم فحرم عندهم . على أنهم يحللون أكل الحيوان الذى يموت موتاً طبيعيا ، فهم فى ذلك يناقضون المسلمين والبراهمة . وأكثر مايأكلون الجذر المعروف بالبطاطس ، يأكلونه قفاراً بلا ادام . وأماشرابهم فلونان متناقضان أشد التناقض : اللبن وهو أرق السوائل مزاجاً ، و « البوتين » وهو أعنف الأشربة سورة . ولقد اتيح لى أن أذوق هذا الشراب فاذا به يحوى نوعاً من الكحول فى أعلى درجة من التركز ، واذا به على الجملة احرق مادة تذوقها لسانى ، ولك أن تسميه اذا شئت ناراً سائلة . على أنهم يستهلكون منه كميات غزيرة ، ووجوده بوفرة أمر لابد منه فى جميع حفلاتهم الدينية .

ولقد أعطانا أحد السياح الارلنديين صورة لداخلية بيت أهله على مايظهر من اتباع هذه الملة . وهكذا سيتاح للقراء من الالمان أن يشاهدوا فقيراً ارلنديا ، كأنهم يرونه بأعينهم ، بل أن يشاهدوه وهو يتناول طعامه . وكنا قد عثرنا فى تلك الصحيفة القيمة التى وجدناها فى غلاف اللفافة على صورة لداخلية بيت لأحد المتأنقين . فرأينا من باب المقابلة أن تثبتها هى الاخرى هنا .

وصف لمسكن فقير

« يشتمل الاثاث على قدر كبيرة من الحديد ومنضدتين من الخشب ومقعدين وكرسيين وزق للبوتين . والجزء الاعلى من المسكن عبارة عن

صندلية يصعد اليها بسلم وينام فيها أهل البيت . أما القسم الاسفل فشطور شطرين : واحد للبقرة والخنزير والآخر لجلوس أهل البيت والضيوف . ولما دخلنا البيت وجدنا أهله يتناولون الطعام ، وكانوا احد عشر شخصا ، وكان الاب جالساً فى صدر المائدة والام فى الناحية المقابلة له والاولاد مصطفون على الجانبين، وكانت المائدة عبارة عن كتلة من الخشب فى وسطها نقره تلقى فيها محتويات قدر البطاطس ، وعلى أبعاد متساوية بطول دائرتها ثقوب صغيرة يوضع فيها الملح . وكان فوق المائدة وطاب مملوء لبنا . أما عدا ذلك من الادوات كالملاعق والشوك والصحاف ، ومن اطايب الاطعمة كاللحوم ولباب البر والجمة فكل هذا قد استغنى القوم عنه . وكان رب البيت رجلا عريض الالواح ، أغبر السحنة ، شديد الاسر يمتد شدقه من الأذن الى الأذن . أما زوجته فامرأة ملوّحة البشرة ولكنها مليحة التقاسيم ، وكان الصغار عرايا يلتهمون الطعام بشهية العقبان.

وصف لمسكن متأنق

« غرفة « تواليت » فاخرة الرياش ذات ستائر بنفسجية وكراسى وارائك من اللون عينه ، وبها منضدة على جانبيها مرآتان بطول الانسان ، وفى ناحية أخرى منضدة أصغر حجما مرصعة بالصدف وعليها زجاجات عدة مملوءة بانواع الطيوب والعطور ومرتبة على نظام بديع . وفى الجهة المقابلة ادوات الاغتسال وكلها من خالص الفضة . وعلى اليسار خزانة الملابس من خشب الصندل العاطر تغص بما أودعت من فاخر الثياب وتحتل رفوفها السفلى ازواج عدة من الاحذية هى الغاية فى صغر الحجم ودقة الصنع . وعلى اليسار باب منخفض يلمح منه الناظر غرفة الحمام تتألق بمحتوياتها تألقا »

« هاتان هما الشيعتان اللتان تقتسمان فيما بينهما الشطر غير المستقر من الشعب البريطاني ـ والظاهر أن شيعة الفقـراء ، أولا الاجراء كما يدعون أحيانا ، آخذة كل آن في الازدياد عددا وقوة. أما شيعة المتأنقين فليس من طبعها ان تسعى لاكتساب الانصار ، ولكنها تعتمد على مواردها الوراثية العظيمة. وهي قوية باتحادها خلافا لشيعة الاجراء التي لاتزال متفرقة احزابا لا تجمع بينها رابطة . ولذلك ترى المتأنقين يقتحمون الاجراء بعيونهم ، ولكن لعل ساعة الامتحان اذ يتبين بجلاء أي الشيعتين أحق بأن تقتحم الاخرى بنظرها ليست بعيدة كل البعد .

« والذي يلوح لي أن هاتين الشيعتين ستقتسمان بلاد الانجليز فيما بينهما يوما من الايام ، بعد أن تضما اليهما كل ماهنالك من الطبقات التي هي الان فاصلة بينهما ، وغير منتمية الى أيهما . عندئذ نجد الشعب البريطاني قد انشطر الى معسكرين: معسكر المتأنقين ومن يلوذ بكنفهم، ومعسكر الاجراء الارقاء ومن ينضوي الى لوائهم . واني لاشبه هاتين الشيعتين بدوامتين فوارتين قد انفجرتا على الجانبين المتقابلين من الارض اليابسة تبدوان الآن كأنهما عينان هدارتان مزبدتان لايعجز الانسان ردمهما ، ولكن تأمل فيهما مليا ، تجد قطريهما يزدادان اتساعا في كل آن ، انهما في الواقع فوهتا بركان متصل بأعماق الهاوية التي ماهذه الارض اليابسة الاقشرة رقيقة على متنها الموار . وهكذا تجد الارض الفاصلة بين الدوامتين آخذة كل يوم في الانهيار ، كما تجد كلا من الفوهتين آخذة كل يوم في الاستنهار ، حتى لايبقى فاصل بينهما الا برزخ أدق من الصراط ، ثم لا يلبث هذا حتى يكتسح أيضاً ، وعندئذ ـ

عندئذ لايروعك الا أبواب الجحيم قد انفتحت ، فاذا الطوفان الذى يغرق طوفان نوح فى ضحضاحه !

« أو قل اذا شئت إن هاتين الشيعتين هما أشبه شىء بآلتين كهربائيتين هائلتين لا نظير لهما ، مشتملتين على بطاريات متضادة : احداهما وهى شيعة الاجراء ذات بطاريات سلبية ، والاخرى وهى شيعة المتأنقين ذات بطاريات ايجابية ، فهذه تجذب اليها كل مافى الامة من كهربائية ايجابية (أعنى المال) وتلك تجذب اليها كل مافى الامة من كهربائية سلبية (أعني الجوع) . ولئن كنت لم تلمح فيما بينهما حتى الآن الا شرارات متقطعة جزئية ، فانتظر قليلا حتى تصبح الأمة كلها فى حالة متكهربة ، حتى تعود الكهربائية الحيوية بأسرها ، لا كما كانت فى حالة تعادل صحى ، بل منشطرة شطرين منعزلين من ايجابى وسلبي (من مال ومن جوع) كل منهما مشحون بمفرده فى بطارياته الخاصة . إذ ذاك يكفى أن يحرك طفل أصبعه حتى يلتقى الضدان ، وعندئذ — عندئذ تقع الواقعة التى تذر الارض فى دمادمها رمادا هابيا ، فاذا الشمس قد فقدت أحد كواكبها السيارة ، واذا القمر أصبح لايرهب خسوفا !

«أو قل اذا شئت ... »

كلا ! بل حسبنا تشبيهات واستعارات لاندرى فى الواقع اينا ، نحن ام الاستاذ ، قد بذ صاحبه فى ميدانها .

لطالما عتبنا على الاستاذ لميله الى الاسهاب والاغراق ، ولطالما آنسنا منه نزعته الى الباطنية والى تأمل كل شيء من الناحية الدينيه ، ولكن الحق أن هذه النزعة وذلك الميل لم يفسدا عليه نظره ، الذى عهدنا به اثقب من الشهاب ، كما أسداه عليه فى هذا الفصل المعنون « بعشيرة المتأنقين» . ام هل ترى الاستاذ

لايقصد باقواله هذه الى الجد ولـكن الى التهكم، وانه ليس من الغباوة والمشاورة بحيث يتكلف أن يكون ؟ أما لو كنا ازاء انسان عادى لما ترددنا فى الرد بالايجاب، ولـكن بالنسبة لرجل غريب الاطوار كالاستاذ لا يستطيع المرء أن يخلص من الارتياب .

والآن نورد ملاحظات الاستاذ عن طائفة الخياطين ، ومن حسن الحظ ان رأينا هنا يتفق تمام الاتفاق ورأي الفيلسوف كما دونه فى الصفحة الأخيرة من كتابه ، اذن فلنتركه يدلى الى القارىء بكلماته الختامية : —

«لابد أن ينقضي نيف وقرن ونزاع الحرية الدامى مشبوب لظاه ،وشيطان الظلم يذهب بضحاياه ، وملاك العدل يأخذ شهداه، قبل أن يعترف للخياطين بحقوقهم فى الآدمية ، وقبل أن يندمل بهذا الاعتراف آخر جرح في جسم الانسانية .

« والواقع أنه اذا كان فى تاريخ الغباوة شيء يدعو الي العجب ، فهنا يحق لنا أن نقف ونعجب . لقد نبتت فكرة انتشرت ايما انتشار،واستقرت فى الأذهان ايما استقرار، مؤداها أن الخياط ليس بانسان ، وانما هو جزء من الانسان . فأصبح الخياط وكل مايلابسه موضع الازدراء،حتى لو أنك نبزت أمرأ بلقب خياط لاجتلبت بذلك عداوته اللداء .

« ولكن اذا لم يكن سهرى الليالى الطوال ، ومواصلتى البحث بلا تعب ولا ملال ؛ سيذهبان أدراج الرياح فلست أشك فى أن الدنيا ستنبذ الآن هذه الفكرة الخاطئة ، وفى أنه سوف يتضح للناس بكل جلاء أن الخياط ليس انسانا فحسب ، بل هو بمعنى ما خالق أو آله .

لقد قيل عن فرانكلن انه انتزع الصاعقة من السماء والصولجـان من الملوك ، ولـكنى أقول متسائلا : ايهما أعظم شأنا ، الذى يعطى ويمنح، ام الذى يسلب وينزع ؟ الاترى الى الخياط كيف يتناول الانسان عاريا فيخرجه من يديه كاسيا ، عليه رداء ، لامن مجـرد الصوف أو القطن ، بل من المجـد والعلاء ، والسؤدد والـسناء ؟ اليس هذا النسيج البديع ، نسيج الهيئة الاجتماعية بما حوى من حلل ملوكية وطيالس كهنوتية انتشلت الانسانية من حالة العرى والتفرق فنظمتها هيئات متعاونة وجماعات متضامنة. اليس هذا النسيج من صنع الخياط وحده ، كما أقمنا على ذلك غير مرة الدليل الساطع ، والبرهان القاطع ؟ بل حدثنى اليس كل شعرائك و معلميك الروحانيين ضربا من الخياطين المجازيين ؟

«وهذا اذن هو الذى يجلس فى حانوته منكس الرأس ، قد ضربت عليه المسكنة ، وتناولته من كل ناحية نظرات الاحتقار ! ايه أيهـا المضطهـد المستضام ! ارفع رأسك وانظر بعين الامل المشرقة ، وابشر بقدوم عهد سعيد . لطالما جلست فى حانوتك مكبا على عملك ، كانك ناسك فى صومعته ، مستغرق فى العبادة ، يستنزل من السماء أطيب بركاتها على عالم يسخر منه ويهزأ به . ولـكن صبرا ! صبرا ! هاهى تباشير الفجر قد لاحت من خلال السحب السوداء ، مبشرة بان ظلمات الجهل توشك أن تتمزق ، وبان وجه الصباح يوشك أن يشرق ، وعندئذ تؤدى اليك الانسانية دينها المطول مضاعفا ، ويصبح الناسك المزدرى معبوداً مبجلا ، نعم ويصير الكسر رقما صحيحا ، بل مربعا ومكعبا . »

(تم الـكتاب بعون الله)

فهرست الكتاب

رقم الصفحة

اصلاح خطأ

ص	سطر	الخطأ	الصواب
١٨	١٩	ذهنى	ذهن
٢٤	١٤	الفيلسوف	للفيلسوف
٢٦	١٢	عملنا	علمنا
٣٧	٩	الصفات	الصفاة
٤٦	١٣	بعوتة	بعونة
٤٧	٨	وتصاوير	تصاوير
٥٥	٣	المشوهات	الشوهات
٧١	٨	ليجديان	ليجديا
٧٢	١٦	أباى	أبى
٨٤	١٧	كان	كأنه
٨٧	١٠	التقبيل	التقتيل
٨٨	٦	السرور	السرو
١١٠	٩	مائلة	ماثلة
١٢١	١	تصمى	ونظرات تصمى
١٢٣	١٤	الخيربة	الخاوية
١٤٠	٢	يلحفك	يلفحك
١٥٣	٣	ستائره	ستائر
١٥٨	١٥	وعلل	وتململ

